

آثر غابریل یاک

سُورَانُو الْقِيَامَةِ

رَوَايَة

مكتبة نوميديا

t.me/Numidia_Library



بِهِمْهَا:
مُزَيِّنُ بْنُ حُومَةَ

رُؤُوسُ رَاغُ (لِقَامَتِ)

آثر غائبیل ایک

سُورَانُو (لِقِیَامَت)

رَویَہ



الكاتب: آرثر غابرييل ياك
عنوان الكتاب: سوبرانو القيامة

خط الغلاف: الفنان سمير قويعة
تصميم الغلاف: الشاعر محمد النبهان

ر.د.م.ك: 6-027-24-9938-978
الطبعة الأولى: أغسطس 2018

جميع الحقوق محفوظة للناسر ©



مسكيليانى للنشر والتوزيع

15 نهج أنقلترا تونس- تونس العاصمة

الهاتف: 21512226 (+216) أو 537090811 (+966)

الإيميل: masciliana_editions@yahoo.com

مقدمة

دارت أحداث هذه القصة الواقعية في جوبا عاصمة جنوب السودان. ولم أكن من ضمن الذين عاصروا وقائعها وزاروا ضريح الزعيم عندما بدأ كل شيء يُبعث من الموت. إنَّها رواها لي، بالتفصيل الدقيق، الشاهد الوحيد الذي رفض ذكر اسمه هنا خشية أن يتورط مع السلطات، فقد تعهّد أمامها، شفاهةً وكتابةً، بعدم رواية أحداثها. والقصة، من جهة غرابتها، هي الثالثة من نوعها في تاريخ البشرية، حتّى إنّ النبيّ أنطوني فرانسيسكو مؤسس «كنيسة القيامة» سمّاها «معجزة القرن».

اعتمدت في تأليف هذا الكتاب على الشاهد الوحيد الذي سرد لي وقائع «معجزة القرن» بلغة قبيلته التي لا أعرفها. ولما كان لا يجيد اللغة العربية أو الإنجليزيّة، اضطررت إلى الاعتماد على مترجم فوريّ ليترجم لي من تلك اللغة كلّ الأسئلة التي طرحتها على الشاهد الوحيد وإجاباتها إلى اللغة الإنجليزية، ثمّ نقلتها إلى اللغة العربية قبل الشروع في الكتابة.

هذا التنويه، لا بدّ منه لتنبيه القراء، لأنّهم سيجدون الحوارات بين شخصيات هذه القصة بالعربيّة الفصحى، فقد اعتمدتها في ترجمتي من اللغة الإنجليزيّة التي نقلها لي المترجم الفوريّ عن لغة قبيلة الباريا، لغة

الشاهد الوحيد الذي قال إنّ مُعظم الشخصيّات التي ذكرها تنتمي إلى أكثر من خمس قبائل مختلفة رفض ذكرها لي على الرغم من إلحاحي الشّدِيد. لهذا السبب، كان من الاستحالة بمكان تخيُّل حوارات لأكثر من ستّ قبائل دارت بلغات مختلفة، بالإضافة إلى تلك التي دارت بالعربيّة والإنجليزيّة وهي قليلة، فاعتمدتُ حلاًّ وسطاً، وهو استخدام العربيّة الفصحى في كلّ الحوارات.

شيء آخر لا بدّ من ذكره، هو أنّ كلّ الشخصيّات المذكورة هنا واقعيّة لكنّها بأسماء غير أسمائها الحقيقيّة، فإنّ تطابقت تلك الأسماء مع أخرى واقعيّة فقد يكون ذلك مجرد صدفة، وإنّ شعر القارئ، وهو يتابع أحداث هذه القصّة، بأنّ الأمر خلاف ذلك!

معجزة القرن

الآن، مرّت أكثر من ثلاثة عقود على تلك الليلة الفاحمة التي داهمني فيها حلمٌ غريبٌ. في ذلك اليوم بلغتُ عشر سنواتٍ، وهو اليوم نفسه الذي بلغ فيه أخي أغسطينو سنّ المراهقة وحدثنا -نيمايا وأنا-، ونحن في طريقنا إلى المدرسة، عن تجربته الأخاذة مع الاحتلام حين زارته فتاة سمراء طويلة كالقنا، وعَبَّثَتْ بأشياءه إلى أن تجشأ مخلوقه الصغير وتقيّاً سائل الحياة الفاضح! وهو حدث عبَّرَ عنه نيمايا الذي يكبره بعامٍ واحدٍ بما يشبه نبوءة سماويةٍ نزلت عليه طازجةً مقدّسة، ثم تَلَفَّت حول نفسه وتطلّع في وجه أخي، كأنّه يقرأ تعابير عينيه ليفسّر مسيرة حياته في السنوات الخمسين القادمة، وقال له وهو يطلق ضحكةً كزجاجة ضبع:

-الآن، يمكنك أن تمارس الحبّ وتنجب ابنًا يا أغسطينو!

نظرتُ إلى أغسطينو وتفحصته من قَمّة رأسه، إلى أصابع رجلَيْه المعفّرة بالتراب، والمقشّرة كطلاءٍ حائِطٍ قديم. ولسوء حظي، لم يُثْمِرْ بحثي المضني في جسده النحيل وهو يستند إلى سور مدرسة خور مدير، ويفتّش بعينه الصقريّتين بين أطفال المدارس المنطلقين صوب بوابة المدرسة، عن طفله التائه الذي دُثِّنَ بنطاله ليلة أمس... لم يثمر بحثي عن لحيّة أو شاربٍ مفتولٍ مثل شارب والدي، يشير إلى أنّ أغسطينو قد يكون مؤهّلاً، ذكورياً، لينجب ابنًا مثلي، كما قال نيمايا وهو يقبض

على بطنه من الضحك حين رأى شعاع الأبوة الزائفة ينبعث من عيني أغسطينو المذعور. هكذا كان نيمايا بارعاً في خلق القصص الغريبة وحبكتها وروايتها بطريقة شيقة كأنه خياط بارع. كان حبل الرغبة في الإفصاح عن حلمي لأخي يشدني بقوة، بيد أن لساني انعقد بعد أن رأيت وجه أخي مكفهرًا، فخشيت أن أنجرف إلى المصير نفسه.

بعد ثلاثة عقودٍ من ذلك الصباح البعيد، وأنا أقف الآن أمامه، أتحدث إليه وهو جالس على الضريح، والمطر ينزل بصخبٍ كأنه يريد بتر خيوط حديثنا، أو لعله يحاول - كما شعرتُ، ولا أدرك كيف شعر هو إن كان الموتى يشعرون - أن يُغرق قارب ذاكرتي ويمنعه من الإبحار صوب ذاك الحلم بتفاصيله المتشعبة. كان الحنين إلى الماضي يملأ نفسي، فتمنيت أن يزورني الحلم القديم نفسه، على الأقل، لأستمع إلى حكايات أخي الذي حذا نيمايا حذوه في ابتداع الحكايات بدهاء مذهل، كأتمها قصص واقعية حدثت في حيٍّ بعيد عن حيّا كما كان يقول.

- كثيرة هي الأحلام التي نراها في النوم، ولا نراها مرةً أخرى إلا حين نقرب من الموت.

قال أخي حين حدثته عن ذلك الحلم، إنه تذكّر بلوغني العاشرة قبل ثلاثين عامًا، وتذكّر حلم احتلامه، والشارع المغبرّ نفسه الذي غادر فيه هذا العالم بعد ثلاثة أيام من نبوءته تلك، إذ دهسته شاحنةٌ سائقها معاقِرٌ خمر شهير، لا يُقلع عن ازدراء كلّ البشر حتّى الشيوخ منهم.

حين أيقظني أغسطينو في ذلك الصباح، كانت الشمسُ محجوبةً خلف ستار ثقيل من سحبٍ غبشاء، جعلت والدتي تُعلن عن قلقها

بهتاف أشبه ما يكون بتبرّم من هذا الجوّ العابس . كان والدي جالسا على كرسيّ الخشب بوجه مُتجهّم، متجعّد كأنّه قد أبحر نحو الشيخوخة في ليلة واحدة. ألقينا عليه تحية الصباح وخرجنا إلى الشارع الترابيّ الأحمر. لم يلو، جنّوار، كلبنا الأبيض ذيله كعادته، عندما مررنا بالقرب منه. فقد كان ينظر إلينا بعينين دامتئ مشؤومتين. حثني أخي على الإسراع لأنّنا تأخرنا عن ساعة قرع جرس المدرسة، فقد كنّا نرقص بخيلاء لرنينه الموسيقيّ العذب، ونحن نركض إلى طابور الصباح.

كان الناس في الشارع يمشون -على غير عادتهم- ببطء شديد، كأنّهم يسرون في موكبٍ جنازيّ لإنسان شهير. وكانت النسوة الذاهبات إلى السوق بثيابهنّ الإفريقيّة المزركشة وشعورهنّ المضفّرة السوداء اللامعة، يسحبن أرجلهنّ كأرامل مُلتاعات، لا يثرثن عن أسرار الليل التي تحدث في غرف الزوجيّة، ولا عن طبائع أزواجهنّ الغريبة وهم يصيحون بأسماء نسائيّة غريبة في كوابيس أحلامهم.

كان كلّ شيء يبدو كأنّ القدر نفسه قد طاف العالم دهرًا، وتعب فحطّ رحاله اليوم في سماء المدينة، ينظر إلينا من عليائه، ويفكّر في ما سيفعله بالناس!

اقتربنا من مدرسة خور مدير بسورها الحجريّ المجلوّ بتراب أحمر. ومن بين فروع شجر المانجو، أطلّ في الأفق الأغشب صليبٌ كبير على قمّة كاتدرائيّة القديسة مريم المائلة، كمؤخّرة سفينة بدأت تغرق من مقدّماتها. كانت رسومات القديسين والقديسات والملائكة المنقوشة على زجاجات نوافذها الطويلة مخفيّة خلف أوراق الشجر. لكنّي كنت أراها، بفسيفساء ألوانها الزرقاء والخضراء والحمراء والصفراء

الفاقة بعيني ذاكرتي؛ أطفال بأجنحة ملائكية يطوفون في فضاء أزرق،
ويحملون قيثارات صغيرة برّاقة، وعلى شفاههم الطرية ناي ومزامير
تصفّر بأناشيد وتساييح كأثهم في محفل سماويّ، تبوّؤوا منصّة ذاكرتي
فجأةً، وشعرت بأنّي واقف خلف المؤمنين المصطفّين في وسط الكنيسة
في انتظار تناول لحم المسيح في أحد الآحاد. سال ريقني فابتلعتة، ونحن
على وشك عبور الشارع والدّخول إلى المدرسة. حدّقتُ في وجه
أغسطينو المُستعبر لأرى هل شاهد السفينة التي بدأت تغرق منذ مئات
السنين، فألفيت وجهه شاحبًا، تائهاً كروح بريئة أبلغتها الحياة بأنّ
أجلها سيأزف في أيّ لحظة.

كان كلّ شيء يوحي بأنّ لا شيء سيكون على ما يرام! على الأقلّ،
في السماء التي كانت تزداد قتامةً كلّما اقتربنا من المدرسة.

قبل أن نعبر الشارع ونتّجه إلى البوّابة الحديدية المكتظّة بالتلاميذ،
شعرتُ بالأرض تزلزل تحت قدميّ. وقفتُ، والتفتُ على يساري فرأيتها
قادمة هناك، قاطرة كبيرة منطلقة بسرعة، مثيرة عاصفة ترابية كأنّها تجرّ
خلفها أنبوبًا غباريًا ضخماً. اختفت البيوت، وضاعت الشوارع وهرع
الناس وتلاشت الدكاكين وسط هذا الوحش الذي اختفى الآن، ولم
يعد يبدو منه سوى أنبوب يغطّي الأشجار والسماء. كان صوته مُرعبًا
كوحش ضارٍ في فيلم هنديّ، انبثق من جوف الغابة واقتحم المدينة
يعيث فيها دمارًا. تملّكتني حيرة عظيمة وأنا أبصر هذا الشيء المرعب
والبديع معًا، قادمًا لا يحيد عن مساره المخطّط له منذ مئات السنين.
نظرتُ مرّة أخرى إلى أغسطينو فوجدته واقفًا ويداه في خصره، فاغرًا
فاه، متسمّرًا في مكانه كإله إفريقيّ قديم يزور مدينةً للمرّة الأولى. فجأةً

أَلْفَيْتُ نَفْسِي أَحْلَقَ فِي الْفَضَاءِ وَرَأَيْتُ الْأَطْفَالَ يَرْكُضُونَ كَأَنَّهُمْ كَتَاكَيْتُ
تَهْرَبُ مِنْ صَقَرٍ يَخْطُطُ لَخَطْفِ أَحَدِهِمْ. يَدُ خَشْنَةٍ، كِرَافَعَةٍ مِنَ الْحَدِيدِ،
انْتَشَلَتْني مِنْ رَدَائِي الْقَصِيرِ وَرَفَعَتْني عَالِيًا، ثُمَّ رَمَتْني بَعِيدًا فَوَجَدْتَنِي
وَسَطَ عَاصِفَةٍ تَرَابِيَّةٍ كَثِيفَةٍ مَلَأَتْ فَمِي وَأَنْفِي. وَنَهَضْتُ أَنْفَضَ قَمِيصِي
الْأَبْيَضَ الَّذِي صَارَ بِلَوْنِ الطُوبِ. نَفَضْتُ جَسَدِي وَمَسَحْتُ وَجْهِي
وَبَصَقْتُ قِطْعَةً طِينٍ سَدَّتْ حَلْقِي. كَانَ التَّلَامِيذُ يَصْرُخُونَ، وَالنِّسْوَةُ
الَّتَاكِ كَنَّ ذَاهِبَاتٍ إِلَى السُّوقِ يَتَتَبِعْنَ وَيَلْطَمْنَ صُدُورَهُنَّ وَيَصْفَعْنَ
وَجُوهَهُنَّ بِقُبْضَاتِهِنَّ، بَيْنَمَا أَخَذَ الرِّجَالُ يَشْدُونَ عَلَى أَكْتَافِهِمْ وَيَهْزُونَ
رُؤُوسَهُمْ غَضَبًا. نَزَعْتُ إِحْدَاهُنَّ ثَوْبَهَا الْأَبْيَضَ وَلَفَّتَهُ حَوْلَ جَسَدِهَا
النَّحِيلِ، وَكَانَ ذَلِكَ أَوَّلَ عَهْدِي بِرُؤْيَا الْمَوْتِ الْقَبِيحِ وَجْهًا لَوَجْهِ:
كَانَ أَخِي أَغُسْطِينُو مَغْمُضَ الْعَيْنَيْنِ وَقَدْ غَابَ عَنْهُ ذَلِكَ الْوَجْهِ الْبَاسِمِ
وَرَحَلَ عَنْ حَيَاتِي إِلَى الْأَبَدِ: رَبِّمَا حَانَ وَقْتُ الرِّحِيلِ، قَلْتُ فِي نَفْسِي، وَأَنَا
أَتَذَكَّرُ كَلَامَهُ.

كَانَ الضَّرِيحُ الَّذِي شُيِّدَ قَبْلَ عَقْدٍ مِنَ الزَّمَانِ - وَكُنْتُ قَدْ حَلَمْتُ بِهِ
قَبْلَ ثَلَاثِينَ عَامًا، وَهُوَ حَلْمٌ لَمْ أَقْصِهِ عَلَى أَغُسْطِينُو لِأَنَّهُ مَاتَ - يَتَجَسَّدُ
أَمَامِي الْآنَ، مُبْتَلَاً بِزَخَّاتِ الْمَطَرِ الْإِسْتَوَائِيِّ الْمُنْهَمِرِ لِأَكْثَرِ مِنْ سِتِّ
سَاعَاتٍ مُتَوَاصِلَةٍ، مُفْعَمًا بِالسَّكِينَةِ وَالْهُدُوءِ كَدِيرٍ قَدِيمٍ هَجَرَهُ الرُّهْبَانُ.
وَكُنْتُ أَنَا، الرَّقِيبُ أَجَانِقُ، عِنْدَمَا دَقَّتْ سَاعَةُ يَدَيِ الْإِلِكْتَرُونِيَّةِ السُّودَاءِ
تَعْلَنَ، عَبْرَ نَغْمَةٍ مُوسِيقَاهَا الصِّينِيَّةِ، عَنِ الْوَاحِدَةِ صَبَاحًا، أَقَاوِمُ وَخَزَاتِ
خَلِيَّةِ النَّمْلِ وَهِيَ تَزْحَفُ حَثِيثًا تَحْتَ جَفْنِي الْمُثْخِنِينَ بِالْأَرْقِ وَالرَّهَقِ.
أَنْوَارُ سِيَّارَاتٍ بِإِضَاءَاتِهَا الْبَاهِتَةِ بِفَعْلِ خِيُوطِ الْمَطَرِ السَّمِيكَةِ تَظْهَرُ بَعِيدًا
ثُمَّ تَقْتَرِبُ وَتُخْتَفِي فِي الشُّوَارِعِ الْمَظْلَمَةِ خَارِجَ السُّورِ. كُنْتُ أَسْمَعُ ثَغَاءَ

غنم تائهة، ونباح كلاب تطاردها أو ربّما تمزح معها في هذا الجوّ البارد الكئيب. وكان زميلاي يشخران بصوتٍ عالٍ في تناغمٍ متنافر، كأثهما يتسابقان في ماراطون شخيريّ، تاركين الزعيم في قيلولته الأبدية داخل ضريحه المهيب، أو لعلّهما كانا يُنفّذان أوامر ضابط الشرطة العسكريّة الذي زعق في وجوهنا قائلا: دعوا الزعيم ينام في هدوء، يارفاق.

هكذا ألقى بأمرٍ سمعناه كثيرًا حدّ الملل والرغبة في التغوُّط بأعزّ مكان في جسمه!

كان لحنُ شخيرهما يعذبّني كعزفٍ موسيقيّ ساذج حزين، وهزيمُ الرعد الشبيه بتصفيق النسوة في ليلة عرسٍ يُرعبني، ووميض بريقه الساطع يكاد يُعميني، ذاك الوميض الذي أضاء جبل الكجور فبدا من بعيد كجداريّة ضخمة لشيخ هرم أصابته لعنة الأجداد بأن يظلّ هكذا، مقرِّفًا طيلة سنوات عمره، فأخذ يُمنّي النفس بأن يزوره الموت ليرجيه من هذه اللعنة، وحين أضاء الرعد الضريح الإسمتيّ الصامت لأكثر من دقيقةٍ كاملة، رأيتُ فجأةً ذاك الحلم الذي زارني قبل ثلاثين عامًا متجسّدًا أمامي، وواضحًا كالبلّور: إنسان جالس فوق الضريح مُطرِّقًا وغير مبتلّ رغم المطر الذي كان يعصف بالقبر من الجهات الأربع، فظننت أنّ شيطان النوم الرجيم قد مسّني، وأنّني تُهتّ، بلا شكّ، في دروب حلمٍ شبيهة بتلك الحديقة المكوّنة من مرايا ضخمة ثلاثيّة الأبعاد، معلّقة في كلّ مكانٍ، تعكس ملايين الصور التي لا تُحصى، فلا تعرف من أنت من تلك الصور المعكوسة في خطوط وأشكال لا نهائية. أشعلتُ عود ثقابٍ، وثبّتُ جفنيّ ودعكتهما لأبدّد بقايا النوم والفرع وأتأكّد من أنّ ما أراه ليس إلّا شبح إنسان، وأنّي لم أكن أغرق، ببطءٍ، في تفاصيل

كوايس أحلام ثلاثين عاما مضت، حين غادر أغسطينو مهر وسًا تحت عجلات تلك السيّارة. لقد كنتُ مُستيقظًا حين صفعتُ وجهي لأتأكد من ذلك. وقلتُ لنفسي: تشجّع أيّها الرقيب!

امتشقت بندقيتي التي ربّما أودت بحياة الكثيرين ونقلتهم إلى الشطّ الآخر، ومشيتُ على مشطّي رجليّ كي لا يشعر بي الشبح ويختفي بين خيوط الوبال الضبابيّة المتساقطة، أو يتعذّب ضميره بتأنيب نوستالجيا الموت فيقرّر العودة إلى رطوبة القبر العطنة. حشوتُ سلاحي وصوّبته في اتجاهه. كانت بندقيتي باردة كالجليد، وجمدت يدي. هواء بارد لسع أنفي فسال مخاط مسحته بكمّ قميصي الكاكيّ. اقتربت من الشبح كما أنّما أنفاسي. شعرت بعينين جاحظتين تحاولان الخروج من محجريهما، رأيتُ حيوانًا جاء يركض ووقف بين رجله وهو يلهث بصوتٍ خفيف، فلم أصدّق ما رأيته! دنوت منه أكثر، وباغتني خطّ ضوئيّ قويّ متوهج في عرض السماء، سرى بسرعةٍ واختفى في الأفق الجنوبيّ، فتلحّفت المدينة بشباب من الظلام الكثيف. اقشعرّ بدني وكاد قلبي ينفجر. صفا ذهني من آثار الكحول التي كانت، منذ دقيقة واحدة، تعبث بعقلي، بعد أن تأكّدتُ من أنّ الشبح الجالس على الضريح، ليس إلّا الزعيم نفسه!

ارتعدت وكدتُ أسقط الكلاشنكوف المُشهر في وجهه. شعرتُ بكُرّةٍ من الجمر الساخن تنزلق عبر حنجرتي وتُحرق حلقي وتسدّ قصبتي وتمنع الأوكسجين من الوصول إلى رئتيّ. وبينما كنت أحسّ بأنّ الهواء في الضريح صار ثقيلًا كالطّمي، فاجأني الشبح قائلاً:

- أجانق. أنسيتني؟

نظرتُ خلفي فلم أرَ أحدًا. تلعثمتُ. اصطككتُ أسناني وجفّنتُ شفتاي وشعرتُ برغبة قويّة في إفراغ مثائتي. كانت معدتي تُدمدم، وخرجت الكلمات من فمي كأنّها طلقةٌ أخطأت الهدف: كيف أنساك، يا سيّدي؟ أجبتّه، بعد أن تأكّدت من أنّ صوت مُحدّثي، هو النسخة الأصليّة من صوت الزعيم. ابتسم في وجهي فقلت: لا بدّ أنّه استغلّ سطوع الرعد الساقط على وجهه ليؤكد لي أنّه الزعيم. وتأكّدت أكثر، بعد أن رأيتُ صلعته الفريدة اللامعة، وحُبيبات المطر تنزلق منها لتتدحرج على وجهه المتجهّم، وأخرى أبت أن تغادر صلعته الجرداء إلّا من سُعيراتٍ قليلةٍ مُبعثرة هنا وهناك، كحُبيبات طلٍّ على سطح زجاج أملس. كان يرتدي قميصًا إفريقيًا مُزركشًا، وبنطالًا أسودَ، وحذاءً أسودَ لامعًا من نوع «ستاسي أدامز» الأمريكيّة.

-أجانب، قال، ظهري يؤلمني. لقد قتلني الرُقّاد في هذا القبر!
ماذا يظنّ نفسه؟ أحيّ يُرزق مثلي؟ قلت في سرّي. ثمّ همستُ:
حاضر، سأتيك بكرسيّ.

-لا يا أجانب، قال، لقد سئمت الرُقّاد قرب هذه المغارة.
-عمّ تتحدّث أيّها الزعيم؟، سألتّه.

-عن ذاك المبنى الملعون الواقف هناك، تتمم وهو يومئ بيده.
كان يُشير إلى البرلمان الذي بدا كمجسّم لحيوانٍ مُنقرضٍ يربض في جوف الليل.

-وماذا فعلتم بخصوص مشروعا القوميّ، يا أجانب؟، أردف قائلاً.

-أيّ مشروعٍ يا زعيم؟، سألته.

-هل نسيت مشروعنا؟، سأل باستغراب، مشروع السودان الجديد!

- مشروع نيو سودان تحقق. لقد انفصلنا.

- ماذا قلت، يا أجانق؟

- قلت انفصلنا، يا سيّدي.

انتشرت شرارةٌ مرعبة في السماء كأنّ في أحد أركانها مطرقةٌ كبيرة تطرق حديدًا ساخنًا في صمتٍ. شعرتُ بعصرةٍ ما، في منطقةٍ ما أسفل مثنائي. حدّقت في الزعيم فرأيتُ عينيه عائميتين في بحرٍ دموعٍ دمويةٍ برّاقة. حدجني طويلا فبدت على وجهه أمارة حُزنٍ عميق كأنه يتمنّى الموت مرّةً أخرى حين سمع كلمة «انفصلنا»، وتمنّيت لو أنّي لم أكن أعرفه. كان وجهه كوجه إله حرب خسر معركةً. شعرتُ بأنّ كلّ أوجاع جنسيّات العالم حُقِنَتْ في رأسه، وبأنّ كلّ ألم يتضوّر، حسب جنسيّته، من حزنه ويبحث عن فتحة في رأسه لينبجس منها. سألني هل لديّ دواء يُبدّد به الصُّداع الذي داهمه على حين غرّة. وشعرتُ بحسرة، كأنّ جزءًا عزيزًا من نفسي بُتر، أو أنّ ضررًا لي سليمًا خلع عنوةً.

رأى الزعيم جمعًا غفيرًا من رفاقه جالسين تحت مظلةٍ كبيرة نُصبت أمامه، فأخذ يخطب فيه. كان خطابه يقطر حزنًا وهو يبكي بحرقّةٍ لأنّهم لم يفعلوا ما يكفي لإنجاح المشروع. كثيرًا ما توقّف في منتصف الخطاب ليمسح الدّموع من عينيه. وبين الحين والآخر، كان يشعر بخنجرٍ خائنٍ، مسمومٍ، يخز جنبيّه ببطء ويحول دونه والخطاب الانفعاليّ المُرتجل الذي

يلقيه على مسامعهم. كانت السماء صافية فلم أرَ أمامه سوى كلاب ضالةً احتمت من المطر بمظلة الضريح الزنك، ورقدت تحت رجليه. ربّما تختلف نظرات الموتى إلى الحيوانات، لذلك رآها مجرد بشر وأخذ يخطب فيها. لكنّه كان ينظر إلى الأفق الشماليّ، وليس إلى الكلاب الراقدة على مقربةٍ منه. يبدو أنّه لم يسمعني حين سألته: عمّ يتحدّث؟ ومع من؟ كانت الكلمات تخرج من فمه مبعثرة منكتمة، وبإيقاع فوضويّ، كأنّها تبذل جهداً كبيراً لتخرج خلسةً من بين فتحات أسنانه، وتتطاير في الهواء، ثمّ تتجمّع وتتظم في صفوف مستوية، وتكوّن جملاً مفيدة. وعندما سألته مرّةً أخرى: مع من تتحدّث يا سيّدي؟ أدرك أنّ ما كان يراه من جمع غفير أمامه، ليس سوى كائنات طفيليّة تجمّعت في مخيلته الميّتة. لاحظ أنّي أدقّق النظر في وجهه، فرشقني بنظرة قاسية قزّمتني. وكانت تلك النظرة كافية لتجعلني ألتقط كلّ تفاصيل وجهه في أقلّ من دقيقة، وهي المدّة التي ظلّ فيها برق ضخم بعشرات الأذرع يضيء الضريح الغارق في الصمت. إنّهُ الوجه نفسه الذي رأيته قبل أن يلقي مصرعه بأسبوعٍ في حادثة طائرة مشؤومة منذ سنوات. أعرف ما تفكّر فيه يا أجانق، قال لي. صمتُ. غرق الضريح في ظلمةٍ مبتئسة، وهذا دويّ السحب حين تنحّض الزعيم وأوماً إليّ بأنّ أجلس قربه. همهمْتُ، فسألني ما إذا كنتُ مرعوباً. فسألْتُ نفسي هل يمكن لبعض البشر أن يهزموا الموت ويعودوا بالجسد نفسه الذي غادرته الروح منذ أكثر من عشر سنين وهو على حاله.

-أعرف ما تفكّر فيه يا أجانق، قال، انتبه جيّداً، لأنّ ما سأقوله لك، يجب أن ترويه للذين يتبرّكون بقبري كلّ يوم، وهم ليسوا سوى منافقين يُدنّسونه بريائهم:

- كانت الشمس قد زاغت سريعاً صوب الغروب كأنها تودّع الدنيا وتعزل الحياة في ذلك اليوم الكارثي. لم أكن قد تناولت طعام العشاء، فاجتماعي بصديقي موسوليني لم ينتهِ بعد. لم يكُ لديّ ما أقوله، كان عقلي مزدحماً بمواعيد وواجبات عليّ أن أودّيها كنائب لرئيس الجمهوريّة في الخرطوم. وكانت الحديقة التي نجلس فيها جميلة، أنيقة، ومشذّبة كأنّها صبيّة إفريقية متأنّقة بألوان الأزاهير الزاهية والأضواء الخافتة. كان القصر الرئاسيّ هادئاً، ولم نكن نسمع سوى موسيقى العصفير الغنّاء، ونسائم ناعمة تداعب وجوهنا ونفوسنا المضطربة. تحدّث إلى الرفيق موسوليني عن أكثر من 200 مليون دولار، المبلغ الذي وضعته في عهده إلى حين تطبيق اتّفاق السلام كي ندبر به أمور حكومتنا في الجنوب في الأيام الأولى. إنّ الحكومات في السودان تعودت، كما تعلم، على أن تمشي وكأنّ أرجلها مكبّلة بقيود تمنعها من الماضي قُدماً وتجعلها تنقض العهود، لذا كان لا بدّ لي أن أضع بعض النقود جانباً، كي لا نتسوّل عند بوابات شركائنا في السلطة. اسمع ذلك جيّداً، يا أجانق، هناك مبلغ يمكنكم الاستفادة منه في الدولة. لا أعرف هل سلّمه الرفيق موسوليني إلى حكومتنا عندما انفجرت بنا الطائرة في تلك الأمسية التي كنت أشعر فيها كأنّي وُلدت في الوقت الخطأ. وكما ذكرت في مستهلّ حديثي يا أجانق، كنت في عجلةٍ من أمري في يوم 30 يوليو 2015، عندما نظرت، خلسةً، إلى ساعة يدي فرأيتها تشير إلى الرابعة والنصف مساءً. بدأ القلق، كالحمّى،

يدبّ في أوصالي، وصرْتُ أشعر بدقّات عقارب الساعة متناغمة مع ضربات قلبي. كانت السماء مصبوغة بوشاح الليل الأسود حين أفلعنا من كمبالا إلى عنتيبي. وكان شعوري بالقلق ينبع من يقيني بأنّ قوانين هيئة الطيران المدني لا تسمح لأيّ مروحية بالتحليق بعد الخامسة مساءً ولمسافة أكثر من ساعة. كنت قد ذكرت ذلك للرفيق موسوليني الذي أشاح بنظره عني، وقال بنبرة لا تخلو من سخرية مَنْ يشعر بأنّه يملك السلطة، ويحسب أنفاس الناس، ويرى أنّ كلّ العالم ليس أكثر من خفّ يتجولّ به في الحماّم: أخائف أنت، يا رفيق، بعد أن أصبحت نائباً للرئيس، وماذا كنت ستفعل إن صرت رئيساً؟، خاطبني موسوليني. كدتُ أتقيأً عصير البرتقال الذي شربته لتوّي وكلماته تحزّ كرامتي كأنّه يقول لي: عندما تكون في حضرتي فأنت لا تغادر إلّا بأمرّي. فتحت فمي لأقول له إنّ قوانين الملاحة الجوية لدولته لا تسمح لأيّ مروحية بالإقلاع والتحليق في أجواء البلاد بعد الخامسة مساءً، فتذكّرت أنّه قال لي إنّ تلك المروحية من أحدث المروحيّات السوفيتيّة القادرة على التحليق في أسوأ الأحوال الجوية.

داخل الطائرة، حاولت أن أشغل نفسي بالحديث مع أحد أفراد طاقم حراستي. أحياناً، يشعر الإنسان بأنّ نهاية شيء ما قد اقتربت. لا نعرف ماهيّة ذاك الشعور. أعتقد أنّه في داخل كلّ فردٍ منّا، نبيّ صغير يتكهّن بما سيحدث لنا، لكنّ صوت ذلك النبيّ المختبئ في دهاليز النفس البشريّة يكون، في خضمّ انشغالنا اليوميّ بالحياة، ضعيفاً، بعيداً،

غير مسموع، لذلك نتجاهله. يبدو أنّ ذلك النبيّ قد تجلّى في نفسي حين سألت أحد أفراد طاقم الطائرة عن سبب إقلاعه مخالفاً قوانين هيئة الطيران المدنيّ الخاصة بالمروحيّات. سيّدي، أنا عبد مأمور، قال، في هذا العالم لا يستطيع أيّ كائن مخالفة أوامر صديقك موسولينى! رنّ منبه ساعتي.

صمت الزعيم.

نظرت لأرى الساعة، فنبّهني إلى أن أتغاضى عنها لأنّ الوقت، كما قال، ليس سوى رقم يجعلنا نحسّ بأنّ جزءاً من العمر قد انقضى دون رجعة. وعلى بعد أمتار، كان الرقيب سانتينو يغطّ في نوم عميق ويدير لعبه في فمه ثم يزدرده بصوت عالٍ مُقرّز.

استمرّ الزعيم يروي، عكس ما سرده الصحف في تلك الأيام التي تحوّلت فيها الخرطوم إلى ميدان مفتوح لمعركة غضب. تمنّيت لو أنّ سانتينو كان مستيقظاً ليدوّن ذلك الكلام في ذاكرته الفولاذيّة التي تحفظ أسماء زملائه وأصدقائه في الابتدائيّ. ووددتُ ألاّ يكون العريف أنطوني هنا، لأنّه، بميوله المسيحيّة المتزمّنة التي قد تنحرف عن مسارها قليلاً، حسب ما يمليه عليه الظرف الآنيّ، وقد تتحوّل إلى الإيمان ببعض الشعائر الدينيّة الإفريقيّة المتناقضة مع المسيحيّة، كان بلا شكّ، سيسحل الزعيم ويحقّق مغالطة وجوديّة تنفي تماماً وجود الزعيم الجالس أمامي. وإن اقتضى الأمر غير أنطوني اسمه ليُصبح توماس الشكّاك، ويقول إنّ الموتى أحياء غادروا الدنيا لحظّهم السيّئ، فإنّ حالهم الحظّ، بُعثوا في يوم الدينونة، وهو يشكّ في ذلك، أو ربّما

يكون حظّ من بُعث إلى الحياة كحظّ الجنديّ الذي عاد من معركةٍ دون أن تחדش جلده شريحة طليقة، ولكنّه، بعد أن نظّف طبنجته وزيّتها ولمّعها ووضعها تحت الوسادة المبلولة بعرق أوّل قيلولة يصيبها بعد انتهاء الحرب، أتى ابنه الصغير ليلهو بألة الموت تلك فانطلقت منها طليقة دون أن تحيد عن هدفها الذي رسمه لها القدر وتستقرّ في قلب الجنديّ! مثل هؤلاء الموتى، كما قال أنطوني، سيموتون من تحمة الموت الأبديّ، ورجاء تلك القيامة التي قد لا تأتي.

كذبتُ حين سألني الزعيم، ويبدو أنّه قرأ أفكارِي، وعرف ما أفكر فيه الآن ممّا قد يفكر فيه زميلي أنطوني كما اعتقدتُ.

-الزعماء لا يموتون يا أجانق، قال لي. فهرشتُ أرنبه أنفي، واستطرّد هو قائلاً:

-كان كلّ شيء يبدو طبيعيّاً داخل المروحيّة المعبّقة برائحة المصنع، وكانت مقاعدها جديدة ومريجة ولا معة. لم تكن هناك مشكلة فنيّة كما جاء في التقارير بعد أن متنا. عندما يموت الإنسان، يا أجانق، فإنّ تاريخه -إن لم يجد من يقدّسون قول الحقيقة- سيكون عرضةً للتشويه والتزييف من قبل أعدائه، وحتى طريقة موته ستُكتب كما لو أنّها سيناريو لفيلم هوليووديّ يعجّ بمشاهد غير واقعيّة!

أجل، كانت المحادثات الصوتيّة داخل قُمرة القيادة عاديّة حين انفجرت الطائرة. لم نصطدم بأيّ شيء. كان الطقس سيّئاً، لكنّه ليس بالقدر الذي يؤدّي إلى اصطدام الطائرة بالجبل. هكذا قال لي

الطيار اليوغندي عندما التقيته يوم أمس. وهكذا، أيضًا، قال بدوف تيرامورازوف، مدير الأمن التقني للجنة أنترستيت للطيران في المؤتمر الصحفي الذي عقده في موسكو حين تحطمت بنا الطائرة: *إنّ الحادثة التي رُصدت في قمرة القيادة بين قائد الطائرة وبرج المراقبة لم تحتو على أيّ إشارة لمشكلة تقنية حتى لحظة تحطم الطائرة*. أرى الدهشة وقد رسمت خطوطها المتوتية في وجهك يا أجانق... لا تندهش، فأكثر الناس الذين تثق فيهم، قد يكونون الأكثر تربصًا بك، لا يغمض لهم جفن إلا بعد أن يطمئنوا على طمر جثثك إلى الأبد! قال الزعيم وصمت.

هَبَّ هواء بارد من جهة مبنى البرلمان، ذلك الوحش المتربّص في جوف الظلام. واخترقت جلدي رعشة ثلجية فتذكّرت أنّي لم أرتد فيلتي الثقيلة تحت القميص الكاكي، وأدركت أنّ البرد ما كان ليتمكّن منّي لولا أنّ الخمر تلاشى الآن من جسدي. كانت النجوم في السماء صغيرة كحشرات مضيئة يتضاءل ضوءها وتختفي ثمّ تظهر مرّة أخرى حين تمرّ بها سحابة ثقيلة وتنتهي في أفق مجهول. أخذ الزعيم يلحق شفته السفلى بلسانه وأطرق متأثرًا. كانت لوحات الزنك تتنّ تحت وطأة طعنات المسامير التي تثبّتها لتقي الضريح من لسعات أشعة الشمس. وكان حلقي يحترق كأنّ حامض الكبريتيك المركز ينزلق فيه فتذكّرت مفعول الشراب الرخيص في تحفيف جسم الإنسان. استفاق الزعيم من إطراره الطويل، ورفع رأسه وحدجني بنظراتٍ مريبة. مسح العرق عن جبينه وقال:

-كنت أثق برفيقي موسولينيني! لكنني، إن بُعثت إلى الحياة من جديد، لن أثق حتّى بظلي! نعم إذا بُعثت مرّة أخرى، فأنا الآن

حيٍّ وميّت. كيف؟ لا أعرف. هذا العالم مليء بالأسرار لا يعلمها إلا الخالق وحده! تخيّل، يا أجانق، عندما انفجرت بنا الطائرة وتناثرت أجزاؤها وتناثرنا نحن، جاء أسياذ موسولينى وفكّوا جهازين من الطائرة: جهاز يوضّح ما إذا كانت الطائرة مزوّدة بجهاز للخرائط أم لا، ويوضّح مدى ارتفاعها عند وقوع الحادثة. كان الليل ثقيلاً كبطانيّة سوداء تُدثرنا من كلّ مكان، لكنّى رأيّتهم، بعيون الميّت، يضعون فى عيونهم مناظير ليليّة. كانوا خمسة أشخاص يهمسون فيما بينهم، وكانت كائنات الليل الصغيرة كالحشرات والجداجد تُصدر أصواتاً خافتة حزينة. أدرك أنّك لا تعرف، يا أجانق، من هم أسياذ موسولينى. هؤلاء هم استخبارات تلك الدولة الإمبرياليّة التي تساعد على بقائه فى السلطة، لتستغلّه، ثمّ ترميه فى مزبلة التاريخ، مُهاناً، بعد أن يكون خرقة بالية، مهترئة، لا تصلح لتنظيف حذاء! أتعلم يا أجانق، لقد هدّدتنى تلك المخابرات من قبل...

-أجانق. رقيب أجانق.

كان ذلك صوت الرقيب سانتينو. صمت الزعيم برهة. ألقيت نظرة استحسان على حذائي المبلّل بالماء وأنا أتساءل كيف أنّ موسولينى لن يصلح كخرقة لتنظيفه. أعجبتنى فكرة أن أراه، إن لم يكن خرقة، شيئاً آخر: رجلاً خرفاً يحمل على ظهره المقوّس صندوق خشبٍ يضرب على أطرافه بفرشاة كبيرة، ليعلن للناس عن خدماته فى تلميع الأحذية. رأيته آتياً بقلنسوّته المصنوعة من القشّ، يحمل على كتفٍ هزيل، صندوقاً مشحوناً بعلب الورنيش الأسود والأحمر واللون

الطبيعيّ. «موسوليني، موسوليني»، ناديته. كنت جالسًا على إحدى مدرّجات الضريح المقابلة للميدان، حيث يقف تمثال الزعيم هناك. مددت رجلي، فخلع موسوليني حذائي وبدأ التلميع بوجه محاط بهالة من السعادة كأنني أسديتُ إليه خدمة. ابتسمت خلسةً فسألني الزعيم عمّا جعلني أبتسم فتذكّرت أنّي تائه، وقلت له: واصل حديثك، سيّدي الكريم. نسيْتُ موسوليني برهةً. فقد كنت متلهّفاً إلى سماع رواية تهديده من قبل المخبرات العالميّة، لكنّه أوّماً إلّى بأن أذهب، فهمست في أذنه، خشية أن يسمعي سانتينو، بأنّي سوف أعود بأسرع ما يمكن. لقد أشكل الأمر عليّ، كفيلم بوليسيّ وَجَدَ فيه المحقّق نفسه في مأزق؛ أن ينقذ ابنته المخطوفة، أو يطلق الرصاصة على المختطف الذي يحضن الضحيّة بكلتا يديه!

مضيت وأنا أسبّ سانتينو وألعن سلالة أجداده الرجال والنساء، وتمنّيت لو أن الله لم يخلقهم، وإلاّ ما كنت لأعرف هذا الذي يمزع لعبه بصوتٍ كخبرير مياه الخيران. ولسببٍ ما، وجدتني أُنَجّه إلى الزعيم القابع هناك. كانت عيناه الجاحظتان تتوهّجان في جوف الليل المظلم كأنّهما جمرتان معلّقتان في جسدٍ لا يناسبهما، وما لبثت الجمرتان أن اختفتا عن ناظريّ عندما أشرعت السماء بوابات خزاناتها، وانهمر المطر بغزارة كأنّه يوم الطوفان العظيم، وكأنّ الزعيم هو نوح الذي يبني فلکًا لينقذ العالم. كانت العاصفة الرعديّة تقصف بقوة وتشر شرارات برقها في الكون. صنعت المياه داخل الضريح مجاري كبيرة، وخشيت أن يحرف السيل العنيف قبر الزعيم ويذهب به إلى مكانٍ مجهول. كنتُ أمسك بأعمدة سيخ السور وأنا أمضي إلى حيث يلتدّ رفاقي بنوم خريفيّ

هادئ. لكزتُ الأوّل لأوقظه فأحدثت معدته ضوضاء كبيرة، مُطلقةً صاروخاً هوائياً نتناً، فصرخت فيه غاضباً: تستسيغه بفمك وتُخرجه كريهاً بشرجك! تركتُ الرقيب أوّل سانتينو ومضيتُ إلى العريف أنطوني الذي كان يطلق عقيرته بالصياح: أبيي، أبيي، أبيي. أيقظته بعد مشقّةٍ وعنّفته بلغةٍ بذيئة: ماذا بك يا أخي؟ في النهار أبيي، وفي الليل، أبيي، لقد ذهبت بعقولنا أيّها...

هدأت السماء، وغلّف العاصمة صمْتُ عنيف، ولم يعد الناس يسمعون خرير مياه الشوارع الضيّقة. كانت نسائم الخريف الباردة تداعب وجوه العسكر الذين أيقظتهم المياه إذ تجمّعت داخل خيامهم الخضراء فابتلت شارات رتبهم القديمة المهلهلة. وقف أجانق حائرًا يحكّ رأسه ويراجع حديثه مع الزعيم تمامًا كما حدث معه في حلمه القديم عندما كان طفلًا يافعًا قبل ثلاثين عامًا، ذلك الحلم الذي تردّد في روايته لأخيه أغسطينو إلى أن دهسته قاطرة أنبوب الغبار فمات، ودَفَنَ أجانق حلمه في قبر عميق داخله. أعاصير من الحزن العميق اجتاحت جوانحه فنزلت من عينه دمعَةٌ بحجم بنانه سالت على وجهه ورآها تسقط على الأرض لتتدحرج وتصنع جدولا صغيرًا يمتدّ إلى قبر الزعيم. اشتَمَّ أجانق رائحة سيجارة رخيصة قطعت سلسلة أفكاره التعيسة وأيقظت همّه من سباته المزعج. نظر إلى يساره حيث يقف اثنان من جنود الحراسة ورأى وهج نار سيجارة يبدو أنّها آخر نفس امتصّه الجنديّ بمتعة شديدة ورمى بعقبها في النجيلة المبتلة ثم سعل بمتعة شديدة. كانت أصوات الجنود الراقدين تحت خيمة في الركن الجنوبيّ الشرقيّ من الضريح تتلاشى وتأتي على وتيرة سرعة الريح.

اقترب سانتينو وأنطوني من أجانق، فهمس في آذانها بأنّ الزعيم قام

من بين الأموات، وأنه هناك، يجلس القرفصاء فوق ضريحه البتاغونيّ الشكل، تحتاحه دوّامة من الحزن حين أخبره نبيا الانفصال. سرى تيارٌ كهربائيٌّ قويٌّ من قمّة رأس الرقيب سانتينو ومرّ بقلبه واستقرّ في مكانٍ ما من معدته التي بدأت تتلوى كثعبان ثمل. وبرزت عينا أنطوني وهو يدنو من أجانق ويتلو «السلام عليك يا مريم...» في سرّه مُرفقاً ذلك بإشارات صليب سريعة مُتناغمة مع نبضات قلبه. كانت السماء صافية والقمر يتوارى خلف سحابةٍ صغيرة حين زاغ سانتينو بنظره إلى القبر فلمح، أو هكذا ظن، شبحاً ضبابياً يمشي دون أن تطأ قدماه الأرض واختفى في مكانٍ ما، لعلّه خياله. رمى سانتينو أجانق بنظرةٍ لا تخلو من استنكارٍ وريبة، وألقى نظرةً سريعةً أخرى على الضريح، فألفاه كما هو، مثبتاً تحت المنصّة الواقعة بهدوءٍ كديدبان. تبادل سانتينو وأنطوني نظراتٍ مشوبةً بالريبة والذعر. زوى أنطوني ما بين عينيه فبدا كمن أصابه الطّشّاش، ولم يستطع سانتينو كبح جماح غضبه، فقال مُتمعضاً، ومُحدّراً أجانق، بأن يكفّ عن احتساء الجُعة التي تجعله يتيه في أزقة أفكارٍ مستوحاة من تأثير كوابيس الخمر ولاسيّما البلديّة: أنت يا زفت، قال، لا بدّ أن تتخلّى عن شرابك الذي يصيبك بوساوس الموتى هذه!

كان الرقيب أوّل سانتينو، مُحقّقاً في ذلك. فقد قام هو وبقية الجنود، بمسح ميدانيٍّ شاملٍ للضريح بأعينهم مستخدمين بطاريات مضيئة كأنّهم يقومون بتمشيط عسكريٍّ بعد معركةٍ ما. لم يكُ ثمة أثر للزعيم. يا رفيق، حتّى المسيح ذاته، قام من بين الأموات بعد أيّام وليس بعد سنواتٍ! قال أنطوني. وغمغم في سرّه بآياتٍ من العهد القديم بلغة

قبيلته ثم ردّدها بإنجليزية كلاسيكية كان قد حفظ كلماتها من إحدى دراميات شكسبير، فرمقه العسكر بفضول غريب وهم عائدون بخُفّي حُنين، بعد أن قلبوا أركان الأسوار الحديدية الأربعة المحيطة بالضريح، وتسَلَّقوا أعمدة صهريج المياه الضخم ليروا ما إذا كان الزعيم قد اختبأ هناك. ولما تأكّد سانتينو من عدم وجود أيّ أثر للزعيم يمكن اقتفاؤه بسهولة، مضى إلى عناصر شرطة النجدة الرابضين عند الشارع الفاصل بين البرلمان والضريح، وسألهم هل لمحوا شيئاً مرّ بهم.

أمّا الشرطي الذي كان يبعث برسالة استرحام تليفونية نصيّة إلى عشيقته بعد أن تركته وأبت أن تردّ على رسائله العشرين التي بدأ يرسلها من هاتفه الذكيّ عندما شرعت قطرات المطر تقرع سقف عربة الشرطة، فرمى بعُقب سيجارته، وسحقها بقدمه ونظر شزراً إلى أنطوني الذي استفزّته نكهة تبغ السيجارة المطفأة. ودون أن يُحير أنطوني جواباً، أخذ يقلّب النظر في وجوه زملائه وقد فغروا أفواهاً مصعوقة، أو كأنّها نزلت عليهم معجزة فأخروستهم برهةً، وسرعان ما وسوس أحدهم في أذن زميله قائلاً: ربّما أغرق هذا الرفيق نفسه في بحر السعادة، الليلة -ثم همهم وسعل كي يخرج كلماته واضحة- تبدو على وجهك آثار التعب أيّها الرفيق، عليك بالراحة.

خالج سانتينو شعور غريب ليس لأنّ أجانق كان قد قطع نومه وعكّر مزاجه في تلك الساعة المتأخّرة المشحونة ببرد فجر الخريف، بل لأنّ حدساً جميلاً لا يعرف مصدره نزل عليه فانشرحت نفسه وتفاءلت خيراً بقيامة الزعيم. لكنّه شكّ في الأمر وأخذ يُقلّب أفكاره، لاسيّما أنّه تذكّر في تلك اللحظة ذلك اليوم البعيد الذي طفا على سطح خزانة

ذاكرته العائمة السابحة نحو تلك الأيام المهروسة بطواحين حروب
تسعينيات القرن الماضي، عندما تنبأ أجأنق بموت الزعيم.

كان ذلك عندما شنوا هجمات شرسة على مدينة الناصر، إلى أن
سقطت في أيديهم وأسروا جنودًا وصفَ قائدَهم المعركة بأن لا مثيل
لها حتّى في أفلام هوليوود. وكان الجنود مُرهقين بتعب ثلاثة أيّام من
الهجمات المتتالية، فغلبهم النعاس تحت شجرة وارفة، وناموا لساعاتٍ
طويلة. رأى أجأنق فيما يرى النائم، أنّه يقود طائرةً حربيّةً بلا مراوح،
طائرة لا تُرى بالرادار ولا يراها حتّى الراكبون لكنّها تسبح في الفضاء
كسمكة قرشٍ. كانت تطير بسرعة البرق مُتّجهةً إلى جهةٍ غير معلومة
والجميع، ماعدا الزعيم، مُنهمكون في تجاذب أطراف أحاديث لا صلة
لها بالمعركة، فقد كان الزعيم مشغولاً بكتابة شيء ما، لعلّه تقرير أو
كتاب أو مُذكراتٍ. كانت السحب ثقيلة كسجّادة سوداء مفروشة في
السماء حين اقتحمت الطائرة منطقةً تهشّم فيها زجاج النوافذ وامتلأت
قمرة القيادة ومقصورة الركاب بهواء بارد، وسمع الركاب الهلعون
صوتًا مزعجًا صادرًا من الأجنحة ثم صمتت وتوقّفت الماكينة وأجهزة
قياس الارتفاعات، وتحديد المرتفعات الشاهقة.

في مطار تلك الجهة غير المعلومة التي تتّجه إليها الطائرة، كان هناك
جمع غفير في انتظار مجيء الزعيم: فرقة الموسيقى العسكرية تعزف أناشيد
وطنيّة ألّفَت خصيصًا لهذه المناسبة، وجوقة منشدي الكنائس الكاثوليكيّة
والأرثوذكسيّة والبروتستانتية وكنائس الأنبياء الجدد تصدح بتراتيل يظنّ
من يسمعها أنّ أبواب السماء سوف تنفتح على مصاريحها ليطلّ منها
القديسون والرسل والأنبياء.

وفي الوقت الذي بدأت فيه الطائرة تغوص في السحب الثقيلة،
وازداد صراخ الركّاب وهلعهم، استيقظ أجاثق من نومه يصرخ كمن
تلبّس به شيطان سكّير، وعرق غزير يتصبّب منه. كان يسمع ضربات
قلبه كدقات طبلة من نحاس، تكاد تُهشّم ضلوعه الكليبيّة الهزيلة: طيّارة
الزعيم وقعت، زعق أجاثق.

لم يعبأ الجنود الذين كانوا يلعبون ورق الكوتشينة تحت شجرة
الجميز، ويتندّرون بطرائف معاركهم ضدّ جيش الحكومة، بزعيق
أجاثق الشبيه بنعيب البوم حين أعلن عن سقوط الطائرة في هذيان
حلمه. كان الجميع قد حفظه عن ظهر قلب، وعلموا أنّ أجاثق، دائماً
هكذا، مسكونٌ بأرواح إبليسيّة تزوره في شكل كوابيس نهاريّة ولا تتركه
إلاّ بعد أن يكون قد أدخل كلّ الذين حوله في دائرة مفرغة من القلق
المتواصل.

تذكّر الرقيب سانتينو حلم أجاثق القديم فقال في نفسه: لا بدّ أنّه
كان يحلم فرأى الزعيم يُبعث من الموت.

وبينما كان أجاثق يوقظ العريف أنطوني والرقيب أوّل سانتينو،
انتهز الزعيم تلك الفرصة فنهض من فوق ضريحه ومشى صوب الباب
الحديديّ الكبير المُفضي إلى الشارع المؤدّي إلى نافورة «كاستوم» وتسلّل
خارجاً. كان الدهول قد تمكّن منه فألفى ذاته يدور في متاهة من غادر
العالم عقداً ونيفاً ثمّ عاد ليجد أنّ الأماكن التي كان يعرفها قد تغيّرت
وتبدّلت. كانت الغبطة التي اجتاحت نفسه، وهو يقف على رجليه
ويخطو أوّل خطوة بعد مماته الطويل، قد جعلته يشعر بمزيج من الرهبة

والسعادة، كطفل يتعلّم المشي لتوّه. مشى ببطءٍ أوّل الأمر، بيد أنّه ما لبث أن أسرع الخطى حين رأى الأضواء الحمراء والزرقاء تتلأأ فوق سيّارة النجدة الواقفة أمام النافورة، تلك النافورة التي جعلت وزير الطرق والجسور، يعصر ذهنه شهراً كاملاً كي يأتي بوصف بليغ ويقول إنّها الأكبر في إفريقيا على الإطلاق! على الرّغم من أنّها - حسب حديث صحفيّ أجنبيّ - لا تساوي حوض سباحة في موتيلات الحيّ اللاتينيّ في باريس القديمة.

لم يشعر به رجال الشرطة الأربعة المنهمكون في تفتيش سيّارة سوداء، ليس لأنّهم كانوا يجهلون مهمّتهم في الحفاظ على أمن مواطني العاصمة فحسب، بل لأنّ حلّكة تلك الليلة المطيرة وتلألؤ أضواء لمبات النجدة من جهة، وانشغالهم بالبحث عن شيء ما في تلك السيارة من جهة ثانية، حالت دون رؤيتهم للزعيم الذي اقترب منهم، وحيّاهم بصوته الجمهوريّ، قائلاً: سلامات يا رفاق.

وعندما اقترب أكثر وعلم أنّهم يؤدّون واجبهم الليليّ، اغتبط وآثر ألاّ يزعجهم، قائلاً في نفسه: يا سلام، هذا البلد في أمان والله!

في تلك الهنيهة، كان أجانق - وهو ينفث، بحنق، دخان سيجارة الـ «إسبورت مان» في فضاء الضريح - يحاول جاهداً إقناع رفاقه بأنّ ما رآه لم يكُ شيئاً من تحريجات كوابيسه التي تُلقِي به في سرايب اللاوعي المظلمة، خاصّةً عندما يكفّ عن شرب تلك الخمور اليوغنديّة الرخيصة، وإنّما هو الحقيقة بعينها. لقد رأى الزعيم ذاته وتحدّث معه. بيد أنّ أجانق أخفق في إقناعهم بعد أن ذهب ثلاثتهم إلى حيث يقبع الضريح هناك، فالفوه كما هو: كتلةٌ إسمنتيةٌ مُستطيّلةٌ وباردة، خالية

من أيّ شرخٍ أو فتحةٍ تؤكّد صحّة ما ذهب إليه زميلهم، لذلك اتّهمه الرقيب سانتينو بأنّ ما أخبرهم به ليس سوى المفعول الكيماويّ القذر لذلك الشراب الذي يتعاطاه تعاطي الطفل حليب ثدي أمّه المشدود كالقوس، وأقرب ما يمكن قوله هو أنّ عقله أصبح كحاسوب امحّت ذاكرته، وأنّ الجنون أمسى قريباً منه، قُرب أرنبه أنفه.

حين بدأت شمس يوم الإثنين الأكتوبري تنثر برفق أشعتها
 الإبريزية عبر الغيوم الرمادية المبعثرة في السماء، وبدأت السنة الناس
 تمضغ أنباء عن عقوبة الإعدامات الرعدية التي نزلت، ليلة أمس،
 على رؤوس عشرة من زوّار ليل كانوا قد نهبوا عجوزاً في حيّ كُتور،
 ثم أطلقوا رصاصة رحمة على قلبها كي لا تتعذب من غلاء العيش
 والمسغبة، كان نبأ قيامة الزعيم، بعد عقدٍ ونيف من هلاكه المُحزن الذي
 ضرب كعاصفة هوجاء سكينه البشر في كلّ أرجاء البلاد، قد طغى،
 سريعاً، على نبأ قتل تلك العجوز التي نسي الناس إكرامها بدفنها. لم
 يكن الأمر يحتاج إلى بثّ الخبر في إذاعة الدولة الوحيدة التي تتوقّف
 عن البثّ، فجأةً، حين يزأّر المولّد الكهربائيّ، ثمّ تعطس معادن آلاته
 الخاوية من الغاز، وتسعل، وتصمت، وتغرق أولى محطات البلاد في
 ظلام قاتم. فقد كان انهار المطر بغزارة لساعاتٍ طويلة، وقصف الرعد
 الشّديد، ثمّ الصمت الذي جثا - بكلّ ثقله - على صدر المدينة، وتوقّف
 الكلاب الضالّة عن النباح لأوّل مرّة، مجرد إرهاصات جعلت الناس
 يستشعرون أنّ حدثاً جليلاً سيقع لا محالة.

لذا، عندما خلع الرقيب أجانق حذاءه الملطّخ بالوحل، ونزع قميصه
 الكاكي المبلّل بمطر ليلة أمس، واضطجع على سريره وتنهد طويلاً،

حدثت زوجه إليزابيث - وقد تناولت منه قميصه لتعلقه على أحد المسامير المثبتة على الحائط الطيني - بأن تنهيدته تلك تحمل، بين بخارها اللامرئي، سخونة همٍّ وغمٍّ يصعب وصفهما. فتسمّرت في مكانها، ويدها في خصرها وهي ترنو إليه واجمةً، لمدةٍ حسبتها عمر زواجهما الطويل، رأت خلالها أنّ أجائق قد بلغ، في تلك اللحظة بالذات، العمر نفسه الذي رحل فيه والده قبل ما يناهز العقد من الزمان، وأنّ الوجه الذي تراه راقداً أمامها الآن ليس سوى صورة كربونية من والد أجائق بوجهه الضاحك رغم احتضاره في سرير مرض التيفويد الذي أنهك جسده قبل أن يسلم الروح يوم ولادة حفيده الأول، إيمانويل.

فجأةً، أوقعت ليزا القميص من يدها وصرخت قائلة: ماذا بك يا أجائق؟ لم يكن أجائق، في الحقيقة، يعلم ما حلّ به، فقد كان في تلك اللحظة بالتحديد يُحدّق في سقف غرفته المعكوش بنسائج العنكبوت، يتخيّل كيف سيتلقّى العالم نبأ قيامه الزعيم؟ ولم يكن ليضع في احتمالات توقعاته المُخذلة أنّ الرقيب أول سانتينو - وهو الذي رفض فكرة قيامه البشر من الموت ليلة أمس عندما كان يحملق في القبر الإسمنتي بازدراء وخوف شديدين - سيكون مصدر انتشار الخبر هذا الصباح. خبر سمعته ليزا زوجة أجائق حين أوقعت القميص، وركضت منطلقاً من المنزل، غير مكترثة بأجائق الذي كان يدعوها إلى أن تصبّ له الشاي، ومتجاهلةً، أو ربّما لم تنتبه، أنّها بلغت الشارع العام واختلطت بنساء الحي وهي ترتدي تنورتها الملونة التي اشتراها لها أجائق من سوق الملابس القديمة. وعلى الرّغم من أنّ علاقةً قويّة كانت تربطها بتنوّرتها الرثّة تلك، فإنّها كانت كلّما لبستها لعنت اليوم الذي تزوّجت فيه أجائق، وهي تُحرّك شفيتها

يمنة ويسرة، في سخرية صارخة، وتقول: آخر زمن، أصبحت ترتدين ملابس الموتى الذين حصدهم السرطان في أوروبا، يا ليزا!

وقفت ليزا حافية القدمين وخيوط العرق البارد تبلل جلد ظهرها المستقيم، مشدوهة وسط النسوة اللواتي كنّ يتحدثن عن الزعيم الذي خرق النواميس منذ أن وطئت قدما آدم أرض هذا الكون الفسيح:

-لعله لم يمت! قالت ساندرنا بائعة الشاي، دون أن تدري ما تقول وهي تنظر في العيون الزائغة كأنها تريد أن تقول: أنا لا أعلم ما أقول، وهي تهز كتفها.

-ما هذا الهراء الذي تنفوهين به، قالت سميرة الكبيرة وهي تمد شفيتها، وأضافت: ألم ندفنه قبل أكثر من عشر سنين؟

كان عم جادا بائع الورود، واقفاً عند طرف الشارع يتابع الحوار عن كذب، ولكنه كان ينظر بعيدا كي لا تشك أيّ واحدة من النسوة في تجسسه عليهنّ. ودون أن يدري، ترك طاولته ذات العجلات الأربع مليئة بأزهار اللوتس والبنفسج والأقحوان بألوانها الأبيض والزهري والأبيض والأزهر جانباً، وخطا خطوة ليقترّب منهنّ ويسمع بعض الكلمات المتسللة همساً. كانت رائحة اللوتس تتضوّع بالحبّ المتخفي الصامت، بينما كان الأقحوان بألوانه المتعدّدة، يُسبغ على شارع فيس بوك الذي احتلته ساندرنا وعصابتها، نوعاً من الولاء والإخلاص والجمال لأهل الحيّ.

-يقولون إنّه ينتمي إلى قبيلة يموت الإنسان فيها نهراً ويقوم ليلاً، ليتحوّل إلى أسد يلتهم الناس، قالت ساندرنا وهي تلقي بطرف

ثوبها المزركش على كتفها الأيمن، كأنها تستعدّ لكلّ الاحتمالات
وتشير إلى أفقٍ بعيد، ثمّ قالت: ألم يُبعث المسيح من الموت!
وأردفت: قد يكون هذا مسيحنا! وحدثت سميرة الكبيرة بنظرة
صارمة، ثمّ تابعت: أجل، لعله مسيحنا الأسود!

عصف غضبٌ عارمٌ ببائع الزهور ولم يستطع كبح جماح لسانه
فهتف يقول: لا لا يا نسوان، هذا تجديف!، ثمّ غمغم بآياتٍ من
الإنجيل في سرّه وهزّ رأسه متأثراً.

-أيّ تجديف! لماذا لم يأتنا بنبيّ منّا؟ تصدّت له ساندرا محتجّةً،
وقالت: لكنّا أكثر إيماناً على الأقلّ.

جملة قصمت بها ساندرا ظهر الجميع حين عجز الكائن المئويّ بائع
الزهور عن مجارة حديثها الذي بدا عجيّباً كأنه كلام أنبياء، كما همست
سميرة بذلك في أذن امرأةٍ كانت تقف مشدوّهة، ثمّ جلست على حجرٍ
تعاني من دوخة سببتهما لها جملة ساندرا، وشعرت ببدنها ينكمش قليلاً.

انتاب بائع الورود إحساسٌ مرير بدنو نهاية الإنسان على الأرض
حين يتدخّل في أسرار الخليقة وقدسيّتها كما فعلت ساندرا. عاد إلى
عربة الزهور، ودفعها متأملاً جمال الخالق في تلك الأزاهير الزاهية
الجميلة، فوجدها ثقيلة كجثة بحر، لكنها تبعث في النفس، برائحتها
الذكيّة، الجمال والأمل والهدوء.

كان أبراهام الأثيوبيّ، صاحب الحانة الذي يعمل طبيباً في عيادته
أيضاً مع أنّه لم يدرس الطبّ، متكلّماً على ركن سور حانته في ذلك
الوقت، ينفخ دخان سيجارته بتوتّر واضح كالشمس، ويرهف السمع

إلى ما يدور في تلك الحلقة النسائية الشريرة كما سمّاها في نفسه. لكنّه رمى بسيجارته، عندما سمع عبارة «مسيحنا الأسود» وسحقها برجله كأنّه يستنكر ما تفوّهت بها ساندرا، وأخذ يضرب يداً بيدٍ ويهزّ رأسه مُستاءً، لا ينبس ببنت شفة.

انسلّت ساندرا كشعرة من عجّين الجمهرة متبخّرة، تاركةً خلفها هرجاً ومرجاً ومغالطات كادت تؤدّي إلى مشاجرة بين النسوة لولا أنّ سميرة الكبيرة رفعت يدها وصاحت أمرّة بأنّ عليهنّ الذهاب إلى منزل أجانق والتّثبت ممّا إذا كان نبأ القيامة هذا صحيحاً، أم إنّه مجرد افتراء اختلقته الحكومة كي تُلهي ألسنة الناس عن فضائحها التي فاحت رائحتها التّنة نتانة مجرى الماء الغائض، مثل ضبط وزير كبير في الحكومة يفعلها في مكتبه مع صبيّة في عمر بنت ابنه الأصغر.

دنت ليزا من إحداهنّ وسألتهنّ عن أجانق الذي يتحدّثن عنه. نعم أجانق، قالت المرأة وهي تُشير إلى منزل ليزا. سطع ضوء باهر في عقل ليزا فرأت أنّ العالم أصبح حديقة جميلة مُضاعة وجداًبة، وأنّ الفقر الذي يعيشونه منذ أمدٍ بعيد قد أصبح رجلاً وشاخ وخرف إلى أن مات وحمل كفته يبحث عن قبر ليرقد فيه إلى الأبد. سوّت ليزا طرف تنورتها وأغمضت عينيها برهةً وفتحتها لتتأكّد من أنّ التي تُفكّر، الآن، هي ليزا بشحمها ولحمها وليست ليزا أخرى جاءت في حلم. انسحبت من بين الجمهرة خلسةً، وهي تجرّ قدميها وترى أحلامها الوردية التي كانت تراودها منذ سنوات قد بدأت تتجسّد الآن. أحياناً، كانت ليزا ترى نفسها امرأةً أنيقة ترتدي نظّارة سوداء وتقود سيّارة فارهة وتتحدّث الإنجليزيّة بطلاقة، أو على الأقلّ، تُفحّم مفردات إنجليزيّة

بطريقة عشوائية بين الكلمات لتترك انطباعاً بأثماً امرأة راقية تنتمي إلى طبقة مُثَقَّفة. لم تكُ ليزا تعلم من أين جاءها هذا الشعور، بيد أنّها كانت على يقين من أنّ كلّ شيء سيكون أفضل ممّا يرام. كانت تتصلّف في مشيتها حين دخلت منزلها ورآها أجانقُ الراقِد على سريرهِ فلم يعرفها لولا لباسها المائل كتّورة عارضة أزياء تمشي مشية الطاووس. كانت ممشوقة، لطيفة الخصر والبطن، يظنّ من يراها أنّ رحمها لم تحمل في جوفها البتّة مخلوقاً. كانت فلسفتها الخاصّة بها هي أنّ الحياة ليست سوى خدعة كبرى تتطلّب من الإنسان أن يكون مُخادعاً خسيساً كي يغنم فيها ما يريد، وأنّ الفقر والغنى وجهان لعملةٍ واحدة تحتاج منّا بعض الحُبث كي نلقيها على الوجه الصحيح.

دخلت ليزا ووقفت ويدها في خصرها فسألها أجانقُ عمّا سمعه من جلبة أضحت الآن عند باب منزلهم. طرقات عنيفة على الباب الصفيح وأصوات نسوة متداخلة لا يعلم إلّا الخالق كيف كنّ يتفاهمن، لم تجعل ليزا تحيد بنظرها عن أجانقُ. في الشرفة، وقف ابناهما إيمانويل وجيمس وجاءت أختها الصغيرة كلارا راكضة وهي تقول من بين تلاحق أنفاسها إنّ نساء حيّ «أطلع برّه» والأحياء المجاورة واقفات عند الباب الرئيسيّ في انتظار ردّها. إحساس بالعظمة ملأ نفس ليزا وهي تسأل زوجها عن الخبر الذي سمعته للتوّ. وقفت أذنا إيمانويل الكبيرتان وجحظت عيناه، واشربّ جيمس بعنقه، بينما اقتربت كلارا الصغيرة وتعلّقت بأهداب تنّورة أمّها الفضفاضة، ورنا أجانقُ في فضاء الغرفة وقال بكلمة خرجت من فيه ككتلة بصقة واحدة: صحيح!

تجاهلت ليزا التفاصيل التي أوْشك أجانقُ على البوح بها لها،

كأنّها قد ظفرت بورقة يانصيب، فقد امتلكت النبأ بالتفصيل الدقيق والممجوج وهي ليست في حاجة إلى تلك التفاصيل الآن. كانت، فقط، تُريد التأكد من أنّ زوجها الرقيب أَجَانَتْقُ واني الراقد أمامها بجسده النحيف، وليس أيّ شخصٍ آخر في هذه المدينة التي تغلي بالشائعات، هو الشاهد الوحيد الذي رأى الزعيم. وهذا يعنى أنّ زوجها، حسب التفكير الحسابيّ الشيطانيّ الذي كان يعتمل في عقلها، هو الإنسان الوحيد الذي له حقّ الملكيّة الفكرية في سرد قصّة القيامة للناس، وليس سانتينو بكرشه التي تهتزّ كأنّ بداخلها زلزالاً صغيراً، أو العريف أنطوني بوجهه الوسيم وعطره الفوّاح وعينه الثعلبيّتين اللتين تنبعث منها ومضات دينيّة غير أخلاقيّة خافتة.

كان ذكاء ليزا في العمليّات الحسابيّة لغزاً بالنسبة إلى أَجَانَتْقُ، خاصّةً عندما كان يأتيها براتب شهره كاملاً. كان يعلم أنّه لن يكفي خمسة أيّام، بيد أنّه كان على يقين من أنّ ليزا، ما إن تُخبئ حفنة الجنيهات في شقّ نهديها الخجولين حتّى يتنفس هو صعداء الاطمئنان على أنّ منضدة الخشب الصغيرة لن تكون خاوية.

كانت ليزا تستيقظ فجراً وتذهب إلى جزيرة غندوكورو لابتياح الخضراوات والفواكه والبقول بأثمان زهيدة، لتعود وتبيعه في سوق كونجو كونجو بأسعار عالية قليلاً دون أن يعلم أَجَانَتْقُ بذلك، أَجَانَتْقُ الذي كان يراها عبارة عن معجزة سماويّة تمشي على قدميها! وبهذه الطريقة، تستطيع ليزا بلوغ نهاية الشهر وسطح المنضدة المحروقة لا تنقطع منه الوجبات الثلاث، ورؤية الصبايا اليابانيّات المتشابهات منقوشات على الأطباق المختلفة.

تناولت ليزا لفافة قماش رُسمت عليه صورة رئيس إفريقيّ دميم، ولفّتها حول خصرها كأنّها تتأهّب لفَصّ شجار مّا، وخرجت من الغرفة غير آبهة بأجائق الذي بدأ في سرد حكاية ليلة أمس، جاهلاً بأنّ العالم كلّهُ، بما في ذلك حدود دولة الرئيس موسولينّي، كانت قد سمعت عن رواية القيامة التي سيرويها الجميع من جيلٍ إلى جيلٍ كلّ بطريقته، وحسب لغته الخاصّة، وحسب الناقل الخاصّ لتلك الرواية إلى أن تصبح الشخصوص والأمكنة وحبكة الراوي، بعد سنواتٍ وسنوات من ثقافة المشافهة المستشرية، متشعّبة ومُعقّدة إلى درجة يصعب معها معرفة ما إذا كانت لغة الرواية الأصليّة، هي اللغة السواحيليّة لسكّان ممباسا عندما تُحكى في شواطئ المحيط الهادي، أم اللغة السواحيليّة الأصليّة التي يتكلّمها سكّان دار السلام حيث قضى الزعيم فترة دراسته وفق ما رواه للرقيب أجائق، أم اللغة التي تحدّث بها أجائق مع الزعيم ليلة أمس، تحت سماء العاصمة الماطرة، وهي لغة لا يعرف أصلها أو فصلها أحد، وقد رجّح أكاديميّ فدّ، خرّيج جامعتي أكسفورد ولندن، يعمل أستاذًا للغات الإفريقيّة في جامعة جوبا، أنّها لغة من لغات إحدى قبائل الجنوب المنقرضة أو ربّما هي لغة قبيلة توشك على الانقراض في منطقة جبال النوبة.

بدت صورة رأس الزعيم الإفريقيّ المبتسم، الصورة المضغوطة حول ردفيّ ليزا المرتجّين، وهي في طريقها إلى الباب، كأنّها تغمض عينًا وتفتح أخرى، حين تُقلّب ليزا لحمها المكوّم الذي جعل أجائق يفرّغ فاه. لم تفتح ليزا الباب الرئيسيّ، وإن كانت الطرقات قد اشتدّت، بل تركته مواربًا يسمح لها بمشاهدة مَنْ يطرقون الباب كطالبي دين،

بارتياح. لكنّها دُعِرتْ من هول المفاجأة، حين أجالّت بصرها، وكادت تصيح باسم والديها ظنّاً منها أنّ هؤلاء النسوة لسنّ سوى ناقلات نعيّ أليم. فتمتّت في سرّها قائلة: رَحِمَتْكِ آيَّتُها العذراء مريم أمّ يسوع المسيح الناصريّ! كان هناك عدد كبير من النسوة واقفات بأعناق فضوليّة مشرّبة إلى الداخل كأنهنّ يبحثن عن شخص تائه. أشارت سميرة الكبيرة -وقد شدّت وسطها بخرقه سوداء فوق فستان أسود شفاف بلا أكمام، وعلى كتفها شال أسود علامة على الحزن المريع- إلى ليزا بأن تفسح لها السبيل كي تدخل. لكنّ ليزا ظلّت واقفة كجبل، لم تُحرّك ساكنًا. وما إن نطقت سميرة بتلك العبارة النّبيا، حتّى أدركت ليزا أنّ منازل الخير قد أشرعت أبوابها أخيرًا، وأنّ حورس، إله الخير والعدل، لا بدّ أن يكون قد حطّ رحاله في منزلها بعد رحلة متعبة بذل فيها جهدًا مضيئًا لينزل ضيفًا عندهم. وقبل أن تُكمل سميرة جملتها، كانت سرعة بديهة ليزا، كافية لتضع حدًا نهائيًا لهذه الفوضى.

- أجل، لقد قام من بين الأموات، ولدى أجانق النائم الآن كثيرٌ من الوصايا، أوصاه الزعيم بأن يسلمكم إيّاها. تعالوا بعد ساعة، قالت ذلك بنبرة سلطويّة.

انفضّ حشد النساء، وقد ظلّلت جباهنّ سحابة عبوسٍ داكنة، بينما تسمّرت سميرة الكبيرة في مكانها وظلّت شاخصة في عيني ليزا، ولسان حالها يقول: أيّ مكرٍ تفكرين فيه؟ لم تأبه ليزا بخبث نظراتها، بل اكتفت بفحصها بعينين واسعتين، من قمّة شعر رأسها المصبوغ بالأسود إلى أصابع قدميها المنبثقات من بين سيور صندلٍ أغبش. ثمّ مطّت شفتيها طويلاً، وأوصدت الباب الصفيح في وجهها. وقفت

سميرة برهة كأنها تُحاول التخلّص من صرير براغل الباب ومفاصلها الصدئة التي ظلّت تطنّ في رأسها بوقاحة، لتُفسح المجال لكلمة مسيئة ضاعت في متاهة تفكيرها.

عادت ليزا إلى الغرفة، ووجدت أجانق يحكي رؤيا ليلة أمس لابنه الأكبر إيمانويل ذي السنوات العشر، وجيمس الذي بلغ السادسة قبل أسبوع، وكلارا، رغم سنوات عمرها الأربع، وقد بدا، من تقاطيع وجهها البريء الناعم، أنّها ستكون نسخة من أمّها، وكانت راقدة بجانب والدها تُنصت باهتمام. رمقتهم ليزا بنظرة سريعة وابتسامة ضبابية خيّمّت على شفّتيها الكبيرتين. حلّت عن خصرها عقدة قماش رأس الرئيس الإفريقيّ وألقتها في سلّة الملابس الوسخة. حدّجت أجانق بنظرة هي خليط من العتاب والحسرة والإعجاب، ونادت أطفالها الثلاثة كي يتبعوها. خرج أربعتهم دون أن يلتفت أحدهم إلى أجانق، أمّا هو فقد ظلّ يتابع ما يحدث عن كثب، دون أن يعلم بأنّ سفر الخروج الذي عجز عن قراءته جيّدًا الآن، هو سفره الأخير في هذا المنزل.

وأنا أتسلّل عبر الباب الخلفيّ، خارجًا من منزلي، لكيلا تراني النسوة المصطَفّات أمام المطبخ المسقوف بالقشّ، أبصرتُ ابني إيمانويل يجلس على كرسيّ مصنوع من خشب البامبو قريبًا من الباب الرئيسيّ يمنع كلّ شخص يريد أن يدخل إن لم يكن امرأة. وكانت زوجتي ليزا جالسةً على مقعد خشبيّ صغير، تضع أوراقًا نقديةً في حاصلة قمّاش تتدلّى من رقبتها، وهي تمنح امرأة خرقهً صغيرة ملفوفة بشيء ما. لم أعرف ماذا يحدث هناك. قد يكون شأنًا نسائيًا، قلت لنفسي.

في الشارع العامّ، بالقرب من جامعة جوبا، كانت سيّارات الأجرة متوقّفة، مائلة إلى جنبات الطريق، كأنّها عالقة وسط طين البشر الزاحف نحو الضريح. وكان قرص الشمس الصباحيّ المغطّى بضباب نحاسيّ يبدو كعينٍ تسترق النظر خلف ستار شفاف. وكان الشيوخ بظهورهم المعقوفة ولحاهم الرماديّة الشعثاء يمشون بخطواتٍ متعثّرة وهم يحاولون الإسراع في مشيهم كأنّهم هاربون من وطأة اليأس وبؤس شيخوختهم، والنسوة يعضضن أطراف أثوابهنّ المهلهلة بأسنانهنّ البيضاء، ويهرولن غير آبهات بفردات صنادهنّ المتطايرة في الهواء، بينما كان الأطفال بضلوعهم البارزات، والشبان بيناطيلهم الكاشفة عن تباين ملوّنة مخطّطة، والصبايا بشعورهنّ

المتطيرة في الهواء، يركضون وحناجرهم الغضة تصدح بتراتيل عزائية حزينة.

كلّ الناس يتحدثون بعيونٍ تتوهج دهشةً عن معجزة القرن التي لم تحدث إلا ثلاث مرّاتٍ منذ أن خلق الله الإنسان والكون في ستة أيّام ونام قرير العين في اليوم السابع. سألتُ امرأة عجوزًا، منفوشة الشعر، عن المعجزات التي يتحدثون عنها. كانت دموعها غزيرة كأنّها عيناها صنبور ماء تفجّر، ولسانها يتغنّى بآيةٍ من نشيد الأنشاد تقول: أنا نائمة وقلبي مستيقظ، صوت حبيبي قارعًا افتحي لي يا أختي يا حبيبتي يا حمامتي يا كاملتي لأنّ رأسي امتلأ من الطلّ وقصصي من ندى الليل.

راقبتي العجوز باستغراب كأني دعوتها إلى تناول الشراب معي، وأجابتنني قائلةً: يبدو أنّك حديث عهد بالمسيحية! أسأل أجأنق، إن كنت لا تعلم!

كدتُ أخبرها بأنّي الرقيب أجأنق وأني أنا الذي تحدّث إلى الزعيم ليلة أمس، أنا الشاهد الوحيد على معجزة هذا القرن، وأنّ الشبح الذي حادثني يوم أمس كان عابس الوجه وهو يخطب فيكم يا رعاع القوم. نظرت أمامي فلم أرها. فقد غطست في موج البشر العارم المتدفّق من كلّ الجهات، بينما ظلّت آية نشيد الأنشاد التي كانت تتغنّى بها، تعبر سطح ذاكرتي بسرعة، كشريط إخباري يعلن عن حدوث كارثة ما.

خُضْتُ معركةً شرسة في وحل البشر المتحرّك ببطء بمحاذاة سور مركز نياكورون الثقافي القصير. كان هناك أفراد فرقة موسيقية يضعون آلات فوق سيّارة «نصف نقل» وآخرون يرقصون الرومبا على أنغام

أغنية تصدح من داخل السيّارة. كان يبدو على وجوههم إرهاق سهر ليلة أمس وهم يتطلّعون إلى الفوج الزاحف في الشارع الرئيسي، لذلك لم يعبّؤوا بأطفالٍ قفزوا فوق السيّارة وأخذوا ينقرون على طبلّة صغيرة مازالت قائمة فوق المسرح. لم أشعر ما إذا كانت رجلاي تتحرّكان أم أنّ التصاق الناس بعضهم ببعض جعلني أحسّ بأنّ شيئاً ما قد رفعني عن الأرض ستيمترات عديدة وأخذ يدفعني ببطء إلى الأمام. رأيت سور الضريح يلوح فوق رؤوس البشر التي غدت كخليّة نمل تطفو في الجوّ. لو كان بابا الفاتيكان نفسه قد حدّثني، أنا الرقيب أجانق، عن قصّة القيامة هذه، وعن الضريح الذي كنت أحرس فيه قبر الزعيم حتّى يوم أمس، وقال إنّّه تحوّل بين ليلة وضحاها إلى أكثر مزارات العالم وإنّهُ أصبح أكثر قداسةً حتّى من كاتدرائيّة نوتردام المبنية في مكان بازيليك القديس إستيفان، لكذّبتّه جملةً وتفصيلاً! ولكن، لو طُلب منّي وصف ما رأيته بأمّ عيني في جملةٍ مقتضبة، لأجبت دون أدنى تفكير، وقلت بنبرة بابويّة واثقة: إنّهُ يوم الدينونة!

فالجمع الغفير الذي أراه الآن، برؤوسٍ سوداء شبيهة بمملكة نحلٍ بشريّة تمشي على الأرض، كافٍ لي جعلني أصدّق أنّ بعض الناس، كالقطط، يملكون سبع أرواح! وأنّ الموت، بالنسبة إليهم، عبارة عن رحلة قصيرة يختفون فيها لأخذ قسط من الراحة، بعيداً عن قسوة الحياة ومباهجها التي تعذب النفس، ثمّ يعودون مرّةً أخرى، متى أرادوا ذلك، بالجسد نفسه الذي غادروا به العالم، ولكن بروح متجدّدة ونفسٍ متجدّدة وأملٍ متجدّد في حياة أفضل، وأنّ الزعيم هو أحد القطط، وله سبع أرواح.

ودرءًا لأيِّ كارثة قد تلحق بالحشد الذي زحف من كلِّ حدبٍ إلى المكان الأكثر مزارًا في العالم، جاء رجال الإطفاء على متن ثلاثِ سيَّاراتٍ إطفاءٍ قديمة، متهالكة، تنفث عوادمها سُحبًا كثيفةً داكنة. فألفوا أمامهم جدارًا إسمنتيًا من البشر أعاق محرَّكاتِها التي كانت تصدر صوتًا غريبًا مثل سعال مسلول. وبعد أن أفرغ رجال الإطفاء في سيل الحشد الجارف محتويات قواميسهم المترعة بالكلمات البذيئة والشتائم والتهديدات البغيضة، تمكَّنت العربات الروسية المصنوعة من بقايا خردة سفينة محطَّمة، كما قال أحدهم، من اختراق الحشد المبلول بالعرق كأنَّه لحم معجون. ووسط زغاريد النسوة المغلَّفة بعبارات السخرية، وتقليد الأطفال عواء الذئاب ونقيق الضفادع استهزاءً، ولطم الكهول صدورهم دهشةً، في محاولةٍ منهم لعدم تصديق أعينهم، أصدر رجال الإطفاء أوامر صارمة، تحت تهديد السلاح، بعد أن باءت المحاولة الأولى بالفشل، إلى سائقي صهاريج المياه التجاريَّة الزرقاء التي كانت في طريقها إلى الأحياء البعيدة مثل قوديلي تو، وجبل دينكا، وحيّ الزاندي، وحيّ ليمون غابة، بتغيير مساراتها، والذهاب إلى الضريح، ثم إفراغ مياهها الطينيَّة العكرة في صهاريج خردة الحرب العالميَّة الثانية المستوردة من روسيا. كان لا بدَّ لكثيية الإطفاء أن تقوم بهذا العمل الذي سمَّاه الفريق أوَّل قائد قوَّات الإطفاء، «العمل الذكيّ» في التاريخ المعاصر للدولة الوليدة. فقد اكتشفت، في الوقت الذي بدأ فيه الآلاف يقتحمون الضريح، أنَّ صهاريج عرباتهم الروسيَّة الصدئة، قد قطنتها الثعابين والسحالي والضبَّ والعناكب والعقارب، وهي خالية تمامًا من قطرة ماء واحدة.

بعيداً عن الضريح، وفي أحياء العاصمة النائية حيث تغرق
القطيَّات الطينية في عتمة سرمدية، وتتلوى الشوارع وتضيق ثم تتسع
فجأة لتصير خيراً مترعة بالبعوض والضفادع ولا تحفّ مياهها حتى
حين تضربها شمس الصيف الحارقة، كانت فصائل الشرطة العسكرية
تقفز بخفة ورشاقة على متن سيَّارات لاندكروزر خضراء مبرقة باللون
الأسود الباهت، في تنفيذ صارم لما جاء من القيادة العليا للجيش من
أوامر للقيام بالبحث عن الزعيم، لأنّه، كما قال القائد الأعلى للجيش:
أشدّ خطراً على تماسك الأمة!

انتشرت القوَّات داخل البيوت واقتحمت الحوانيت وحانات بيع
الخمور المغشوشة التي تُذهب العقل سريعاً. واقتلعوا أبواب المواخير
المصنوعة من الصفيح الصدئ، وسلخوا، جلدًا بأخشابٍ بامبو مشقوقةٍ
نزعوها من الحيشان، رجالاً ونساءً ضُبطوا يُسعد بعضهم بعضاً وشمسُ
الظهيرة الساطعة تُظهرهم داخل رواكب عارية، كاشفةً أجسادهم
المصقولة بالعرق، فبدأ الأمر برمته كمشاهدة فيلم مجانيّ في الطبيعة.
لم يكن الضابط المسؤول راضياً عن عقوبة الجلد التي ارتجلها، فأمر
الرجال بأن يقفوا بسرّاء ويلهم الكبيرة، ويحملوا بناطيلهم وقمصانهم، في
صفٍّ، وأمر النسوة بأن يقفن في صفٍّ آخر كما ولدتهن أمهاتهن. كانت
الغرامة التي فرضها قد جعلت الجنود يشكرونه ويتمنون أن يخرجوا
معه، بقيّة سنوات أعمارهم في الجيش، في أيّ طوافٍ لأنهم اعتبروه وجه
السعد بالنسبة إليهم. تمّ قلب جيوب الرجال وتفتيش غرف النساء،
وكانت الحصيلة رزمةً من الأوراق المائيّة مخبوءة بين ملابسهن الداخليّة
وتحت أرجل الأسرّة وفي ثنايا الأسقف القش وبين أثدائهن المرهقة

خلف الحِمَّالات المبتلّة بالعرق. جمع حضرة الصول النقود، وحشرها في جيوبه الأماميّة، دون أن يعدّها، وهو يمسح العرق بياقة قميصه الكاكيّ ويقول: كلّو تمام يا سعادتك!

سمع جنديّ صوتَ امرأةٍ تُغنيّ بلغةٍ سواحيليّةٍ رصينةٍ في غرفةٍ مسقوفةٍ بالتوتية ومحاطةٍ بالزنك. كان صوتُها يتدفّق بموسيقى هادئةٍ حين دفع الجنديّ باب الغرفة برفقٍ دون أن تشعر به ودون أن تتوقّف عن الغناء. وحين دخل وجدها صبيّةً نحيفةً، ضامرة الصدر، كلاسيكيّة النهدين، يوحى بروزُ ضلوعِها بإصابتها بمرضٍ أو لعلّ الضغط النفسيّ المتواصل أنهكها. كانت تجلس القرفصاء في قصعة وتغرف الماء من الجردل وتسكّبه على جسدها. انتفضت عندما رآته ولمحت السلاح المعلّق على كتفه وهو يُصوّب إليها نظرةً فاحشة. لعق شفته السفلى بلسانه في حركة تنمّ عن رغبةٍ مكبوتةٍ ستتفجّر خبثاً، فتسمّرت الصبيّة في مكانها كأنّها تُمارس رياضة اليوغا. وضعت يدها في فمها وغطّت بالأخرى ثدييها فانفلتت من بين أصابعها حلمة بنية كحبة اللالوب. كانت أصوات العسكر تتلاشى والجنديّ يتمنّى ألاّ تقترب تلك الأصوات من غرفة غنيمته. أرهف أذنيه الكبيرتين فأبصرت الصبيّة عينيه تلمعان كعيني قطّة، وشعرت ببرودة الماء تحتها واقشعرّ بدنّها. تأكّد أنّ الأصوات أخذت تبتعد فتحرّك بخطواتٍ سريعة نحو الصبيّة التي لم تُحرّك ساكنا. فُقاعات رغوة صغيرة تحرّكت كزوارق كروية في الماء بين فخذيها وانفرطت في صمتٍ. جحظت عينها ووضع الجنديّ بنانه على طول شفثيه آمراً إيّاها بالصمت. أطلقت أنفاسها الساخنة أجنحتها لريح الخوف وشعرت بحجارة ثقيلة ساخنة تصطدم بجدار

معدتها المنقبضة. وضع الجنديّ السلاح جانباً، وبيدٍ مرتجفة أخذ يحلّ سحاب بنطاله وهو يتصبّب عرقاً حينما ركل الضابط المسؤول الباب فانفتح على مصراعيه وصرخ في وجه الجنديّ وقد تجمّد في مكانه، ثم جرّ سحاب بنطاله بسرعة. زفرت الصبيّة هواءً ساخناً من صدرها الذي ارتفع عالياً، فانكمش جلدها وانبثقت ضلوعها كأنّها أقواس من خشب. خرج الجنديّ بعينين تُشعّان براءةً، وشكرت الصبيّة الضابط إذ أشاح بوجهه عنها وخرج وراء الجنديّ.

انفجر الجنود ضحكا عندما شاهدوا بنطال الجنديّ منتفخاً من الأمام وقميصه الكاكيّ منقوعاً في عرقٍ من الخجل.

كانت إذاعة الدولة تبثّ مارشات عسكريّة وأناشيد ألّفها الفرقة الموسيقيّة العسكريّة لإدانة فكرة القيامة، ثمّ تتوقّف برهة قصيرة لتعلن عبر برنامج فرع التوجيه المعنويّ التابع للجيش أنّ نبا القيامة شائعات وأراجيف سياسيّة مُغرضة تبثّها أحزاب المعارضة، فهي تضمّر في مشاريعها الخفيّة أجندات دول أجنبيّة، تنوي بها تنفيذ مخطّطاتها غير الوطنيّة، وقد قال عنها مسؤول أمنيّ رفيع: إنّها شائعات مدفوعة الثمن!

كان المسؤول الأمنيّ، رجلاً ضخماً الجثّة بكرشٍ كبيرة ذات طبقات متدلّية تهتزّ عندما تنفرج أساريه عن ضحكة. وقد دأب على ترديد نظريّة المؤامرة تلك - بعد أن سمعها عرّضاً في نقاشات بعض الشبّان - طوال ساعات اليوم في آذان جنوده، حتّى أصبحت ترنيمة كنسيّة يحفظها الجميع، وهم يترنّمون بها بحماس دينيّ في كلّ مناسبة تشعر فيها الحكومة بالخطر.

لم تمرّ سويّعاتٌ على تصريح المسؤول الأمنيّ، حتّى أعلن البرلمان القوميّ في جلسة طارئة أُقيمت في السادسة صباحاً لتقييم الوضع الأمنيّ في البلاد، فصلّ جميع أحزاب المعارضة وإيداع أعضائها السجن، بعد أن أثبت البرلمان، في أقلّ من نصف ساعة، أنّ هذا الرقيب

الذي يُدعى أَجَانْتُقُ واني، أو بالأحرى شخصي أنا، ليس هو الشاهد الوحيد في هذه المعمورة. وقد أثبتوا أيضًا أن اسمي هذا، وكان والدي قد سمّاني به قبل أكثر من أربعين عامًا، ليس سوى اسم حركي: أَجَانْتُقُ واني، ذلك الاسم الذي حكى لي والدي عن ظروف تسميتي به رغم التناقض الصارخ فيه.

«كان المساء شاحبًا كجثةٍ غريقٍ حين تحرّكت بنا السيّارة من قريننا لوبونوك، متّجهين إلى مستشفى جوبا التعليمي. توقّفت العربّة أكثر من مرّة، وكأَنَّها تأبى الذهاب إلى المدينة، بينما كانت والدتك تتألّم. كان صديقي أَجَانْتُقُ بيار من أمهر سائقي المنطقة وقد مُنح، أكثر من مرّة، علامة «أفضل سائق» عندما أكمل ربع قرنٍ في مصلحة النقل الميكانيكيّ دون أن يرتكب حادثة واحدة بسيّارة من نوع كومر الإنجليزّي. إذ كان يعاملها معاملة الابن كما يقول. لم يرزقه الله بُدْرِيّةً، ورفض أن يتزوَّج بأخرى رغم إلحاح أهله ومقاطعتهم له زُهاء ثلاثة عقود: أنا أحبّها مثل ابني وابنتي اللّذين لم تلدهما لي، هكذا كان أَجَانْتُقُ يقول بوجهٍ باسمٍ، عن زوجته الجميلة.

كان أَجَانْتُقُ إنسانًا غريبًا، فريدًا من نوعه يُصادق أناسًا لا يمتّون لقبيلته بصِلّةٍ على الإطلاق: أوكيلو من قبيلة البلندا، أنجلو من الزاندي، أوطو من الشلك، ومشنقو كولي من قبيلة البنقو في مدينة تونج ببحر الغزال، وشخصي الضعيف. كان رجلًا يسمو بأخلاقه الرفيعة، مترفعًا عن الصغائر والترّهات كأنّه خُلق من طينةٍ غير طينتنا. ابتعدنا قليلًا عن لوبونوك، وكادت سيّارة أَجَانْتُقُ تسحق أفعى ضخمة نائمة في وسط الشارع لولا صرخة والدتك إذ صادفت ضغط أَجَانْتُقُ على كابح

السرعة. رفعت الأفعى رأسها تتطلع إلينا في ذهول كمن أيقظه صرير الإطارات التي فاحت برائحة حريق. كانت عيناها عبارة عن دائرتين كبيرتين ساكنتين في محجريهما. مالت برأسها جهة اليسار ثم اليمين كأنها تلعننا في سرّها. زحفت ببطءٍ تتلوى إلى أن عبرت الشارع واختفت بين العشب الطويل الأخضر. هُزَّ أجانقُ رأسه بأسنفٍ شديد وهو يقول إنَّ ظهور مثل هذه الأفعى نذير شؤمٍ بغض. استفرغتُ والدتك مراراً، وهي تدعو الله والأسلاف بلغة قبيلة الباري كي تتم ولا دتها بخير. قرأ أجانقُ بيار فيما يبدو آياتٍ بلغة قبيلته. وكانت المرة الأولى التي أسمعهُ يتحدث فيها بتلك اللغة. لقد كان رجلاً مستقيماً، متديناً، كقدّيس. لا يفوت يوم أحدٍ من الآحاد حتّى ولو كان على فراش المرض: إنّه لأشرف لي، يا واني، أن أموت ساجداً في الكنيسة من أن أموت هنا تحت هذه القطيّة المتواضعة!، هكذا كان يقول لي وهو يكابد آلام مرض الملاريا. أدار أجانقُ محرك السيارة مرّةً أخرى وأمكّ تصرخ وتقول إنَّ سائلا بدأ ينبجس منها. طلبت من أجانق أن يسرع بنا قليلاً. كانت العربّة تسير بسرعة معقولة حين دخلنا الشارع المؤدّي إلى كُبري جوبا. شيءٌ ما قال لي التفت يمينك. شاحنة كبيرة لعلّها قادمة من يوغندا كانت على بعد أمتارٍ منّا. صرختُ فجأةً. لم أعرف ما إذا كان صديقي أجانق قد سمع صرختي الأخيرة قبل أن يغادر العالم دون رجعة. كان الأمر شبيهاً بفيلم بوليسيٍّ مثير بلغ ذروته ثم انقطع فجأةً بانقطاع الكهرباء في قاعة سينما. بعد يومين وجدت نفسي راقداً في المستشفى، وتمّ إخراجك أنت وأمك في اليوم نفسه بعد أن أعلنت أنت حضورك إلى العالم. هكذا غادرني صديقي الوقّي، أجانقُ بيار، دون أن نتبادل كلمات وداع، كأننا

كان مجيئك بمثابة إعلان لمغادرة أجانق. هكذا هو الموت يا بُنَيَّ، يأتي كاللص، لا يمنحنا فرصة لنقول كلمة وداع أخير، أو ربّما فرصة لقبله على أمل اللقاء في الضفّة الأخرى».

صمتَ أبي برهةً. رأيتُ تفاحةً عنقه تتحرّك، فأدركتُ أنّه ربّما ازدرد ريقه المبتلّ بدمعة مألحة، كتبها في نفسه.

وكانت تلك حكاية اقتراني بهذا الاسم: أجانق، الاسم الوحيد في قبيلة الباري وكلّ القبائل الناطقة بلغة الباري. أجانق واني. أجانق اسم لا ينتمي إلى قبيلة والدي ولا إلى قبيلة والدي. أمّا أنا فقد صرتُ شخصاً ينتمي إلى ثلاث قبائل في آن واحد! كتركيبة كيميائية شاذة يقبلها الناس على مضض بُغية العلاج، ليس أكثر.

وفقاً لهذه التركيبة الكيميائية المعقّدة، ظنّ البرلمان القومي أنّ اسمي هذا اسمٌ حركيٌّ، وأنّني لا أنتمي إلى قبيلة الباري القاطنة في ولاية وسط استوائية، بل إلى قبيلة أحد زعماء المتمرّدين. ولإلغاء فكرة القيامة من أولّها حتّى لا يُصدّقها الناس، اقترح آخرون اعتباري مجرد شخصيّة غير موجودة أو ربّما شبحاً ساحراً خرج من أحد الأفلام النيجيريّة ليحترف الكذب بغية هزّ أركان الدولة الراسخة في الاستقرار.

لم أكن بعيداً عن بوابة الضريح الكبيرة عندما اقترب منّي ثلاثة رجال يرتدون بذلات شتويّة سوداء رغم توهّج الشمس الملتهبة. التفتُ فرأيت ثلاثة آخرين بالبذلات نفسها واللون نفسه ويرتدون نظّارات سوداء. كانوا جميعاً حليقي الرؤوس وقبيحين، يشبه بعضهم بعضاً كأنّهم نتيجة عمليّة استنساخ أُجريت في معمل متخلّف. همس

أحدُهم في أذني: أأنت الرقيب أَجَانُقُ؟ أومأت بالإيجاب. قال: أنت منافقٌ سافلٌ، هذا ليس اسمك!

حاصروني وفرضوا عليّ التوجّه نحو البرلمان. أَجَانُقُ، ناداني أحدُهم. التفتُ فنزلتُ يده على وجهي كطوبية رأيتُ فيها، بين الظلمة التي ملأت عيني وتأثير الشمس الساطعة وأصوات الناس، نجومًا تومض فوق سماء الضريح. لم أكن أعرف أنّي سأجبر، منذ تلك اللحظة، وأثناء التحقيقات التي ستُجرى معي، ولأكثر من عشرين عامًا ستأتي، على تغيير اسمي وأجبر على إنكار أنّي رأيت الزعيم، بل إنكار أن الزعيم نفسه وُلد منذ أن خلق الله الكون - وحتى إن خُلِق، فهو لم يُخلَق في هذا الوطن الذي لا يؤمن بقيامة الأموات - وأنّ ما أقوله أنا مجردُ فبركة سياسيّة استلمتُ مقابلها رشوة طائلة لترويع الناس وتحريضهم على التظاهر وإحداث شغبٍ ضدّ السلطة الحاكمة مثلما حدث في تونس وليبيا ومصر واليمن.

والحقّ أنّي رأيت المواطنين أكثر سعادةً وتفاؤلاً، إذ كانوا يؤمنون بأنّ عودة الزعيم، شبيهة بقيامة المسيح من بين الأموات، أو أنّها ستمنحهم، على الأقلّ، رجاءً في التخلّص من شظف العيش والفاقة والمرض.

لم ينتبه الحشدُ المندفع كالسيل نحو الضريح، إلى أنّ الشاهد الوحيد على القيامة يُركّل ويُصنع داخل حوش البرلمان. خلع الحشد بوّابة الضريح الحديدية التي كانت بطول عشرات الأمتار. وآخرون، ممّن عجزوا عن اختراق جدار الحشد الكبير، تسلّقوا الأسوار العالية، وقفزوا إلى الداخل غير عابئين بالأمتار العشرين التي تفصل قمم الأسوار عن أرض الضريح، وقد غصّت بكلّ القبائل لتسنّى لهم فرصة

رؤية القبر الفاجر فاه كسكّير نائم. بعيداً عن القبر المتخفّي بين أرجل الآلاف، وتشكّلت حلقة كبيرة من النساء والصبايا والعجائز ممّن صعب عليهنّ بلوغ الضريح، حول رجل أشيب يرتدي جلباباً يصل إلى ما فوق ركبتيه قال إنّ جاء في الخامسة صباحاً ورأى الضريح. كان أجانق ينظر من بين أصابع يده التي تغطّي عينه المحمّرة من صفعه طوبة، إلى الرجل الأشيب، وكاد يقول له: أنت دجال نجس! لقد كنت أنا موجوداً هنا عند الخامسة صباحاً.

خطبة مريعة، كان الأشيب يلقيها في الناس، وقد جاءت معلوماته مثيرة ومُرعبة قليلاً، ومن المؤكّد أنّ تلك المعلومات ستكون مقلقة ومزعجة لرجال السّلطة الذين آثروا ألاّ يأتوا إلى الضريح، خشية أن يُجاههم الزعيم. كان الأشيب يرفع طرف جلبابه الباهت ليمسح العرق عن جبينه، فبدا سرواله الرماديّ قذراً وهو يقول:

-وحياة المسيح ابن يوسف النّجار، لقد رأيتُ هذا القبر تحوّل إلى حفرة عميقة تُضيء بنور ساطع كالشمس!

ثم مدّ يده إلى امرأة كانت تحمل في يدها زجاجة مياه معدنيّة، فأعطته وسكب الماء في جوفه ليروي ظمأ إفكه، دون أن يحيد بنظره عن الجمع المتلهّف إلى سماع المزيد. كان مثل أولئك الذين يصمتون عن الكلام لمُدّة قصيرة، ويتفحّصون عيون الناس لمعرفة وقع كذبتهم عليهم، أو معرفة إمكانيّة وقوعهم ضحيّة للكذبة الكبرى القادمة. وقبل أن يتفوّه الأشيب بكلمة أخرى، قاطعه رجل أفطس الأنف، حليق الرأس واللحية والشارب، يتنفّس كالمأزوم، قائلاً بلغة فصيحة، وهو يرفع بنانه الأيمن إلى السماء:

- سأطلق أميرتي الجميلة، لو أنّ الأمر برمتّه لم يكن شبيهاً بقيامة المسيح من بين الأموات.

قهقهات عالية أطلقها الرجال، وارتجت نهود النسوة لفرط الدهشة، وقرص الشبان وهم يقبضون على بطونهم من شدة الضحك، عندما رأوا أميرته الجميلة تلك! فقد كانت من القبح، وهي تقرأ تعابير عيونهم، تكاد تقول إنّ القرد في عين زوجه تحفة نادرة من الجمال.

أمّا ذلك الهرم -عم جادا بائع الورود الذي تساقطت أسنانه إلّا واحدة أماميّة برزت كقرن ثور عنيد- فقد قال بصوتٍ خفيض، وبلغة غريبة ممزوجة بإحدى لغات قبائل المنطقة الواقعة بالقرب من خطّ الاستواء:

- ألم يكن الله واحداً أحداً أيّها الناس؟ - سأل الهرم عم جادا بائع الورود، واستطرد: ألم يكن الله واحداً أحداً أيّها الناس؟

زوى ما بين حاجبيه وهو يتفحص الجميع بعيني رجل أمن وقال: أقسم بربّ كلّ الأمم، لقد رأيته بأّم عينيّ وهو يصليّ من أجلنا.

انفجرت ساندرا -وقد انتهت لتوها من بناء مقهى صغير من خردة زنيّة- أمام الضريح ضاحكةً، وسخرت ممّا قاله بائع الورود المثويّ الذي يبدو أنّ كلّ أصدقائه قد هجروا الحياة منذ أمدٍ طويل، وخاطبته قائلة:

- يا عم جادا الوصيّة الثانية تقول: لا تحلف باسم الله بالباطل! لا تحلف باسم الله بالباطل! يا عم جادا، كنت أعمى قبل خروج آخر جنديّ إنجليزيّ من السودان.. قلّ لي كيف رأيته؟

انفجر الناس ضحكًا على أنكل جادا الذي انكمش فجأة، كأنها
نزل كلام ساندرا ماءً مثلجًا على رأسه.

وبينما كان الناس يندفعون، يعجنُ بعضهم بعضًا، جاء بعض
المسؤولين الحكوميين بعمالٍ يوغنديين مفتولي العضلات، يرتدون
فنيلاتٍ داخلية صار لونها باهتا من القذارة، ومن آباطهم برز شعر
بلون الإسمنت تفوح منه روائح شبيهة ببول خنزير. وفي غضون نصف
ساعة، شيّد العمال أكشاك زنك صغيرة، برفوف خشبية، ورصّوا داخلها
بساطيل ملوثة بالدم يبدو أنهم أتوا بها من مسلخ قريب من الضريح،
ثم وضعوا عليها دفاتر صغيرة خُربِشت فيها أرقام غير واضحة يبدو
أنها رسوم على كلّ من يريد الدخول إلى الضريح: إن أردت أن تدخل
الضريح، فعليك أن تدفع خمسمائة جنيه، قال أحدهم كان يرتدي زيًّا
رسميًّا كُتب عليه بخطّ أبيض عريض «الجمارك».

أمّا صاحب الكتّين المصبوغ بألوان علم البلاد من الجهات الأربع،
فقد كان أكثر صرامةً وهو يصيح: وإن أردت أن ترى القبر، فعليك أن
تدفع مائتين فوق الخمسمائة، نعم مائتين لا ينقص منها ملّيم واحد!

لم يك مالك الكتّين غريبًا على هذا الضريح الذي انبثق في هذا
المكان قبل عقدٍ من الزمان وظلّ هو يعمل فيه حارسًا حتّى قبل
سُويّعاتٍ عندما أخبرته عن حديثي مع الزعيم، وقد استنكره بشدّة.
لقد كان هو الرقيب سانتينو، بلحمه ودمه.

عند أقدام تمثال الزعيم الواقف في الميدان الفسيح، وهو ينظر
إلى ضريحه في أسى بالغ، أتى شابٌ وسيم يرتدي بنطالَ جينز ضيقًا

كاشفًا عن تَبَّانه المخطط، وقميصًا ملتصقًا بجسده يجعلك تشكّ أكثر من مرّة فيما تراه، هل هو رجلٌ أو امرأة أو مخلوقٌ آخر لا ينتمي إلى الجنسين! أوقف سيّارته «نصف نقل» وشغل جهازَ إستريو ضخماً تفجّرت منه أغنية إفريقيّة حديثة كانت متربّعة في المرتبة الأولى لأكثر من ثمانية عشر شهرًا في كلّ إذاعات الـ «إف إم» بدول شرق إفريقيا. شغل الشابّ الوسيم -غير مهتمّ بالشُّرطيّ الذي كان يحذّره من تشغيل الجهاز بالقرب من التمثال- مقطع أغنية الفنان راديو وويلز التي تقول كلماتها: «أُتريد أن تخاطر بهذه الأُمّة»، وأوقفها فجأةً ليُعلن عبر مكبّرات الصوت الضخمة المنصوبة فوق صندوق سيّارته بصوت جهوريّ:

-وإن أردت أن ترى الزعيم نفسه، أجل الزعيم ذاته! ههههها!
الزعيم بصلعته التي تلمع كشمس يوليو، لا بدّ أن تدفع ألف جنيه، وعشرة في المائة من هذا المبلغ، لي أنا...

لا شكّ أنّ هذا الشابّ قد جنى مبلغًا محترمًا. ففي أقلّ من عشر دقائق، كانت أصوات الناس الذين يشترّون منه تذاكر الدخول قد علّت، فلم نعد نسمع موسيقى تلك الأغنية الشهيرة.

في رُكن البرلمان، عند الشارع المؤدّي إلى رئاسة الجمهوريّة، وقف بعض الرجال المتأنّقين في بذلاتٍ وأربطة عنقٍ وأحذية لامعة، وانخرطوا في مشاوراتٍ جانبية، قيل إنّهم أعضاء البرلمان القوميّ. وفي وسط الشارع الفاصل بين البرلمان والضريح، كانت هنالك مجموعة دينيّة ترتّل وترقص وتسجد وتُسبّح للخالق، وفي وسطها يقف رجلٌ أربعينيّ على مصطبةٍ من خشب، كان يعظّمهم وعظًا عظيمًا، بلسان إنجليزيّ ذرّب. قيل إنّهم نبيُّهم الذي تنبأ بيوم القيامة قبل أن يولد

الزعيم: الآن تحققت النبوءة. الآن تحققت النبوءة! كان يجهر بتلك الجملة، ويذرع الأرض جيئةً وذهابًا، يقفز برشاقةٍ قرْدٍ ويردّد ما يشبه آياتٍ مقدّسة، ويصيح بصوتٍ مبحوح: الآن، انتصر الزعيم، وقام من بين الأموات. وكان المؤمنون، أو هكذا ظنّوا أنفسهم، يردّدون خلفه: «هللويا! هللويا! هللويا!.. لقد قام الزعيم، الزعيم قام حقًّا!

في تلك اللحظة، حين انطلقت سيّارة سوداء من داخل البرلمان، كان المؤمنون منغمسين في أداء شعائر دينهم الغريب الذي لم يسمع به أحد قبل قيامة الزعيم. الناس في ساحة الضريح يمدّون أعناقهم اللزجة بملوحة العرق والتراب، ويبدلون كلّ ما في وسعهم لرؤية الغطاء الإسمتيّ على القبر، وإثبات أن ليس هناك فتحة، أو مجرد شقّ يسمح بمروق ابن الإنسان ليهزم الموت بضربة لازب. لم أصدّق، أنا الرقيب أجانقُ واني، المقرّص داخل صندوق تلك السيارة السوداء المكشوف، حين سمعت صوت ذلك النبيّ، على الرغم من سرعة السيّارة وعلوّ أصوات الناس، وتشوّش عقلي حينذاك. كنت معصوبَ العينين، مقيدّ اليدين بسلاسل جنزير صدئة، وعلى رأسي حذاء ثقيل يدوسه. مرّةً أخرى جاءني صوته بوضوح فعرفت أنّه ذاك الصوت الذي ألفته أذناي لأكثر من خمسة عشر عامًا أثناء حرب التحرير، وأنا قادرٌ على اشتهاه رائحته المميّزة من مسافة بعيدة حتّى وإن فقدت سمعي، وقد كان هذا الصوت حتّى ليلة أمس القريب ينتمي إلى زميلي الذي وبّخني عندما أخبرته بالقيامة. أمّا الآن، على الرغم من ألم البوط الضاغط على رأسي، وألم أذني من اللطحات التي تقبّلتها بلا مبالاة، ولا أعرف عددها، تأكّدت تمامًا أنّ هذا الصوت هو صوت زميلي الذي

كان حتّى يوم أمس حارسًا في الضريح مثلي، أمّا الآن فقد صار نبيًّا يتبعه الآلاف.

اختفت السيارة السوداء وسط أتربة كثيفة استنشقتها مرغمًا. لم أعد أشم رائحة جورب العسكريّ القذر الذي كان يركلني بحذائه وهو يقول: أنت السبب يا كلب! وجدت نفسي أخوض في خضمّ أسئلةٍ عجيبةٍ من قبيل كيف أصبح العريف أنطوني نبيًّا في أقلّ من أربع وعشرين ساعة! نبيًّا يتبعه أكثر من ألف نفس مؤمنة. تذكّرت أنّه كثيرًا ما قال لي إنّّه بصدّد إنشاء كنيسة في أحد الأحياء النائية. الكنائس تجلب أموالاً كثيرة يا صديقي، قال لي عندما سألته كيف يموّل كنيسته. تساقطت ذرّات الغبار وارتفع دخان عادم السيّارة وتلاشت في السماء بينما لاتزال المجموعة الدينيّة منسجمةً في تسايحٍ تصحبها ضرباتُ أرجلٍ على الأرض، وعويلٌ متّسق مع أنغام طبولٍ إفريقيّة، وصراخٌ عجَز عن مقارعة صياح النبيّ أنطوني. كان يقفز، كالكانغارو، بجلباب القداسة الأبيض، ويركض بحماسٍ سماويّ تشعله تراتيل المؤمنين، ثمّ يكبح، فجأةً، كلّ عضلة في بدنه فتتوقّف حركته، وتُحفظ عيناه فترتفع أصوات أتباعه: هلهلوهيا، هلوويا!

بلغت رغباتُ الناس المُستعرة، ولهفتهم الشديدة على دخول الضريح أوجّها، وبدفعةٍ رجلٍ واحد أزالوا أعمدة الإسمنت الكبيرة التي كانت تعيق حركتهم، غير عابئين بمن سقطوا على وجوههم فداستهم الأقدام وماتوا مختنقين. وآخرون انطلقوا إلى الخارج وهم يقصّون أعجوبة العجائب التي رأوها وكذّبتها عيونهم، فعجزوا عن الكلام وراحوا يلطمون خدودهم ويخبّطون برؤوسهم على قاعدة

صخرة تمثل الزعيم، مع أن جلّهم لم يروا قبر الزعيم المقدّس حتّى يصفوه بغرائب القرن الواحد والعشرين. اخترق أحدهم رهطاً من الناس ووقف في وسطهم معلناً بصرخةٍ شقّت القلوب:

- الزعيم هو المخلّص بعينه!

هدوء كتيّار كهربائيّ بقوة ألف كيلو واط ألجم الجميع، وما كادوا يصفون جملته بالزندقة والهرطقة حتّى باغتهم بقول آخر شجّ رؤوسهم كصداع نصفيّ:

- برّبكم، أليس هذا أعظم من ابن يوسف النجار؟ صاح، ثمّ أجال نظرتة الحادّة في وجوه الجميع، ودون أن يمنحهم فرصة للتفكير، رفع يده عاليّاً لإسكاتهم، وقال:

- المسيح بُعث من بين الأموات بعد ثلاثة أيّام، أمّا الزعيم فقد بُعث بعد عشر سنوات!

تحرّى بعينه ردود أفعالهم، فهزّ ليفٌ منهم رؤوسهم بالإيجاب، بينما شعرت بقيّتهم بأنّ كلامه ألقى بهم في هاويةٍ سحيقة تفصلهم عن واقع المسيح وواقع الزعيم، فخيّروا ألاّ يفصحوا عن رأيهم خشية أن يُرموا بالتجديف.

هبّت عاصفة ترابيّة صغيرة من وسط الميدان، دارت حول نفسها، اتّسع قطرها حتّى غطّت الميدان والضريح والبرلمان والمبنى الرئاسيّ، ثمّ أخذت تتصاعد إلى الأعلى رويداً رويداً، تحمل معها أكياساً وأوراقاً وقنينات مياه بلاستيكيّة غطّت السماء كلّها. إنّه هبوب الشيطان الذي يأتي عندما يتعدّى إبليس حدود المعقول المرسومة له في التعامل مع

البشر. حذج الرهط الرجل فقراً في عيونهم هولاً رهيباً يحذّره بالاً
يجرّ على نفسه كبيرة أخرى. فلملم أطراف جلبابه، منكسر الخاطر،
مطرقاً، واختفى بين الناس كإبرة وسط كومة قشّ. لقد أدرك أن هبوب
الشیطان ذاك، ليس سوى إنذار نهائيّ، ولا لوم على من أنذر.

لم يتكبّد أصحاب الأكشاك والكناتين والخوانيت مشاق الركض
وراء الأوراق النقدية المتطايرة في الهواء بفعل هبوب ذلك الشيطان.
وحيث هدأ، بدا الشارع الإسفلتيّ لامعاً مغسولاً بماء «تنكر» كان
سائقها قد ترك فوهة ماسورتها الكبيرة مفتوحة، عقاباً لرجال الإطفاء
الذين أمروه بركن سيّارته لاستخدام مياهها مجّاناً. أعيا البحث عن
الأثيوبيّ سائق «التنكر» رجال الإطفاء، وقد وجدوه وسط جمهرة من
الجالية الإثيوبية والكينية والرواندية واليوغندية. كان يقرأ عمّا سمعه
من الزعيم - حسب قوله - من رزمة أوراق مكتوبة باللغة الأمهرية
القديمة، ولا يُستخدم فيها حرف الـ «سين» الملكيّ، أو يكتب في أيّ
كلمة إلّا في اسم واحد في الإمبراطورية قاطبة: هيلاسيلاسي.

«أما أنت يا تسفاي، فهذا موطنك الثاني. نحن لا ننكر جميلكم،
أيّها الأثيوبيّون، جميلكم الذي أغدقتم به علينا في حقبة حرب التحرير.
أرى أنّكم الآن تحاولون تلطيخ تاريخ التعاون الناصع بيننا بالميل إلى
مصالحكم الذاتية والنظر إليها فقط. نعم، الدول لا تبحث عن غير
مصالحها، لكنّ المصالح، إن كانت ضارّة بمصلحة أيّ من الطرفين،
فإنّها، بلا شكّ، لن تستمرّ طويلاً....».

حديثٌ طويلٌ سرده تسفاي زعم أنّه كلام الزعيم، حين أمسكه
رجل إطفاء عملاق من ياقة قميصه ورفعه إلى مستوى وجهه. لم يجرؤ

تسفاي على النَّظر إلى وجهه، فقد صفعته رائحة نتنة ظنَّها مجرى صرف صحِّي انفجر وطفحت قاذوراته داخل هذا الفم. لم يعرف الأثيوبيّ تسفاي، سائق «تنكر» المياه الذي جاء إلى جوبا قبل ثمانية أعوام -وهو يعتبر الشاهد الأجنبيّ على القيامة، وينتمي إلى الكنيسة الأرثوذكسيّة التابعة للأنبا متياس الأوّل بطريرك دولة أثيوبيا- ما حدث له بعد ذلك، لكنّه حين استيقظ بعد أربعين يومًا، دون أن يعلم أين هو، وجد نفسه داخل غرفة مُظلمة، رطبة، وهو يردّد، كما ذكر له الرقيب أَجَانُق بعد ذلك -وكان قد سبقه بساعاتٍ فقط إلى تلك الغرفة- كلماتٍ مثل: الخصيّ الحبشيّ.. المعموديّة.. فيليبي.. كنداكة.. وزير المالّيّة.. الضريح. كانت كلّها باللغة التقرينجية التي يعرفها أَجَانُق عن ظهر قلب.

-أين أنا؟ سأل تسفاي أَجَانُق، عندما شعر بأنّ هناك شخصًا يجلس بالقرب منه.

-في المعتقل، أعتقد، فأنا نفسي لا أعرف أين أنا؟ ردّ أَجَانُق.

حاول تسفاي أن يرى مصدر الصوت. كان الظلام دامسًا، كأنّ مجموعة من آلاف الليالي الداكنة جُمعت في وعاءٍ كبيرٍ وسُكبت داخل هذه الغرفة. أخفقت ذاكرته في إسعافه بمعرفة ما حدث له. وكلّ ما تبقى في سعة ذاكرته المتجمّدة عند هذه اللحظة التّاريخية، هو قراءته للمذكّرة التي كان يتلوها باللغة الأمهرية ويترجمها بعض سكّان شرق إفريقيا إلى اللغة البوغنديّة والصوماليّة والسواحليّة لليوغنديين والكينيين والصوماليين والتنزانيين. كلّ ما كان هناك هو تلك اللحظة التي شمّ فيها رائحة مياه الصرف الصحيّ وهو ينظر إلى عيني جنديّ

الإطفاء. ومن بين منكبيه العريضين، رأى تسفاي، على مسافةٍ ليست ببعيدة من الضريح، أفراداً من الشرطة العسكرية مهجّنين بأفراد جهاز الأمن القوميّ، ثم انطفأ كلّ شيء، وانفصل سلك الذاكرة ولم يعرف منذ ذلك الحين ما حدث له، وأين هو الآن عندما سأل أجأنق.

على مسافةٍ ليست بعيدةً عن عجيجِ الضريح وضجيجهِ، وبينما كان تسفاي يترنّح تحت قبضة الإطفائيّ العملاق، كان أفراد الشرطة العسكريّة وأفرادٌ من جهاز الأمن القوميّ يُقلّبون البيوت رأساً على عقب، يكسرون، بمطارق ضخمة، الأقفال الكبيرة لأبواب المحلات التجارية، ويُمزّقون أكياس السكر والدقيق والعدس، ويثقبون دنان الزيت التي تُعيق طريقهم، ويركلون كلّ شيء أمامهم ويدحرجون كلّ شيء ولا يحملون معهم أيّ شيء سوى بعض الأوراق الملوّنة يدسّونها في جيوبهم وهم يصبّون محتويات زجاجات بنية في جوفهم. تحولت المحالّ التجارية إلى فوضى عارمة وجدها الناس فرصة ذهبية لاغتنام كلّ ما هو متاح داخل المحلات المخلوعة. كان الأمر شبيهاً بأجواء ما بعد معركة ما: أطفال يحملون أكياس طحين وكراتين حلوى، ورجالٌ صبغ الدقيق وجوههم ورؤوسهم السوداء كانوا يطلقون عقائثرهم بأغاني موسم الحصاد السهل. أمّا النساء فقد كان تركيزهنّ على علب الألبان الجافّة، وصناديق البامبرز المستورد، وكريات تبيض الوجه والألّويس الذي صار سعره لا يقلّ عن سعر كيلوغرام من لحم الضأن، كما قالت ساندرا وأتبعَت سميرة الكبيرة ذلك بضحكة غنجيّة.

لم يهتمّ الجنود بالفوضى التي تركوها خلفهم، فقد كانوا أكثر انشغالاً بتفتيش الشوارع المرشوشة بمياه حمامات المواخير القدرة،

وأزقة الأحياء العشوائية التي لم تنعم بمصباح كهربائيٍّ واحدٍ منذ أن اكتشف توماس أديسون المصباح الكهربائيّ المتوهج. كانوا يبحثون عن الزعيم الذي خدع عالم الأموات متسللاً من قبره، ليندس، بجبنٍ، بين الأحياء، تماماً، كما بثت إذاعة الدولة في نشرة التاسعة صباحاً.

كان البرلمان غير المعافي، مُنهمكاً في جلساته الطارئة التي تجاوزت العشر جلسات في ذلك اليوم الأول من انتشار الخبر، وكان حَجَر العثرة الذي أعاقه عن اتّخاذ أيّ قرارٍ إزاء هذا الخطر، هو عودة الزعيم إلى الحياة فعلاً. لم تكن الرائحة القويّة النفاذة المنبعثة من مرحاض البرلمان الوحيد المسدودة مجاريه، ولا سخونة الجوِّ والرطوبة العالية الممزوجة بأنفاس القلق العالقة في الهواء، مُزعجةً لأعضاء البرلمان الذين انشقوا إلى نصفين: نصف يؤيّد عودة الزعيم بشدّة، وآخر يعارض عودته بتطرّف بالغ! فقد كان القرار الذي يجب عليهم اتّخاذه في تلك الهنيهة، مصيرياً، لا يمكن معه الالتفات إلى صغائر الأمور كانسداد أنابيب الصرف الصحيّ في المبنى العتيق. كوّنّت المجموعة الأخيرة، وقد ترأسها رئيس البرلمان، بعد أن تمكّن من ضمّ عدد أكبر من المجموعة الأولى إلى مجموعته، لجنةً سياسيّة لصياغة بيان التمرد المسلّح الذي سيخوضونه - وقد خُصّص له في الدستور بندٌ في جلسة الساعة التاسعة والنصف - إن صحّ نبأ القيامة هذا. إلّا أنّ رئيس البرلمان تريث قليلاً ولم يعرض القرار للتصويت النهائيّ ريثما يأتي الخبر اليقين الذي يؤكّد أكذوبة القيامة، كما سمّاها هو وأيّده ثلاثة أرباع البرلمان:

- يجوز للسلطة الحاكمة التمرد في حالةٍ واحدةٍ فقط: وهي قيام أيّ فردٍ من الموت، خاصّةً هو.

جاء الضمير «هو» الذي وُضع في البند المُضاف إلى الدستور،
حلاًّ وسَطاً لتراضية المجموعة الأولى، بعد أن حُذِفَتْ كلمة «الزعيم»
التي أثارت لغطاً كبيراً كاد يُرغم المجموعة الأولى على الانسحاب في
اللحظة الأخيرة، على أن يظلّ التفسير القانونيّ المعتمد لهذا الضمير هو
الزعيم، طالما أنّه ليس في تاريخ هذه الدولة الحديثة، ولا في تاريخها في
ظلّ الدولة السودانيّة، ما يشهد بقيامة شخصٍ واحدٍ من الموت.

مرتدياً بذلةً طويلةً بيضاء بلا ياقة، وبأزرار ذهبية كبيرة لامعة وصليب كبير يتدلّى من عنقه حتّى سُرّته، كان النبيّ أنطوني، محاطاً بأتباعه الذين أخذت أعدادهم تتضخّم كلّ رأس ساعة، يعظ الناس بعدم وجود الموت إلّا في أذهان البشر حين يغيب الجسد، وبأنّ موت الجسد لا يعني موت الروح التي تُكتب لها حياة أبدية، حياة خالية من الخطيئة والألم والمعاناة. وإن هي إلّا لحظة، حين كاد يقول إنّ الزعيم لم يمت، حتّى انبثق أحدهم من بعيد، يركض بسرعة البرق صوب النبيّ، فقال للناس: أفسحوا له المجال، أفسحوا المجال!

- دعوه يتنفّس، دعوه يتنفّس، صرخ أحد المقرّبين من النبيّ.

أُفسح للرجل مجال صغير تنفّس من خلاله. كان جسده مبتلاً كأنّه خرج للتوّ من حوض سباحة. وكانت عيناه تدوران في محجريهما ككرات لعبة البلياردو. دنا منه رجلٌ ووضع يده على رسغه ليتأكّد من نبضاته. وما إن شعر بالهواء يملأ رئتيه، حتّى نهض واقفاً، غير مهتمّ بذاك الرجل، فقد كانت للخبر الذي يحمله رواية تتطلّب سرعة فائقة، كي لا تنفلت من حافة ذاكرته وتسقط في هاوية النسيان. وقف مستقيماً. أحاط فمه بيديه ليُوصل صوته إلى أبعد مخلوق في الضريح، وصرخ:

-لقد رأيته في سوق جوبا قبل عشر دقائق.

صمت. حكّ شعر رأسه كمن يفتّش عن كلمة ضائعة من قاموس.

كان الزعيم، حسب قول الرجل، يأكل طعام غدائه المكوّن من وجبة البامية المفروكة المخلوطة بالكسرة، مُحلّلةً بشطة خضراء منقوعة في ليمونٍ حامض. ربّما كان صاحب هذا الخبر على حقّ وأنا أتفق معه. فأنا نفسي قد رأيْتُ شخصًا، في سوق جوبا، ذلك اليوم، ولكن في وقتٍ مختلف، وفي البقعة نفسها المغطاة بظلّ شجرة النيم الواقفة منذ عهد الاستعمار الإنجليزي. رأيْتُ شخصا أصلع جاحظ العينين، يرتدي قميصًا إفريقيًا مزركشًا. كان يزردد اللقمة ويأكلُ مِنْهُمْ ويتحدّث باهتمام إلى رفيق دربه المتأثّق. كان ذاك الشخص يشبه الزعيم نفسه، لكنني أبعدت فكرة بعث الأموات إلى الحياة مرّةً أخرى عن عقلي المشوّش دومًا بقصّة جارنا الذي مات بضربة شمس يوليو، وقيل إنّه شوهد بعد ثلاثة عشر عامًا في قرية حدوديّة يعيش جِدلاً مع أسرته الجديدة. غير أنّي، وإن ألغيت من تفكيري تلك الخرافة التي كانت جدتي لا تكفّ عن ترديدها وهي تقرأ الطالع، لم أجد مناصا من رواية ما تناهى إلى مسمعي من أطراف حديثٍ طويلٍ كان الزعيم يتجاذبه مع رفيقه، وهما يتناولان وجبته المفضّلة:

-يا رفيق، لماذا أنت جالس في السوق؟

-أنا في انتظار أيّ مهمّة من القيادة، يا زول كبير!

-أيعني هذا أنّه ليس لديك أيّ مهمّة، الآن؟ هل انتهت كلّ المهمّات الوطنيّة، لذلك لا يريدون الاستفادة من عقلك؟

قال ذلك، وقد أحاط شيءٌ كالضوء الساطع برأسه وغطت وجهه سحابةٌ نحاسيةٌ من الغمِّ والمرارة. توقّف عن مضغ الطعام كأنّها كانت به ذرات حصى أو صُبَّ عليه حنظلٌ فلم يتحمّله، وتَفَّه على الأرض مُعلناً بذلك التوقّف عن التهام الوجبة التي كان يستسيغها ويستطيبها أكثر من الطبخات الأخرى: البامية المفروكة. لم يكن السبب هو عدم طبخ الوجبة بالطريقة التي كان يحبّها. فقد جعله الإهمال الذي حاق برفيقه، يشعر بكُرة حديدٍ ساخنة تتحرّك في معدته وتكاد تنطلق عكس اتجاه الجاذبيّة لتخرج من فمه. تناول ماءً مثلاًجاً وتجّعه دفعةً واحدة وكرّع هواءً ساخناً أحرق كفه التي سدّ بها فاه. حدج كفه فرآها متجعّدة فقال في نفسه: ربّما هكذا تبدو أيادي الموتى. ثمّ سرعان ما اعتذر للرفيق الذي فوجئ بذلك الفعل اعتذاراً جمّاً، ولباقته المعهودة أثرٌ ألاّ يخوض في بحر حديث شائك، وكأنّه خمن، بحدس الخبير الأريب، أنّ إدارة دفّة الأمور السياسيّة في البلاد قد تعرّضت دون شكّ إلى تغييرات جذريّة خلال عشر سنواتٍ من غيابه الوجودي. فحوّل مجرى حديثه إلى أمور تخصّ الرفيق الذي كان حينها يعضّ فمه بقاء، وقال بلغة إنجليزيّة: لكنك يا رفيق، ما زلت بأناقتك التي تركتك بها منذ عشر سنين، ثمّ همهم وحرّر حنجرتَه من لزوجة بلغم، وأضاف: وهل مازال أصدقاؤك في الخرطوم يطلقون عليك كازانوفاً؟

انفجرا ضحكاً، وبددت جلجلة ضحكاتها هدوء السوق. ثمّ صمتا ومزّقت صمتهما همهماتٌ وقهقهاتٌ حملتها نسائمٌ فجائيّة هبت من داخل المطعم، وأزيزُ السيّارات المارّة بسرعة ومنبهاؤها المصمّة للآذان. وهكذا لاذا بصمتهما أو ربّما شرعا في استرجاع ذكرياتٍ بعيدة

دون أن يُلقيا بالا للمازة الذين لم يألوا جهداً في إخفاء حبّ استطلاعهم وتطفّلهم، فالتفّوا حولهما قائلين: والله هذا الإنسان، شديد الشبه بالزعيم!

وآخرون ساقطهم جرأة حشر أنوفهم الفطساء في شؤون الغير، إلى سنوات النضال حين كان الزعيم ينشر في جيشه مشروع حركته، فاخترقوا حائط صمتها وألقوا عليه سؤالاً: بالله عليك، مشروع السودان الجديد هذا، أكنت تقصد به الانفصال أم الوحدة؟

رفع رجل -قال إنّه كان ضابطاً في حركة الزعيم- عقيرته بالكلام مدعماً سؤال الغالبية: نعم، الوحدة أم الانفصال؟ ثم أخذ يتفحص الرأس التي كانت تنظر إليه باستغراب، وشعر بريش كبرياء طاووسه يتنفش قبل أن يُفاجئه رجلٌ كان جالساً على درّاجته، واضعاً رجلاً على الأرض وأخرى على دوّاسة العجلة، قائلاً: يا أخي، لقد حاربتَ عشرين عاماً، ألم تعرف عمّ كنت تناضل؟ ثمّ سعل وتفّ وقال: أنت عسكريٌّ غبيّ.

كان الرجلان على شفير التعارك بقبضات أيديهم الملوّحة في الهواء لولا أنّهما لاحظا أنّ عيني الزعيم احتقتا حزناً. حلّ الأخير قبضة يده من ياقة قميص الشاتم. لم تكن فرضيّاتهما القائلة إنّ نظرة الزعيم يشوبها عدم الرضا بما ارتكبه من حماقة، صحيحةً على الإطلاق. فعلى الرّغم من أنّ نظرتَه الحادة ظلّت مثبتّةً فيهما لأكثر من دقيقة، فإنّها كانت مُبحرةً بعيداً عكس اتجاه الزمن. وكان الزمن المخترق في ذلك الوقت هو أحد الأزمنة الجميلة المنشورة كثياب في حبل غسيل الذاكرة، مقاومةً رياح الحاضر

العاتية. أخذ الزعيم يتأمل الزمن البعيد كمشهد دراميّ يتحرّك أمام عينيه ببطء: رأى الرفيق الجالس أمامه الآن يُحاضر أمام الجنود عن مشروع السودان الجديد في ثمانينيات القرن المنصرم. كان آنذاك شاباً نضراً غزياً نشطاً، تشرب المشروع حدّ التُّخمة. وحالما يُنهي محاضرتَه مع الجنود، يأتي إليه ليناقشه في النظريّات الماركسيّة اللينيّة وإيمانه بالتروتسكيّة كضرورة تكتيكيّة لتسيير النضال. ثمّ ينتقل بسلاسة ويُسِر وثقة إلى الحديث عن الأدب الإفريقيّ، ويذكر أنّه لولا شخصيّة أوكونكو التقليديّة لما تخطّت «الأشياء تتداعى» عتبة حدود نيجيريا ووصلت إلى إفريقيا، ناهيك عن العالم برمتِه. كان الزعيم يضحك مستمتعاً بالسياحة الأدبيّة التي يقومان بها في أدغال الجنوب حين لا يكون في تخطيط جيش العدو أن يزورهم قريباً. تناقشا طويلا حول الأمريكيّ جون ريد وكتابه «سبعة أيّام هزّت العالم»، وما إذا كان بالفعل مخلصاً في ما ذكره بالتفصيل عن ثورة أكتوبر البلشفيّة أم أنّه كان مجرد عميل مزدوج دسّ في روايته آراءه الشخصيّة في متن هذا الكتاب. سياحة فكريّة ممتعة يؤدّيانها على متن سفينة ثقافتها وهي تمخر بهما عباب بحر متلاطم ولا ترسو إلّا حين يختتمان حديثهما، كالعادة، بسرّ سقوط المثقّف الجنوبيّ دوّمًا أمام مُغريات السلطة، قبل أن يغوصا في أدب أمريكا اللاتينيّة؛ ويذكرا أنّ ملكياديس «مائة عام من العزلة» لم يكن سوى غجريّ مُخادع ونذل، يستغلّ جهل سكّان قرية ماكوندو ويبيعهم أشياء تبدو لمخيّلتهم المتخلّفة آنذاك، كأحدث الاختراعات في العالم، على الرّغم من أنّها قد تكون خردة لا تعرف أوروبا كيف تتخلّص منها هناك، فتأتي بها إلى كولومبيا لتبيعها بدلاً من أن يتمّ رميها في عرض البحر؛ وأنّ مصطفى سعيد «موسم الهجرة إلى

الشمال» ليس غيبًا أو ذكيًا لكنه كان إفريقيًا يائسًا لا يعرف كيف ينتقم من المستعمر لذا لجأ إلى السلاح المتخلف القابع بين رجليه. لقد أتت البنت بالشاي، أيها الزعيم. سمع الزعيم صوته فتنبه إلى أن الرفيق كازانوفما يزال جالسًا أمامه، تمامًا كما رآه في رحلته التي سافر فيها إلى ماضٍ سحيق وهو جالس في سوق جوبا. أطرق برأسه. وتناول كأس الشاي ورشف منها قليلًا. نظرت إليه صبيّة الشاي بريّة، فأشاح بنظره إلى الرفيق فوجده كما هو، بأناقته ووجهه الباسم، كأنها توقّف زمن نموّه في تلك الحقبة البعيدة ولم يتحرّك قيد أنملة.

انفضّ بعض المتطفّلين من حولهما وجاء آخرون فأقام الصمت جدارًا سميّكًا بينهما. حاول الرفيق إزالته، بينما كان الزعيم يرشف متلذّذًا جرعة شاي، فقال له الرفيق: وأنت يا زعيم، لقد تحسّنت لغتك العربيّة إلى حدّ كبير، ثمّ أردف قائلاً: أنت لم تمت أيّها الزعيم. من كانت أفكاره حيّة، فإنه لا يموت أبدًا.

كأنّ كلمة «الموت» التي ذكرها الرفيق كازانوفما أصابت الزعيم بالصمم فتأمّل صقرًا هزيلًا حطّ على سلك كهرباء، ثمّ استغرق في تفكير حزين كئيب، وبدا وجهه شاحبًا بائسًا كالقبر. يبدو أنّ ما كان يفكر فيه، هو شيء لا ينتمي إلى حياة البشر الذين يأكلون ويشربون ويضحكون وينامون ثمّ يستيقظون ليفعلوا الأشياء ذاتها، بل إلى عالم خارجي تخلّى فيه الإنسان عن كلّ ما يشبع الجسد ويهلكه. رفع رأسه ورمق الرفيق كازانوفما بنظرة فاحصة فهمهم وأصلح من ربطه عنقه واستقام في جلسته. إضاءة ساطعة انبثقت من عيني الزعيم مصحوبة بسؤال لم يتوقّعه كازانوفما، فتملّمل الزعيم في كرسيه، وقال:

-الرفيق كازانوف، لماذا لم تُشارك في لجنة تحقيق تحطّم طائرتي رغم أنّك كنت مسؤول الأمن الخارجي؟

-لم يتمّ اختياري يا زول كبير، تلعثم كازانوف.

-لقد تمّ استبعادك عمدًا، يا كازانوف.

-احتمال، أيّها الزعيم.

-هذه حقيقة وليس احتمالاً، قال الزعيم بصوتٍ جهوريّ،

وواصل: ما هو رأيك الشخصي في سقوط الطائرة، أيّها الرفيق كازانوف؟

-قضاء وقدر يا زعيم.

-قضاء وقدر؟ قضاء وقدر؟ حتّى أنت يا كازانوف؟ حتّى أنت؟،

صاح الزعيم.

تكهّرَب الجوّ. وجَم المتطفّلون. أجال كازانوف نظره على غير هدى كأنّه يبحث عن مخرج من شَرِكٍ أوقع فيه نفسه. واصل الزعيم قائلاً:

- نعم، أنا أوّمن بالقضاء والقدر يا كازانوف. لكن، عندما تكون

هنالك بعض الأيادي الخفيّة والمعلنة التي تريد أن تُحرّك كدُمية

وترفض أنت ذلك، فاعلم أنّ حياتك في خطر. كنتُ حذرًا

جدًّا، خاصّةً بعد أن هُدِّدْتُ بصورة مبطّنة، وذلك حين بعثوا إليّ

رسالةً عن طريق صحفِيّة عربية في واشنطن. «ألا تخاف مصير

سامورا ميشيل؟»، هكذا سألتني الصحفِيّة عندما قلتُ لها إنّ

وحدة السودان أمر يخصّ السودانيّين وحدهم. كانت رسالتها

قويّة أفلقت مضجعي فلم تُغمَض لي عين إلى أن رأيت السحب
تنثر بياضها فوق نهر بالتيemor في صبيحة اليوم التالي في واشنطن.
رأيت يونس سافمي يرتدي الزيّ العسكريّ مستلقيًا على
ظهره، ملطّخًا بالدم، والذبابُ يتهافت على وجهه، وقد ودّع
العالم عند ضفاف نهر لافوي في أنغولا. لا أعرف لماذا تشابه
النهران: بالتيemor في أمريكا ولافوي في أنغولا؟ أمامنا أنهار
كثيرة يجب أن نعبّرها! أتذكر أغنية جيمي كليف تلك؟

لو كنتَ جزءًا من لجنة التحقيق يا كازانوفنا وقلت لي ذلك،
لصدقتك! لكنّ إبعادك المتعمّد من اللجنة يجعلني أشكّ في هذا القضاء
والقدر الذي تتحدّث عنه.

أطبق الزعيم شفّتيه وفرك كازانوفنا يديه المبلّلتين بالعرق وفتح
المتطفّلون عيونهم دهشةً في محاولة منهم لفكّ طلاسّم الحديث الدائر
بين الاثنين بلغةٍ هي خليط من اللغة العربيّة والإنجيزيّة ولغةٍ إفريقيّة.
يبدو أنّ الزعيم تعمّد إعادة الحديث إلى بداياته حين خاطب كازانوفنا
بلغة عربيّة بليغة:

- صدقت. لم يمت من كانت أفكاره حيّة، قال، ولكنّي أقول،
مات من كانت أفكاره حيّة ولم يعمل بها أحد!

شعر كازانوفنا بأنّ الزعيم يضيق عليه الخناق، فحلّ ربطة عنقه
قليلاً، ووجد في كلامه هذا فرصةً ليؤكد النقطة التي ذكرها، ولم يُعلّق
الزعيم عليها:

-والله يا زعيم لغتك العربيّة أصبحت ممتازة.

-كلامك صحيح. ولم أعد أيضًا أستخدم كلمة «إنّه هو» عشوائيًا
كما كنت أفعل من قبل.

ضحكًا، وضحك محبّب الاستطلاع المستمتعين برؤية الزعيم جالسًا
وسط السوق، بعيدًا عن الضريح. كان الزعيم آخر من يتوقّف عن
الضحك وهو يقول: وبعدين يا رفيق، أما زال أصدقاؤك في الخرطوم
ينادونك كازانوفًا؟

لقد كان الزعيم مُحقّقًا عندما ذكره بأصدقائه في الخرطوم. كان
حضور كازانوفًا حضورًا مشرفًا بأناقة تمثّلت في بذلة زرقاء وقميص
بنّي وربطة عنق حمراء مُرَقّطة بدوائر بيضاء صغيرة، وكان يضع فوق
جيب بذلته علمًا معدنيًا مرصّعًا بهاء الذهب، وكان عبق العطر الباريسي
الممزوج بخشب الصندل فوّاحًا جعل الزعيم يعطس ثلاث مرّات.
وقد أحاطت بمعصمه الأيسر ساعة سويسريّة جذّابة لم تلفت انتباه
الزعيم، أمّا شعره الذي وخطه الشيب، وكان مشدّبًا بعناية فائقة، فقد
أضفى على شخصه هيبةً ووقارًا، ممّا جعل الزعيم يظنّ أنّ هذا الشعر
قد صُبغ بلون جليديّ ناصع.

إلى الآن كان كلّ شيء طبيعيًّا: الطفيليّون والزعيم ورفيقه والمارّة
المذهولون الذين ما يؤسّوا، قطّ، من التأمّل العميق في الرفيق الأنيق
والزعيم وشخص آخر كان يمضغ شيئًا، وصبيّة الشاي وقد جاءت
تجمع الكؤوس. أجل، كان كلّ شيء طبيعيًّا حين بدأ الناس ينفصّون،
رويدًا رويدًا، إثر شائعة تسرّبت وانتشرت في السوق بأنّ جيشًا عرمرمًا
مكوّنًا من ثلاثة آلاف فردٍ آتٍ للقبض على الزعيم، المهّدّد الأكبر للأمن
القوميّ، فعلم التجّار أنّ فوضى عارمة واقعةٌ لا محالة في الدقائق القليلة

الفاصلة بين دكاكينهم والقيادة العامة للجيش الذي تحرّك منذ عشر دقائق حسب رواية إحدى النسوة رأيتهم يخوضون بين قبور مدفن المسلمين بالقرب من سوق كُونجُو كُونجُو وقد أضناهم القنوط من البحث في عُرف البيوت الطينية المتداعية، ومطابخ مطاعم السوق التي غزاها عدد لا يحصى من الذباب، والخمّارات التي كانت أكثر عددًا من البيوت في الأحياء العشوائية على ضفاف الخور الكبير حيث يقضي الناس حاجتهم الطبيعيّة صيفًا وخريفًا وشتاءً. أفرغ الجنود زجاجات الخمر، وكانوا قد أخذوها من الخمّارات التي كسروا أبوابها، في معدّاتهم سريعًا وألقوا بها على قارعة الطرقات فبدت الزجاجات حزينة، كثيبة، كأرامل نضبت سوائل أرحامهنّ. بحثوا ولم يتركوا خلفهم سوى خردةٍ وأكوامٍ تُراب وجبلٍ من الصفائح المتراكمة. قفزوا من فوق سور مقابر المسلمين إلى مقابر المسيحيين وأصحاب اللادين ومعتنقي الأديان الإفريقيّة الطبيعيّة. كانت تلك هي مقبرة حيّ ملكال التي يزرع فيها الناس مخلّفاتهم البشرية عوضًا عن الزهور والرياحين الذكيّة الرائحة. وعندما بلغ بهم التعب النفسيّ والجسدي حدًّا جعل بعضهم يتكئ على سور المقابر، ويمسح العرق ويبصق على قبرٍ حديث، جاءهم صوت قائدهم عاليًا: لقد أوشكنا على القبض عليه!

جاء هتافه قويًّا حقن في أوردتهم دماءً حماسيّة جعلتهم يقفزون بهمة، يشحذون سواطيرهم ويجذّون الحشائش الطفيليّة النابتة بشراسة بين القبور المبنية بإهمال بالغ، ثمّ، وباستخدام حفّارات وكسارات يابانيّة جُلِبَتْ خَصِيصًا لإنجاز تلك المهمة القوميّة - كما سمّاها أحد المسؤولين الحكوميّين - أخذوا يُهشّمون إسمنت القبور ويُزيلون عنها الأتربة

ويوقظون الهياكل العظميَّة من سباتها الأبديّ، مُعتمدين في ذلك على إشاعة تافهة أطلقها أحد سكّان المقابر المعتوهين، وكان يمضغ قطعة قماش مغموسة في مادّة السيلسيون، بأنّه رأى الزعيم قبل دقيقة واحدة، يتسلّل إلى مقبرة قديمة في البيت الأبيض. ولم تكن لقهقهات المعتوه -وقد قيل إنّ ظلّ يقهقه دون توقّف، منذ ذلك الوقت إلى يوم وُوري الثرى بعد خمسٍ وعشرين سنة- علاقة بالمادّة التي تحت ثلاثة أرباع ذاكرته أو ربّما ذاكرته بالكامل في اليوم الذي رحل فيه، إذ وُجد راقداً وابتسامة ساخرة مطبوعة على ثغره المتشقّق، بل كان ذلك لأنّه كان يعلم أنّه وُلد مقعداً منذ أن لفظته أمّه إلى هذه الدنيا العاهرة، ولم يرَ هذا البيت الأبيض!

وبالاستناد إلى تلك الإشاعة، تحرّك الجند مترنّحين بفعل آثار الخمر والتعب. كان فريق الحفر قد وصل، ونصب حفّارات يابانيّة يدويّة، وبدأ يحفر موقع البيت الأبيض: جماجم صغيرة الحجم مخرّمة على ما يبدو بطلقات رصاص، وأخرى كبيرة مهشّمة من الخلف كأنّها عُدّب أصحابها بضرب مطرقات كبيرة قبل بعثهم إلى الطرف الأخير من العالم. أمسك جنديّ -يبدو أنّه لم يبلغ العشرين من عمره- بجمجمةٍ بدت عليها آثار شروخ، وجلس القرفصاء يقبّلها على جبهتها، وينوح نواحاً شديداً. قعد آخر على ركبتيه، ووضع يديه على ركبة الجنديّ النائح، وأخذ يعزّيه قائلاً إنّهم وجدوا أكثر من مائة جمجمة بالوجوه نفسها وعليها آثار الشروخ نفسها، وإنّ التي يحملها بين يديه، قد لا تكون لأخيه الذي أُعِدِم في ليل بهيم في تسعينيّات القرن الماضي.

كانت أعداد الجماجم تتزايد وتتضاعف حتّى غصّ بها الدفتر الصغير الذي كان أحد الجنود يدوّن فيه الأرقام. أمّا المهمة التي جاؤوا

من أجلها، وهي البحث عن الزعيم والقبض عليه حيًّا أو ميتًا، فقد تلاشت في متاهة انشغالهم بالهياكل العظميَّة التي ألتهم عن كلِّ شيء حتَّى عن وجودهم نفسه. ولمَّا بلغت الجماجم المنبوشة من المقبرة الجماعيَّة حدًّا عجز معه القائد عن تخيُّل كيف قُتل هذا العدد الهائل من البشر في صمْتٍ وغفلةٍ من العالم، وهل إنَّ كلَّ الإبادات الجماعيَّة في العالم ينفَّذها بشر بضائر حيَّة، ضمائر تنبض فيها معاني المحبة والإنسانيَّة، أم إنَّ البشر يتخلَّون، قبل تنفيذ هذا التطهير الجسديّ، طواعيةً، عن ضمائرهم برهةً ويتحوَّلون إلى مخلوقات ممسوخة، لا ترى ولا تسمع ولا تشعر بصرخات الضحايا الأخيرة، وهي تغادر العالم.

جمع القائد جنوده وأخبرهم بأنَّه اتَّصل برئيسه في القيادة العامَّة وناقشا فكرة تشييد متحف للجماجم ضحايا الحرب وشهداءها الذين لم تحمل أكتافهم بنادق، ناهيك عن كونهم لم يطلقوا رصاصةً على جيش العدو. كان الحزن ثقيلاً على نفوس الجنود فلم يحسُّوا بالقائد وهو يحثُّهم على النهوض والذهاب إلى سوق جوبا. فأضاف: لعلَّ منظر تلك الجماجم يجعلنا لا نفكّر أبداً في التمرد والعصيان.

كان الجنود يرفلون كمساجين في قيودهم عندما يهتزُّ الهاتف في يد قائدهم. داس على زرِّ قراءة الرسالة فوجد خطاباً نصيًّا يأمره بالذهاب، هو وجنوده، إلى سوق جوبا والقبض على الزعيم الذي يوجد هناك ويأكل وجبة البامية المفروكة بالكسرة والشطة الخضراء الممزوجة بسائل ليمون جزيرة غندوكرو.

موعظة القصر

كان عبد المنعم الشيخ آخرَ تاجر يغلق دكانه في سوق جوبا، بعد أن تردّد كثيرًا غير مصدّق الشائعات التي أصبحت تهطل على رؤوس البشر مثل أمطار الخريف، وذلك حينما ظهرت، وسط عجاجة الغبار الهوجاء، سيّارات الجنود القادمة للقبض على الزعيم أو قتله، حسب بند الدستور الجديد. وفي الوقت نفسه، كان الزعيم يُغادر مجلس كازانوفّا تحت شجرة النيم وهو يُختم حديثه بالتساؤل عمّا يمكن فعله إزاء مشروع السودان الجديد. لقد أصبح مثل كلّ المشاريع القوميّة الأخرى، أيّها الزعيم! لقد دُفِنَ معك قبل عشر سنوات، قال كازانوفّا، مندهشًا من كثافة الجنود الذين بزغوا، كالأشباح، من اللاّمكان.

فتح القائد باب سيّارته وقفز قبل أن يضغط السائق على الكابح. وفي لمحة بصرٍ، قفز الجنود وأحاطوا بالرفيق كازانوفّا وهو يُقلّب الصفحة الأخيرة من الصحيفة، ويثبّت عينيه على نعي لزميل له تُوفّي في المستشفى العام:

«ضابط كبير يموت بضيقٍ في التنفّس لعدم وجود الأوكسجين في كبرى مستشفيات البلاد».

عنوان بلونٍ أحمرّ فاقع قرأه كازانوفّا، وانغمس سريعًا في تفاصيل الخبر التي تقول إنّ نوبات أزمةٍ حادّة داهمت الضابط الكبير بينما كان

يقود قوّة كُلفت بالبحث عن الزعيم في مشرحة المستشفى، بعد أن أخبرهم أحد العمّال بأنّه رأى في الليلة الماضية شبحاً يتسلّل إلى المشرحة التي بناها الإنجليز في عهد الاستعمار، ويندسّ بين الموتى داخل ثلاثتهم المتعطّلة منذ أكثر من ثماني سنوات. لعلّه أراد أن يتدفّق بالجثث، فقد كان الطقس بارداً ليلة أمس، قال عامل المشرحة. وسحب من الثلاجة جثة ملطّخة بالدماء الخائرة، ووجّه كلامه إلى أهل الميت قائلاً: آخر مرّة قبضت فيها راتبي كانت قبل نتيجة الاستفتاء بيوم واحد. وتطلبون منّي أن أغسل جثّتك التي تفوح منها رائحة الخراء، مجّاناً! الكرسيّ الذي كان الزعيم يجلس عليه حين قفز الضابط من السيارة، صاحباً مسدّسه ومصوباً إيّاه باتجاه الزعيم، أصبح خالياً فجأةً، وهو ما جعل الضابط يصبّ جام غضبه على الرفيق كازانوف. فأمسكه من ياقة بذلته، وبقبضة يمينه عقف ربطة العنق، خانقاً إيّاه، حتّى كادت عيناه المتورمتان تخرجان من محجريهما. سأله الضابط بلعابٍ تناثرت ذرّاته وانتهت في شفتيّ كازانوف قائلاً: أين ذهب، لقد رأيته بأمّ عيني، أين ذهب؟ ثمّ أحكم قبضته على ربطة العنق وضغط على فمه فخرجت الكلمات بين أسنانه السوداء المصفّرة مفعمة بالتهديد: أين هو، لقد رأيته جالساً على هذا الكرسيّ. أين هو؟

لقد كان الضابط الغاضب محقّقاً في سؤاله. فعندما أحاط الجنود بكرسيّ الزعيم، كان هو يودّع الرفيق كازانوف الذي لم يتنبه إلى وجود العسكر، ولم يسمع صوت الكابح القويّ لعربة الضابط، أو السيّارات التي أحدثت غباراً كثيفاً. فقد كان يُناشد الزعيم أن يعود إلى الحياة لتنفيذ أشياء كثيرة لم تُنجز منذ غيابه الطويل.

كان الرفيق يثق تمامًا بأنّ الزعيم هو الشخص الوحيد الذي بإمكانه تحقيق المشروع على أرض الواقع، لأنّه الوحيد الذي خلق المشروع وآمن به إيماناً أدّى إلى مقتله. يبدو أنّ الرفيق قد أوقع نفسه، بمناشدته تلك، في شرك الإشاعة التي تقول بقيامة الزعيم، ولعلّه كان على صواب وكان الزعيم قد قام من بين الأموات فعلاً وجلس معه وتناول طعام الغداء معاً! بدت الحيرة برّاقة لامعة في بؤبؤ عينيه -وهو يوزع نظراته بين الكرسيّ الخالي القابع أمامه، والضابط الذي يُحكم على عنقه بقبضة يده الملتفة بربطة العنق- وهو ما جعل بعض المارّة يحتارون فيما إذا كان مصدر حيرته هو تلك القبضة المسعورة في أوداج عنقه المتورّم، أم إنّها ذات علاقة بالزعيم الذي تلاشى في ملح البصر. كان الأمر بالنسبة إليهم شبيهاً بحلم قيلولة صيف قاطئ. ثم إنّ الشتيمة التي ازدردوها الرفيق الأنيق قبل أن يتفّها في وجه الضابط، لم تكن ردّ فعل طبيعيّاً لغضبه الذي بلغ بلعومه حين لفحته سخونة رائحة السعوط المنبعثة من فم الضابط، بل كانت بسبب المتاهة التي وجد فيها نفسه بين أن يُصدّق الحديث الشيق الذي أجراه مع الزعيم، وبين سقوطه المدوّي على الكرسيّ حين أفلته الضابط، أو أن يُكذّب كلّ ذلك. وكانت تلك المتاهة هي المحفّز الأساسيّ لإطلاق شتيمة ما، لولا أنّه أدرك، في آخر لحظة، أنّه مُحاط بأناس لم يرَ سوى وجوههم الغبشاء بتراب مقبرة البيت الأبيض الجماعيّة: أناس يرقص الموت في عيونهم، تلك الرقصة التي تجعلك تدرك أنّ الموت والحياة وجهان لعملة واحدة.

ما إن أخذ الرفيق كازانوف يفقد الإحساس بالألم بسبب الأحذية الثقيلة القدرة التي كانت تدوس على أنفه، وهو منبطح داخل صندوق

سيّارة الشرطة العسكرية، حتّى بدأ التاجر عبد المنعم الشيخ، يضع الأقفال الثلاثة الكبيرة على باب دكانه، ولكنه لم يكن يعلم أنّ تلك اللحظة هي آخر مرّة يضع فيها يده على هذا الباب الزنك الذي دأب على لمسه كلّ صباح لعقدين من الزمن.

صعقته رؤية الزعيم يتفرّج على تجّار العملات في السوق السوداء، فأوقفه. ساور عبد المنعم الشكّ في قيامة الزعيم، لذا سخر من الذين أغلقوا محلاتهم وذهبوا إلى الضريح لرؤيته. لكنه شعر في تلك اللحظة، حين رآه، برجفة خفيفة تحت قلبه.

-تفضّل أيّها الزعيم، تفضّل، قال عبد المنعم بخفّة دمه المعهودة كأنّه ينادي صديقاً له.

- شكرًا، شكرًا، ردّ الزعيم.

لفت نظر الزعيم منظر عشرات الأطفال الجالسين على مصاطب المحلات، يحملون على أكتافهم حقائب قماش صغيرة مليئة بعلب الورنيش وأقمشة قديمة وقطع إسفنج لتنظيف الأحذية. كانت وجوههم غليظة شاحبة كأنّهم انبثقوا من مقبرة للأطفال أو هبطوا للتوّ من كوكب آخر. في الطريق القادم من البنك المركزيّ المتّجه إلى فندق جنوب السودان، رأى الزعيم مناظر ذكّرت بالقرية التي وُلد فيها وترعرع: قطع من الأبقار يعبر الشارع الرئيسيّ ويخور بأصوات مُزعجة، وخلفه رجل يرتدي زيّاً عسكريّاً يحمل على كتفه كلاشنكوف وفي يده عصا رفيعة يضرب بها ثورا ضخماً وقف في وسط الشارع المعبّد ينظر بعدوانيّة إلى السيّارات المتوقّفة على الجانبين. روث أخضر ضخّم خرج من تحت ذيل

مرفوع في الهواء أطلقه الثور، فتناثر في الهواء ملطّخاً وجه الراعي الجنديّ وزيّه الأخضر المبرقع بالأسود، فأطلق شتيمة بلغةٍ جعلت شفّتيّ الزعيم تنحرفان بابتسامة صغيرة سرعان ما توارت، عندما قال له عبد المنعم: أراك مندهشاً أيّها الزعيم، لكن لا بدّ أن تعرف أنّ جوباً هي العاصمة الوحيدة التي تستقبل شوارعها البشر والحيوانات دون تمييز!

- كيف الأسعار في السوق هذه الأيام؟

- مثل الماراطونيّ الأثيوبيّ العالميّ هايلي جبريسيلاسي!، ردّ عبد المنعم متبسّماً.

- دعك من الحديث بالألغاز يا عبد المنعم!، قال الزعيم.

- الحياة هنا، يا زعيم، لُغزٌ كبيرٌ.. بحرٌ مالحٌ لا شطآن له. أتسأل عن الأسعار؟ أجل، إنّها كالماراطونيّ الذي لا يُلحَق به أبداً!

- أليس هناك سعر ثابت؟

- الثابت هو أن يستيقظ التاجر في الصباح ويضع السعر الذي يروق له.

- وماذا عن المواطن العاجز عن المشاركة في ماراطونكم المرهق هذا، يا عبد المنعم؟

- لا بدّ له أن يُمرِّغ أنفه في قذارة الحياة كي يصير ماراطونيّاً ماهراً!

- وماذا عن الحكومة، ألا تحمي المواطن؟

- هههههه.. هههههههه. حكومة، قال عبد المنعم وهو يحدّق في عيني الزعيم بذهول كأنّه رأى على رأسه قرني استشعار، وأردف قائلاً:

في قاموس الحكومة السياسيّ ليس هناك شيء اسمه مواطن!
- وكيف يعيش هؤلاء الناس يا عبد المنعم؟، سأل الزعيم بغضبٍ
وهو يُشير بيده إلى المارّة.

- للأسف، للأسف الشديد، سيّدي الزعيم، هؤلاء الناس مجرّد
أموات يمشون على الأرض.

غيوم كبريتيّة رآها الزعيم تتسرّب بين أوراق شجرة النيم المغروسة
على جنبات الطريق وتتصاعد لتغطّي سماء السوق فجأة. لقد علم
أنّ الدوخة نفسها التي خبرها قبل موته بدقائق، وهو جالس داخل
الطائرة، هي التي تكسو نظرتَه بتلك الغيوم الزائفة، رآها عبد المنعم
في عينيه اللامعتين خلف الدموع المتراقصة كموجٍ صغير، فغيّر مجرى
الحديث قائلاً:

- ألا يمكن إعادة توحيد الدولتين، يا زعيم؟

- لم أكن أنا من قرّر الانفصال يا ود الشيخ، قال الزعيم.

- أعلم ذلك، ولكن أنتم الاثنان، على الأقلّ، يمكنكما فعل شيء
من أجل الغلابه في الدولتين.

- أنا ومن؟

- أنت وطه.

- أين صديقي طه؟

- سمعت أنّه يمارس عزلته في تجارة الملح وأشياء أخرى.

- وكيف حال الناس في الدولة الثانية؟

- حالها حال الأولى. هنا يتقنون فنّ إرسال المواطن إلى الضفة الأخرى، قبل يومه، بأسرع ما يمكن..

- وهناك؟، قاطعه الزعيم.

- لا فرق بين هنا وهناك إلاّ حرف الكاف.

- يعني الانفصال كان...

- كان ضغثاً على إباله، قاطعه عبد المنعم، ثمّ أضاف: أهمّ شيء هو أنّ عودتك هذه قد تبثّ شعاع الأمل في نفوس المواطنين الذين أصبحت الدولتين بالنسبة إليهم عبارة عن نفقٍ داخل كهفٍ ضخم، داخل جهنّم!

هزّ الزعيم رأسه وشدّ كتفيه. صعد صوت المؤذن هذه المرّة عاليًا بينما كان عبد المنعم يضع اللوحة الحديدية الأخيرة على عرض الباب، وأغلق الطبل وهو يقول: هذا هو الوضع، أيها الزعيم! وضع المفتاح داخل جلبابه الأبيض، والتفت إلى الزعيم فلم يجد شيئًا. أخذ عبد المنعم يحكّ رأسه ليتيقن أنّه كان فعلاً يتحدث مع الزعيم. أشار إلى طفل كان يلّمع حذاءً بالقرب من دكانه وسأله فأجاب بأنّه لم ير، منذ أن فتح عبد المنعم دكانه في الساعة الثامنة صباحًا، شخصًا يتحدث معه، مُلقياً به في دوامةٍ من الحيرة الكبرى، رآها شبيهة تمامًا بحيرة النسوة اللواتي اجتمعن عند باب منزل الرقيب أجائق واني في الصباح، ليتأكّدن ما إذا كانت القيامة أكذوبة أخرى مثل أكذوبة ظهور رجل في المنطقة الواقعة جنوب النيل الأزرق وادّعائه النبوة، فتبعه آلاف الرجال أرادوا عبور البحر الأحمر مشيًا على الأقدام، تمامًا كما فعل موسى النبي، فهلكوا جميعًا.

كان الجامع العتيق يغصّ بالمصلّين كأنّه اليوم الأخير قبل يوم القيامة، وكانت الشمس في الخارج حارقة، فاجتاز عبد المنعم المصلّين في الساحة ودخل المسجد، حاشراً نفسه بينهم، فزجروه بنظرات رافضة.

تحدّث الإمام عن القيامة بسخرية، وتحدّث باستنكار واستغفار عن تدافع الحشود إلى أضرحة البشر، وذكر أنّ على المسلمين عدم الإيمان بخزعבלات أهل الكتاب، فتلقّى عبد المنعم الرسالة التي دخلت أذنيه ثمّ هبطت في داخله، واتخذت حيزاً في نفسه ثمّ استقرّت في مكان ما مجهول، شبيه بهاوية سحيقة في بدنه. كانت الصلاة على وشك الانتهاء عندما شعر عبد المنعم بنظرات المصلّين مصوّبةً إليه من كل الجوانب. فظنّ أوّل الأمر أنّه ربّما يكون قد تجاهل الوضوء كما فعل قبل خمسة أشهر عندما فشلت صفقة القرن كما كان يسمّيها.

كان عليه توفير مبلغ خمسة ملايين جنيه مقابل شراء عملة الدولار من البنك المركزي. أخماس في أسداس ضرب بها عبد المنعم أحلامه، وهو يقبض عشرة ملايين جنيه عندما يبدّل مبلغ المليون دولار في السوق السوداء. كان يفتح دكانه منذ الساعة السابعة صباحاً، يجلس خلف مكتبةٍ بحجم طاولة لا تصلح لأكثر من وجبة فطور، يدسّ وجهه في دفتر كبير اشتراه من المكتبة المقابلة لدكانه ويسوّد الصفحات بعمليات حسابيّة كلّها كسور وضرب وطرح وجمع لا ينتهي. ولا يرفع رأسه إلّا عندما يأتي زبون، فيفعل ذلك ليشير إليه بقلم البيك الأزرق لكي يذهب أو يومئ برأسه بالإيجاب إلى الصبيّة التي تأتي له بوجبة الإفطار الصباحيّة، ثمّ ما يلبث أن يطوي صفحات الدفتر، ويفرك فروة رأسه،

وينفجر بضحكة مجلجلة، وهو يلفُ عمامته الكبيرة البيضاء حول رأسه مستجيباً لنداء صلاة الظهر التي لا يفوتها أبداً.

اقتربت عقارب الساعة من العاشرة صباحاً في تلك الجمعة، وقد بدت لعبد المنعم الشيخ- التاجر الذي بنى ناطحات سحاب من الأحلام الوردية على صفحات دفترين كبيرين- أنها لن تكون مباركة البتة حين عجز عن توفير المبلغ وإيداعه في البنك المركزي في تمام الساعة العاشرة صباحاً. قلب عبد المنعم في الأيام الماضية سوق جوبا وسوق كونجوكونجو وحتى سوق ستّة وسوق الجبل، رأساً على عقب، كي يجد من يقرضه مليونين من الجنيهات يتم بهما مبلغ الخمسة ملايين، بيد أنَّ خُفْيَ حُنين كانا الشيء الوحيد الملازم له حتى في أحلامه السعيدة التي يُخطّها على صفحات الدفتر. داخل رأسه كان ثمة شيئان يحتكّان كحجرَي رحي، فشعر برأسه ينشقّ إلى نصفين عندما نظر إلى الساعة المعلقة فوق البضائع، فرأى عقرب الثواني تمشي لتلحق بمؤشّري الدقائق والساعات لتعلن العاشرة تماماً. وما إن لحق عقرب الثواني وتخطّاهما حتى شعر عبد المنعم بأنَّ شيئاً ما قد فتح رأسه وصبّ فيه خرسانة ساخنة فتقيّاً سائلاً أخضر، وانهار وسقط على الكرسيّ الخشبيّ. ولم يفق إلّا على صوت المؤذّن كأنّه كان يناديه إلى الصراط المستقيم بينما كان هو تائهاً في صحراء شاسعة ملتصقة بالأفق من كلّ الجوانب. نهض وهرع صوب الجامع العتيق وانضمّ إلى المصلّين متجاهلاً عدم وضوئه رغم الغبار الكثيف الذي علا ساقيه والسائل الأخضر الذي خضّب جلبابه. فقط، حين نطق الإمام بالتسليمتين وهَمَّ الجميع مغادرين المسجد، علم التاجر عبد المنعم الشيخ -عندما

لاحظ أحدهم ينظر إلى رجله المغبرتين كأنهما سحلتان جرباوان دنتا
قدسيتي المسجد العتيق - أنه صلى دون أن يتوضأ: الأعمال بالنيات يا
أخي، قال المحقق في رجله وأوماً عبد المنعم برأسه موافقاً.

ألفى عبد المنعم طرف جلبابه ليناً، فاستبعد عدم وضوئه واستغرب
نظرات المصلين التي بدت كأنها تنطق باسمه خوفاً. فقد توقّف في
الخارج عسكريّ ضخّم عند النافذة الشماليّة للمسجد، وطفق يبصر
الأجسام الملفوفة بجلايب بيضاء وهي تبرك ثم تقف وترفع أياديها
وتنحني وتضع جباهها على الأرض ثم تقف في تناسق إيمانيّ بديع.
شعر عبد المنعم بخفقان قلبه يرفّ بسرعة كجناحي حمامة تهرب من
صقر جارح فتذكّر حديثه مع الزعيم. لم يتنبه إلى التسليمتين ولا إلى
المصلين وهم يغادرون صحن المسجد الذي احتله العسكريّ الضخم
فجأة. كانت رائحة الجعة تفوح من فمه، شهية طازجة كأنه تجرّعها للتوّ
وهو يتحدث إلى الإمام. لم يظهر الإمام امتعاضه ولا غضبه الساخن
الذي كان يغلي في صدره كبركان في باطن الأرض. انسلّ عبد المنعم
من بين المصلين، واجتاز الباب الحديديّ المطليّ باللون الأخضر الباهت
فوجد نفسه وجهاً لوجه مع عسكريّ دميم الوجه مقطب كأنه إبليس،
جاء ليتحدّى الله في صلاة يوم الجمعة.

- هل أنت التاجر عبد المنعم الشيخ الذي تحدّث مع الزعيم بالقرب
من بنك أيفوري قبل نصف ساعة تقريباً؟، سأل الشيطان.

بدهشة رُسِمَتْ بحرفيّة عالية ردّ عبد المنعم مستنكراً:

- استغفر الله، أيها الرفيق، قال مخاطباً الجنديّ، أنا رجلٌ مسلمٌ تقيٌّ

وأحجّ إلى بيت الله الحرام كلّ عام. كيف لي أن أوّمن بفكرة قيامة الزعيم، ناهيك عن التحدّث معه؟

مضى عبد المنعم بين الناس مهرولاً، وجلبابه مبتلّ بسيل من العرق. كان يختلس النظرات إلى سيّارات الجيش وهي تطلق من عوادمها أعمدة دخان سوداء وتثير الأتربة في الوجوه التي استنكرت، في صمتٍ، اقتحامهم الجامع بأحذيتهم القذرة، ممّا جعل الحارس العجوز الذي كان يعبّي الأباريق بالمياه لصلاة العشاء، يُسائل الإمام ما إذا كانت آيات كتاب الله الحكيم تُبيح للعسكر دخول الجامع بأحذيتهم. غمغم الإمام بشيء في سرّه ففهم الحارس العجوز معنى نظراته المفعمة بدموع الحسرة. في ذلك الوقت كان عبد المنعم يحثّ سائق الدراجة النارية على أن يزيد من سرعته رغم بطء حركة المرور عند دوران كنيسة موبيل.

كان بائع الزهور العم جادا قد عاد إلى منزله ليُحمّل، للمرة الرابعة، سيّارة نقل صغيرة بشتّى أنواع الزهور البيضاء، ويذهب بها إلى الضريح، فما يزال الناس هناك يتكالبون بأعداد رهيبة، ويتاعون الزهور ليرموها قريباً من القبر. وعندما رأى عبد المنعم يترجّل عن ظهر الدراجة النارية ناداه، فلم يعبأ به. لقد اجتاح رأسه عصفٌ ذهنيّ رهيب وهو يضع احتمالات أن يأتي الجنود ويقبضوا عليه في أوّل ليالي قيامة الزعيم. وضع جادا آخر حزمة زهور على متن السيّارة حين سأله عبد المنعم عمّا إذا كان ظهور الزعيم هو الحقيقة الوحيدة اليوم، فمضّ إصبعه الوسطى ثمّ رفعها في وجه عبد المنعم قائلاً: «اجلس هنا على هذا الخازوق اللين»، فابتسم عبد المنعم وهو يهزّ رأسه ولسان حاله يقول: ما أرحم خازوقك، يا عم جادا، مقارنة بالذي ينتظرني!

في تلك الأمسية، وبينما أوقف رجال الأمن خمسة أشخاص باسم عبد المنعم، كان التاجر عبد المنعم الشيخ الذي وصل مدينة يَروْل هاربًا من جوبا، قد غادرها متّجّهاً إلى مدينة واو. كان يتأمّل نُجيمات السماء والسيّارة تمخر عباب غابات كثيفة مليئة بالحيوانات، ويُدرِك أنّ مصيره المكتوب على جبينه هو أن يظلّ طوال حياته مطاردًا من دولةٍ إلى دولة. عبد المنعم عيسى ود التوم وعبد المنعم مريدي، عبد المنعم الشيخ عبد المنعم، وعبد المنعم محمد عبد المنعم، وعبد المنعم الجاك، خمسةُ كائنات يحملون اسم عبد المنعم، أوقفهم صبيان أمن يبدو أنّ أكبرهم سنًا -ذاك الذي لم يتوقّف عن مضغ العلكة بطريقة مثيرة مخجلة- لم يتجاوز الثالثة والعشرين من العمر.

كانت الأخبار الكثيفة المنهالة على رقاب رجال الدولة في العاصمة جوبا، تنزل عليهم كحُمى وباء خطير تصعب السيطرة عليه، خاصةً عندما جاء سلاطين قبائل وجزموا بأن الزعيم زارهم، واجتمع بهم تحت شجرة النخيل على ضفاف نهر موسمي في الغابات الاستوائية ذات الأمطار الغزيرة.

رغم أن تسريبًا بتطبيق حكم التجديف بالربّ والوطن، كان قد بلغ مسامع السلاطين بغية إخضاعهم لرغبة الحكومة في قتل شائعة قيامة الزعيم في مهدها، فإنّ الوعد الذي قطعه على أنفسهم وعلى أجدادهم الراقدين في انتظار القيامة، وحتى على أهالي القرى الذين ودّعوهم بدموع فرح القيامة، كان قويًا جعلهم يقولون إنّ الصورة المتجلية فوق سماء القرية رغم الغيوم التي لامست أسطح بيوت القشّ وسرت مختالة بين صفوفات الشجر عند بزوغ فجر يوم الأحد كانت للزعيم. نعم إنّ تلك الصورة لم تكن لغير الزعيم، ولم تكن صورة إنسان آخر بُعثت إليهم من العالم الماورائي: أقسم باسم الأب والابن والروح القدس وباسم آبائي الأوائل الذين اختفوا في دول ما وراء البحار قبل خمسمائة عام. هكذا أكّد أكبر السلاطين سنًا.

أخفق أعضاء البرلمان في تنفيذ شهادة السلاطين، وامتألت قلوبهم

بالخوف، خاصّةً عندما أدركوا أنّ الرسالة التي تركها الزعيم لأولئك الشهود تفيد بأنّه قام من بين الأموات ليُكمل مشروعه القوميّ بعد أن تركه في منتصف الطريق! لذلك فإنّ الغبطة التي أظهرها بعض أعضاء البرلمان سرعان ما تبدّدت، عندما علموا أنّ هذه الرسالة تخصّ، تحديداً، أولئك البرلمانيّين العاجزين عن فكّ طلاسّم أبجديّات القراءة والكتابة، ناهيك عن جهلهم المُخجل بإجراءات سنّ القوانين! وأدركوا أيضاً أنّ الزعيم قد أفشى كازانوفاً سرّاً مغزاه أنّه سوف ي كنس البرلمان من قذارة الجهل المتفشّي وسط مشتري الشهادات الجامعيّة المنتشرة على أرصفة شوارع عواصم شرق إفريقيا، أكثر من انتشار ورنيش تلميع الأحذية. عضو بارز بلغ به القنوط شأواً عظيماً فرأى - في خضمّ إحدى الهلوسات التي أمست تداهمه في كلّ ساعة - الزعيم يدخل البرلمان ويحمل في يده، كالمسيح، سوطاً، يجلد به الجهلاء وهو يقول: أجعلتم بيتي مغارة للأُميّين؟

ليس هذا فقط، بل إنّ أحد السلاطين وشوش في آذانهم سرّاً، كاد يبعث بهم إلى مصحّة للأمراض النفسيّة، بأنّ الزعيم عقد العزم على تأسيس وزارة جديدة سيشرّف عليها بنفسه تسمّى «الوزارة العامّة لمحو أُميّة السياسيّين»، وأنّه سيبعث بأعضاء البرلمان إلى إحدى المدارس الابتدائيّة التي لم يكتمل بناؤها بعد، ضمن برنامج محو الأُميّة ذات المائة يوم، لتعلّم الحروف الأبجديّة بدلاً من الجلوس تحت قُبّة البرلمان، وهم لا يدرون كوعهم من بوعهم، وأنّ الزعيم ذرف دمعةً انسَلَخ لها جلد وجهه عندما أدرك أنّ البرلمانيّات كنّ يستغلن ساعات الجلسات المملّة في حياكة ملاءات التيل، وتبادل الأحاديث الساخرة

عن بعض الأعضاء الذين يغطّون في نوم مريح ليستيقظوا كي يرفعوا أياديهم عاليًا، تأييدًا لأيّ قرار يتطلّب التصويت بنعم. فقد كانوا على علم بأنّ أيّ قرار يطرح أمامهم، هو قرار حكوميّ لا يقبل الرّفص أبدًا.

اكثرث البرلمانيّون، واضطربت عقولهم وهم يتخيّلون أنفسهم جالسين في فصول تعليم أبجديّات اللغة في إحدى المدارس النائية، يتشاءبون، ويقاومون النعاس بترطيب جفونهم بمياه معدنيّة باردة. ولإجهاض هذا المشروع القوميّ، أجاز البرلمان في دقيقة واحدة، وبتصفيق أعضائه وقوفًا لأكثر من نصف ساعة، إعدام كلّ من يشبه الزعيم في كلّ أرجاء البلاد. وإن هي إلّا سويّعات حتّى تمّ إحضار آلاف الناس من مختلف القبائل، قيل إنّهم يشبهون الزعيم القائم من بين الأموات في العام العاشر من موته.

في اليوم الثاني من إلقاء القبض على أشباه الزعيم، والحقيقة التي يجب أن تقال هي أنّ رؤوس معظم المعتقلين كانت شبيهة برأس الزعيم الأصلع كأنّها رؤوس استنسخت قبل موته، كانت طلقات الكلاشنكوف تمطرهم كأنّهم أكياس رمل في ميدان إطلاق نار.

تحت أشعة شمس الثانية عشرة الساخنة، احتمت نسوة نحيلات كأخشاب الطلح بظلال أشجار النيم الضخمة المترصّة على أطراف شارع الوزارات، وافترشن الأرض وأخرجن أثداءً مُتهدّلة حشرنها في أفواه أطفال هزالي. وأغلقت السلطات الشوارع الرئيسيّة المؤدّية إلى مستشفى جوبا، ما أجبر رجال الإسعاف على حمل عَشْرٍ من ضحايا

وباء الكوليرا على أكتافهم، ورمّوهم داخل المستشفى من فوق السور الحديديّ، وهم ملطّخون بسوائل بطونهم الملتصقة بظهورهم. وأغلق التجّار محلاتهم بأعمدة حديدية صلبة وضعت على أبوابها في شكل حرف X، ومغاليق كبيرة تُصدر صفيراً تأمينياً مرعباً. وعلى الرّغم من أنّ فكرة منبه القفل كانت شبه حديثة بالنسبة إلى التجار الذين استنكفوا عن استخدام حراسهم الليليّين، فإنّها خيّبت ظنونهم بعد أربع وعشرين ساعة فقط، حين جاؤوا في صبيحة أحد الأيام ليجدوا أبواب ثلاث بقلات داخل السوق قد خلعت خلعاً، فسقطت معها أعمدة الإسمنت المحاذية للأبواب، كأنّها عصف بها ضغط انفجارٍ ضخّم من الداخل: لقد حلّو الأقفال بهاء النّار، وخلعوا الأبواب سحباً بسيّاراتهم، قال حارس ليليّ كان محتبئاً ينظر إلى اللصوص.

تشبّث أفواه الأطفال، وأبت أن تغادر أثداء أمّهاتهم على ما كانوا يتدوّقون من ملوحة العرق الممزوج باللبن، وعندما خلت الشوارع من السيّارات بعد أن عادت أو غيّرت مساراتها، وسائقوها يسبّون أمّهات المسؤولين، جاءت السلطات ونصبت على عجلٍ، خيمة كبيرة بيضاء ومغبرة، يكاد شكلها القديم المتجعّد يبوّح بسرّ المقاتل الذي لم يستوردها من الخارج كما أعلم السلطات في خطابٍ رسميّ. نُصبت الخيمة، وجلس أعضاء الهيئة القضائيّة العليا، تجشّأ بعضهم من دواخلهم روائح رفضٍ قمينة لما يجري أمامهم، لكن لم يكن بأيديهم خيار سوى قبول الحوافز التي وعدت الحكومة بدفعها لهم عند تطبيق أحكام الدستور القاضية بإعدام أشباه الزعيم.

وأمام تلك الهيئة القضائيّة العليا، جيء بمن يشبهون الزعيم وتمّ

إعدامهم جميعاً أمام محكمة كنغرية، على مرأى من الجميع حتى يكونوا عبرة لكل امرئ أبت نفسه إلا أن تقهر الموت. وقد ترأس هذه اللجنة الشبيهة بكتيبة إعدام أحد تلاميذ الزعيم الموالين له منذ أمدٍ بعيد.

قلّة مَن كانوا يشبهون الزعيم أفلتوا بجلودهم من تلك الإعدامات التعسفية، وذلك بالتسلّل إلى دول الجوار. وقد عاد معظمهم إلى الوطن حين نجحوا في إجراء عمليّات زرع الشعر وتغيير ملامح الوجه، معرّضين بذلك حيواتهم الزوجيّة إلى الدمار، بعد أن رفضتهم زوجاتهم بحجّة أنّهم مجرّد غرباء غزوا مدن الجنوب وقراها بُغية الزواج من نساءها، ليحصلوا بذلك على جنسيّة دولة جنوب السودان. أمّا الذين هربوا إلى دولة السودان الأمّ فقد شوّه أغلبيهم، حسب رواية موثقة من رئاسة الجمهوريّة هناك ومن سفارة دولة جنوب السودان، يستخرجون أرقاماً وطنيّة تُثبت تبعيّتهم لمنطقة أبيي.

وفي خضمّ حملات الاعتقالات والإعدامات الجماعيّة تلك، أزهِقَت أرواح مئات الآلاف مَن جعلهم نحس حظوظهم السيّئة ضحايا، ليس لجُرم ارتكبه، بل لمجرّد أنّهم كانوا يشبهون الزعيم المنتصر على طبيعة الأشياء. ولما أخفق البرلمان الأغسطيني في إخماد ثورة شيطان الخوف الجاثم بقوة على صدر كلّ عضو، اقترح عضو برلمانيّ أغرّ مشروع قانون يقضي بمحاكمة كلّ من يُشيع في الناس خبر ظهور الزعيم: السجن خمسون عاماً لكلّ من يقول إنّ الزعيم انتصر على الأموات، والإعدام رمياً بالرصاص لكلّ من قال إنّّه رآه! وهكذا، وفي جلسةٍ لم تدمْ عشر دقائق، ودون عناء كبير، أجاز البرلمان القوميّ مشروع القانون الجديد.

في تلك الأمسية، وعندما كان كل شيء هادئاً في القصر الرئاسي، ونسائم الليل تداعب أوراق شجر المانجو وتُصدر حفيفاً خافتاً، كان السيّد الرئيس -وقد اطمأنّ على مشروع قرار البرلمان الجديد، وآثر ألاّ يتناول طعام العشاء مع عقيلته، واعتذر بأدب جمّ- يُدرك، بحدس الشخص الغريب القابع في نفسه، أنّ مثل هذا الهدوء يحمل في طيّاته عاصفةً هوجاء لا يعرف من أيّ اتجاهٍ ستُهبّ.

-والله يا سوزي، أشعر أنّي فقدتُ شهيتي منذ ذلك اليوم!، قال الرئيس.

لقد كان سيّد البلاد الأوّل، في حقيقة الأمر، قد امتنع عن الطعام وشرب الماء منذ أن وقع على مسمعه مشروع محو الأميّة الذي سيطبّقه الزعيم على كلّ أعضاء الحكومة دون استثناء، خاصّةً عندما رأى حبال المشنقة ملتفةً حول رقاب أشباه الزعيم، على الرّغم من أنّه كان يوزّع ابتساماته على الجميع، كي لا ينكشف ما يشعر به من تأنيب ضميره. وقد ظلّت الوجوه المتدلّية من الحبال، تلك التي حاولت أن تتشبّث بالحياة حتّى الرّمق الأخير، منطبعةً في ذاكرته.

اختلط كلّ شيء في عقل السيّد الرئيس، فأمسى لا يميّز بين ما رآه وسمعه؛ أهو حلم أم واقع! وأضحى الأمر لديه معقّداً إلى درجة أنّ

الحرس الليلي لمبنى الرئاسة رأوه، أكثر من مرّة، يأتي عند منتصف الليل في موكب رئاسيٍّ مكوّن من سيّارةٍ واحدة، ويأمرهم بتشغيل مولّدات الكهرباء، لأنّ موعد الجلسة الختاميّة لإجازة مشروع قانون إعدام كلّ من يشبه الزعيم، قد حان، ولأنّ الأعضاء البرلمانيّين ما هم سوى بشر حريصين على رواتبهم وحوافزهم، ولأنّ من واجبه إرغامهم على إقامة الجلسة في هذه الساعة من هذا اليوم الأخير، في الشهر الأخير، إذ يكون البرلمان متكملًا عن بكرة أبيه.

هكذا، انقلبت حياته رأسًا على عقب، وأصبح هائنًا على وجهه، لا يلقي بالاً لشؤون البلاد. كلّ ما كان يدور في رأسه ويغلي كالسوائل البركانيّة الساخنة هو إرساله إلى تلك المدارس النائية لتعلّم القراءة والكتابة، لاسيّما أنّ من يتعثّر في تعلّم الحروف في سنة واحدة سوف يفصل من الحكومة ويمنح معاشًا، ثمّ يغادر عالم السياسة نهائيًّا.

-وربّ هذا الكون، وعلى جثتي أن أكون طالبًا في تلك المدرسة!

صرخ السيّد الرئيس في وجه السيّدة الأولى الجالسة أمامه، على مائدة طعام الغداء، وهو يرى الزعيم، بصلعته اللامعة يخاطبهم في البرلمان الأغسطسيّ، حائًا إيّاهم على بذل الكثير من الجهد في المهمّة الوطنيّة التي أوكلها إليهم، مهمّة محو أميّتهم، فقد أزكمت رائحتها القدرة أنف الزعيم، وهو مضطجع في قبره، فعطس ثلاث عطسات قبل أن يراه الرقيب أجاثق جالسًا القرفصاء فوق ضريحه الذي لمع ببريق رعدٍ كاد يشقّ المدينة إلى نصفين، ثمّ طرح الزعيم نفسه، أرضًا!

رأى الرئيس نفسه برفقة أعضاء حكومته، على متن تلك الباصات

اليوغندية القديمة، المتهاكة، مخلوعة النواذ كأثها صُنعت من خردة. وكانت تلك الباصات العشرة، تشقّ عباب قرى الجنوب، ذاهبةً إلى مدرسةٍ شُيّدت وسط دغل كثيف، بعيدة عن الشوارع الرئيسيّة، على بُعد خمسةة كيلومتر من أقرب مدينة، مدرسة صُمّمت خصيصًا لمحو أميّة الحكومة.

ستّ سنوات قضاهها السيّد الرئيس وحكومته التي دخلت في إجازة مفتوحة وسط تلك الأحراش، لا يسمعون إلّا حفيف أوراق الشجر وأصوات الوحوش الضارية التي تقترب من المدرسة كلّما انزوت الشمس في المغيب. ستّ سنوات قضاهها لم يتعلّم فيها إلّا الحروف الثلاثة الأولى. وبعدها، أبى عقله الذي أغلق كلّ نواذ الفهم والاستيعاب، وأوصد أبوابه بمزايج غباء صدئة، معلنةً بذلك أنّ سيّد البلاد الأوّل- السياسيّ الفذّ، المحارب المغوار الذي قاتل وناضل ضدّ أنظمة الاضطهاد والقهر ولم ينتصر في أيّ معركة، المقاتل الذي يعرف كلّ شجرة صغيرة وكبيرة من أشجار غابات الجنوب الكثيفة- قد هوى على وجهه، وفشل فشلا ذريعًا في محاربة أُمّيته المزمّنة.

وعندما أعلن معلّم محو الأميّة عن النتائج النهائيّة في الفصل السادس، كان السيّد الأوّل قد بلغ المدينة هاربًا.

وفي مساء اليوم الذي سبق تلك الساعة الكارثيّة التي ستحدث عنها المدينة لعشرين عامًا قادمًا، رأى الجميع السيّد الرئيس يرتدي بزّة عسكريّة وعلى كتفه علامات رُتبة عالية لم يُميّزها الناس بسهولة. فقد أخذت حُلّة الليل تزحف ببطء على المدينة، فظنّ الناس أنّ الرئيس يتفقد قوّاته المنتشرة في أنحاء المدينة. كان شعره أشعث ولحيته كثّة

كأنه متسوّل، يمشي على غير هُدى وحرّاسه يقتفون أثره ويتبعونه عن بُعدٍ. لكنّه اختفى فجأةً عن أعينهم. وحسب شهادة بعض الناس، فقد قيل إنّهُ شوهد بتلك البزّة العسكرية الملهله نفسها، وهو يدخل أحد بيوت الداعرات بالقرب من سوق كاستوم، وهي سوق تُقذف فيها يوميّاً تلك السوائل الحيّاتيّة بكميّات كبيرة، وعنها قال خبير صحيّ إنّ الكمّيّات المقدوفة طوعاً في تلك البيوت من السوائل البيضاء، قد تصل إلى خمسمائة برميل في العام الواحد.

روى ذلك الزائر أنّه رأى السيّد الرئيس بابتسامة وجهه المتنفخ التي كان يظهر بها دوماً في التلفزيون القوميّ، ونظّارته الشمسيّة التي يقرأ بها قراراتٍ له فاقت في عددها ما تُصدره الأمم المتحدة سنويّاً. شوهد وهو يتسلّل إلى غرفةٍ صغيرةٍ مصنوعة من التوتياء الصدئة ليفعلها مع عاهرة أجنبيّة دون أن يستخدم واقياً ذكريّاً. كانت تلك صدمةً عنيفةً بالنسبة إلى الراوي، فكذب نفسه أوّل الأمر في أن يكون رآه بأمّ عينيه، ولكنّ تلك الصبيّة أقسمت له ودعمت قسمها بصور سيلفي أخذتها معه في أوقاتٍ مختلفة وأوضاع غريبة جعلتها يشبهان كلبين في فصل الشتاء! كان الراوي على وشك أن يقذف قبله الأخيرة حين سمع ذلك الصوت، فتوقّف فجأةً. نهض من فوق الصبيّة ومشى على أمشاطه، سمعه يجادل صبيّة يبدو أنّها من دولة السودان. اقشعرّ بدنه، وارتدى بنطاله وجلس على طرف السرير حاملاً رأسه بين يديه وهو يفكّر في صاحب ذلك الصوت الجمهوريّ الذي لم يُمكن ليُخطئه أبداً: رئيس البلاد نفسه!

هكذا وفي اليوم التالي، وقبل أن يتسرّب نبأ زيارة الرئيس ذلك المنزل السيّئ وممارسته الحبّ مع إحدى بائعات الهوى، لم يصدّق

الحُرَّاس المِرابَطون في الضريح ما رأوه عند الساعة السادسة صباحًا، وهم يحاولون رفع علم الدولة ليرْفَرَفَ عاليًا، مُعلنًا أنَّ الدولة التي وُلِدَت من رحم المعاناة، ما تزال حيَّة تُرزق. ولكنَّهم، بعد أن أدَّوا التحيَّة احترامًا لذلك العلم، والمدينة ما تزال مُغطَّاةً بظلال باهتة من بقيَّة سواد الليل الممزوج ببياض الفجر، لمحوا الرئيس يمارس الحبَّ مع أجنبيَّة أخرى، في غرفة قدرة مصنوعة من بقايا الجِوالات المثقوبة، والمسقوفة بقطع كرتونيَّة تقي ممارسي الحبَّ من المطر ولهيب الشمس. أدرك الرئيس أنَّ تلك الفرس التي يمتطيها، ماهي إلا فتاة جاءت من دولةٍ كنَّا جزءًا منها. فما كان منه إلا أن ضغط عليها كأنه ينتقم، يعلو ويهبط، صارخًا فيها، وسائلًا إيَّاها أن تعترف بأنَّ أبيي جنوبيَّة مائة في المائة! فما كان منها إلا أن صاحت، كأنما انغرس في مؤخرتها خنجر، وقد ابتلَّت الوسادة البنية بدموعٍ حارَّة ذرفتُها وهي تعاني تحت جثَّته التي كادت تكتم أنفاسها: أبيي جنوبيَّة مائة في المائة! والله حتَّى الخرطوم ذاتها، جنوبيَّة!

في تلك الهنيهة، عندما أخذ العسكريون العلم عاليًا أمام الضريح، عند السادسة صباحًا، رأوا منظرًا غريبًا شلَّ تفكيرهم وجعلهم يُرخون الحبل، ويحملقون، معلقين في فضاء فسيح من الدهشة، غير مصدِّقين أنَّ الذي يرونه بعيونهم التي اتَّسعت بفعل الاستغراب هو نفسه الشخص المتحكِّم في مقابض الدولة، منطلقًا، ببزَّته العسكرية، وراء فتاة، عارية إلا من خرقة أحاطت بها وسطَّها، صارخة كأنَّ كلبَ صيْدٍ شرَّسًا يطاردها وهي تصرخ، قائلة:

-أبيي جنوبيَّة مائة في المائة!

-يا سيدي، ماذا يحدث هناك؟

ألقى العسكري الذي كان بصدد رفع العلم عند السادسة صباحاً، هذا السؤال في وجه السيّد الرئيس المُبتلّ عرفاً، الراكض كالنمر وراء فريسته الهاربة. فتوقّف عن مطاردة تلك الفتاة التي اختبأت وراء أحد الجنود مرتعشة، مرتعبة. والتفت وراءه فرأى أكواخ الزنك والصفائح صامتة، وأمامها وقفت فتيات الهوى وأيديهنّ في خصورهنّ يثرثن بلغات أجنبيّة مختلفة. إذّاك، أحسّ السيّد الرئيس بموجة خجل باردة تلسع ضميره وهو يحاول أن يستوعب ما حدث. فنادى عسكرياً كان يقف مشدوهاً، وأدخل يده في جيبه وأخرج رزمة أوراق نقدية، وحشرها في جيب الجنديّ فابتسم كالمتعوه.

عاد السيّد الرئيس أدراجه متسلّلاً بين الوزارات، وهو مكسور الفؤاد ملطّخٌ بوحل الخزي، فرآه الحرس وظنّوه ضابطاً جاء يتفقّدهم، وسرعان ما مضى إلى حال سبيله دون أن يردّ تحيتهم العسكرية.

عبر الباب الخلفيّ لقصره، فوجد جنود حراسته يشخرون شخير سُكّرٍ فاحش، فتسلّل إلى الداخل، وارتقى على كرسيّ كبير ولم يستفق إلّا عند السادسة مساءً، وبجانبه السيّدة الأولى سوزي، جالسة، واضعة يدها على خدّها، تُحَمِّلق فيه بذهولٍ غريب.

كان شارع الإسفلت المارّ خلف مبنى الرئاسة، المغسول برذاذ مطر الأمس يلمع كمرآة تعكس صورة كلّ جسمٍ يمرّ بها. وكان السلاطين الخمسة عشر الذين استضافهم السيّد الرئيس في مكتبه الآن أكثرَ مَنْ ترصّد ذلك الأمر الغريب، فقد شاهدوه لأوّل مرّة في حياتهم البعيدة عن المدينة.

استقبلهم الرئيس وثرغره مُضيءً بابتسامة سياسيّة مصطنعة. وقرّص السلاطين في المقاعد الجلديّة وبدأت أعناقهم مُخْتَفِية كأَنّهم غاطسون في أحواض سباحة. وكانت همهمات السيّد الرئيس بلا سبب تُثير قلقهم الذي تبدّد حين دقّت الساعة الكبيرة تشير إلى التاسعة صباحاً، ورنّ هاتف السيّد الرئيس رنيناً موسيقياً خافتاً، رفعه وألصقه برفقٍ في أذنه. اعتدل في جلسته ووضع مرفقيه على الطاولة واتّسعت عيناه. وفجأةً، انتفض وهبّ واقفاً، فنهض معه كبير السلاطين والآخرين احتراماً، لكنّه أوماً إليهم بأن يجلسوا.

كان يتحدّث معه بصوتٍ عالٍ، وكان السلاطين لا يرون غير شفّتيه وهما ترتعشان.

-ماذا حدث في كوبويتا، يا سيّد الرئيس؟، سأل المتّصل.

-كلّو تمام، سيّدي الكريم، الأمن مستتبّ، ردّ الرئيس.

تصادمت نظرات السلاطين فيما بينها، وأعينهم تتساءل عن الشخص الذي يناديه الرئيس بـ «سيدي الكريم» طالما أن الواقف أمامهم هو السيّد الذي يأتي بعد الربّ في هذه البلاد. كان ذلك هو كلّ ما سمعه السلاطين. أمّا ما دار بعده بين المتّصل والرئيس فقد كان بلغةٍ استعصى على السلاطين فهمها!

- سيدي الرئيس، لقد أصبحنا أضحوكةً عند الجميع حتّى الموتى منهم، لذا لم أعد أحتمل الموت، بادر المتّصل بالحديث قائلاً. كنت وأنا حيّ، إذا استعصى عليّ أمر، أقول الموت أرحم. بيد أنّي اكتشفت عند موتي، أنّ الحياة وأنت ميّت، مثلك، أرحم وأنفع من الموت وأنت ميّت وتتعذّب بموت الأحياء أمثالكم. والأسوأ من ذلك كلّهُ عندما تكون ميّتاً وأنت حيّ في آنٍ واحد فلا تعرف هل أنت ميّت أم حيّ. والموت، بهذا الفهم، قد يكون أرحم بكثير! فأنت تعرف على الأقلّ، الحالة التي أنت فيها.

الرئيس في دولةٍ ما ليس سوى إله ينصبّه الناس ليكون مسؤولاً عنهم. أنت إله، سيدي الرئيس، ومسؤوليّة كلّ روح، وكلّ نفسٍ تمشي على هذه الأرض هي أمانةٌ في عنقك. سكت المتّصل برهةً.

شهق الرئيس طويلاً وأطلق زفرةً أخافت السلاطين، وظلّ واقفاً لم ينبس ببنت شفة. وعلى الرغم من أنّ مكيف الهواء الضخم المثبّت على بعد أمتارٍ من منضدته كان يرسل هواءً بدرجة حرارة الجليد سال

لبرودته أنفٌ كبير السلاطين فتطاير نثار مخاطه، كان السيّد الرئيس يتصبّب عرقاً، والهاتف الذهبيّ ملتصق بأذنه، وهو يردّ بين الفينة والأخرى: حاضر، سيّدي الزعيم.

لم يكن المتّصل ليهتمّ بكلمات التقريظ والتبجيل التي كان السيّد الرئيس يقحمها عندما يضطرّ هو إلى أن يلتقط أنفاسه. فقد كان متأثراً وقد خال السيّد الرئيس الذي ترقرت عيناه بدموع الحزن، أن جسده لا بدّ أن يكون قد انكمش فصار طفلاً، منبّها السيّد الرئيس إلى أن يصغي جيّداً لما سيقوله:

-أعرف أنّكم أرسلتم مجموعة من الأطفال للقيام بذلك في كوبويتا، كما كان المهلوسون يبعثون بأطفالهم إلى ميادين الحرب في الجنوب ليدخلوا الجنّة. أنت مثلهم! هم استغلّوا الأطفال ليموتوا هنا، وأنت استخدمت أطفالك لقتل أطفالك، هنا أيضاً. أعلم أنّك لا تفهم ما أقوله، كدأبك دوماً، ولكنني هكذا وأنت هكذا: لا يمكنني أن أعلم كلّاً عجزاً فنون الصيد. لا شكّ أنّك ترى هؤلاء الموتى ليسوا أطفالكم. ولكن أأنت أنت الإله المسؤول عن كلّ نفسٍ تمشي على هذه البسيطة؟ أنت، بطبيعة الحال، المسؤول الأوّل والأخير..

-أطفال يرتدون بناطيل جينز رتّة وفنيالات صفراء مكتوب عليها بالإنجليزيّة «التطعيم ضدّ الحصباء» ويحملون على ظهورهم المقوّسة حقائب صفراء كانوا، بوجوههم الباهتة من الجوع والتعب، يؤدّون عملهم بصرامة وجدّة مبالغ

فيها، أحياناً. يبدو أنّ الشمس، في شرق المنطقة الاستوائية هذا العام كريمة، وهي تلسع رؤوسهم المغبرة وهم يحقنون صغار الأطفال بإبر صغيرة لم تجفّ منها دماء آخرين ثمّ تطعيمهم للتوّ. إنّكم تنقذون إخوانكم، قالها مسؤول وهو يوزع عليهم المصل والحقن التي لم تكن كافية. شعروا بأنهم سينقذونهم، بالفعل، من مرض الحصباء الذي حصده منهم أرواحاً قبل عام. لقد فقدت أخي العام الماضي، لا أريد أن أفقد أخاً آخر، قالها طفل ألقى بالحقية الصفراء على ظهره الأعجف واستعدّ لأداء مهامه. لقد كان محقّقاً. كان جسد أخيه مشتعلًا ناراً كادت تحرقه عندما وضع يده على رأسه. وكانت أمّه تحمله وهي تبكي في صمتٍ لا تعرف ما يجب فعله. أبى الطفل شرب الماء واللبن والأكل، فقد كان حلقه يؤلمه جدًّا. وانتشرت في جلده طفوح حمراء شبيهة بجمراتٍ صغيرة والألم يعتصره. وعند المغيب، حين نعب بوئمً بالقرب من سقف الكوخ حيث ينام الطفل المعتلّ، كان الصغير قد غادر القرية، بل غادر الحياة.

كان الطفل، وحقّيته الصفراء على ظهره وهو يخطو خطواتٍ حماسيّة يحقن أجساد الأطفال بمصل الحصباء، يتذكّر كيف افتقد أخاه في العام المنصرم. وكان الحماس بامتلاك شيءٍ ما للتسلية هو الشعور الذي طغى عليهم وهم يحقنون أبدان إخوانهم. كانت الصرخات التي يطلقها الأطفال مسلّيةً إلى درجة أنّ أحدهم قال للآخر لو أنّه خيّر بين أن يُطعم أطفال العالم كلّهُ أو يعود إلى المنزل الآن كي يرتاح من سخونة شمس الصيف هذه، لا اختار الأول.

لم تكن تلك اللعبة مسليّة للغاية، لأنّ العبرة بالخواتيم سيّدي.
وخواتيم هذه التسلية كانت كارثة إنسانيّة تتحمّلها أنت الرئيس!
فمن أحد أكواخ القرية، شقّت الصرخة الأولى عنان السماء بينما
كان أطفال التطعيم جالسين تحت شجرة ظليلة يقضمون فئات
عيش يوم أمس، فالتفوا جميعهم: كصاروخ لا يخطئ هدفه،
أقدمت سيّدة تحمل طفلتها في يدها، وكانت تنشج وتألّم وتبكي
ووضعتها في وسط دائرة أطفال التطعيم، فأسلمت الروح.
انتفض أطفال التطعيم وولّوا الأدبار تاركين حقائب حفظ الحياة
التي سوف تتحوّل إلى حقائب موت، وستتحوّل بعد هنيهة إلى
كومة من النار يتصاعد منها دخان. عشرات النسوة أقبلن وهنّ
يحملن جثامين أطفالهنّ الذين كانوا، إلى ساعةٍ قريبة، يركضون
ويلعبون ويضحكون ثمّ ينامون في أحضان أمهاتهم غير عابئين
بالقدر الذي يربّص بهم، خلست، في شكل إكسير للحياة، وما
هو في الحقيقة سوى إكسير للموت. لقد تحوّل إكسير حياتكم
هذا إلى سمّ زعاف ينخر بمخالب من حديدٍ قلب خمسة عشر
طفلاً يا سيّدي الرئيس. خمسة عشر طفلاً يا سيّدي الرئيس!

أحسّ السيّد الرئيس بالجملة الأخيرة التي نطقها المتّصل كدبابيس
صغيرة تحزّ طبلّة أذنه. لم يتحرّك وبقي على حاله، واقفاً ساعاتٍ، رغم
دقّات ساعته الجداريّة المستمرّة. وكان السلاطين غارقين في حيرتهم غير
مدركين هويّة المتّصل الغامضة إذ جعلت الرئيس في وضع لا يُحسد عليه
وهم قاعدون كأصنام خُلِقَتْ لتقبع هناك، محاولين حلّ طلاسم حديثٍ
ملغزٍ لم يسمّعوا منه سوى: حاضر أيّها الزعيم.. كلّو تمام سيّدي الزعيم.

كان عقل السيّد الرئيس يدور كعاصفة ترابيّة عاجزاً عن الردّ على المكالمات الواردة على هاتفه الذكيّ دون توقّف.

بلغت اتصالات السيّدة الأولى - ولم يكن ردّ عليها، وهو شيء غير طبيعيّ على الإطلاق - مائة وستين اتصالاً دون ردّ، بحسب تقارير شركة الاتّصالات التي حاولت، بعد الحادثة الشهيرة، وبعد أن راجعوا كلّ المكالمات الصادرة والواردة لمعرفة هويّة المتّصل الذي جعل السيّد الرئيس يقف ساعات أدّت إلى تورّم كاحليّهِ كأنّه امرأة حامل تعاني من أعراض الزلال، غير عابئ بمواعيد جلسة مجلس الوزراء المنعقدة، ومتجاهلاً اتصالات عقيلته التي أصبحت معلّقة في مشنقة القلق، فأخذت تلعن اليوم الذي تعرّفت فيه عليه وقبلت أن يكون مصيرها وحياتها مرتبطين به.

وعندما رمت سوزي الهاتف بعنفٍ، عقب الاتصال الستين بعد المائة، صاح السيّد الرئيس في تلك اللحظة: حاضر يا زعيم! ثمّ هوى على كرسيّهِ بقوة فتمزّق جلده الطبيعيّ الأسود، حين أشارت عقارب الساعة الجداريّة إلى السادسة مساءً، وتهشّم الكرسيّ محدثاً رجّة عنيفة انفطرت لها قلوب السلاطين فهرعوا إلى نجدته، فألفوه مبلّلاً مُدّساً بتنانة مادّة لا تطاق، وأطلقوا صرخة رجلٍ واحد، صرخة قال جنود الحياة البريّة إنّها شبيهة بنهيم فيلٍ مطعون في خرطومه من مسافة قريبة! الآن، فقط، علم السلاطين أنّ محدّثه هو الذي من أجله عبروا قرى نائية وخاضوا بأرجلهم في طرقاتٍ موحلة، وناموا على ضفاف مستنقعات موبوءة بالبعوض والأفاعي والوحوش الضارية، وقد بانت معاناة رحلتهم الطويلة جليّاً على كواحل أقدامهم المتورّمة ورؤوسهم

غير الحليقة التي غطّتها بُثور وأورام نتيجة لدغات خراطيم البعوض .
أمّا السؤال الملحّ الذي ظلّ يلازمهم ويؤرّق إيمانهم المسيحيّ القويّ منذ
اعتناقهم الكاثوليكيّة، ومنذ أن غادروا مناطقهم في وداع شعبيّ كبير،
فلم تظهر إجابته إلّا حين سقط الرئيس على كرسيّه. لقد يئسوا، تمامًا،
من إيجاد إجابة شافية من سلطات ولاياتهم والولايات التي عبروها،
لذا قرّروا أن يزوروه رسميًا، ليستفسروا منه عن تلك الشائعة، لأنّه
المسؤول الأوّل والأخير عن دحضها، بل لأنّهم كانوا قد سمعوا أنّ
الزعيم صرّح، في قيامته المثيرة للجدل، بأنّه يريد بعث السيّد الرئيس
نفسه وكلّ أعضاء الحكومة والبرلمانيين إلى دوائرهم الجغرافيّة لإجراء
انتخابات جديدة، يشرف عليها المجتمع الإقليمي والدوليّ، لأنّ
الانتخابات السابقة والوحيدة منذ استقلال البلاد، كانت عبارة عن
تمرين أوّلي للتزوير. وقد تمّ بامتياز منقطع النظير.

هرع أعضاء البرلمان -وكانوا يتداولون في جلسة طارئة حول
برنامج التقشّف القوميّ لاقتطاع رواتب ثلاثة أشهر لكلّ موظفي
الدولة- خارج المبنى، حين امتدّت الهزّة العنيفة التي نتجت عن سقوط
السيّد الرئيس إلى قاعة الجلسات فسقطت معها، أوّلاً، صورة الزعيم
المعلّقة فوق المنصّة وتهشّم زجاجُها وتكسّر إطارها الذهبيّ، واختفت
نظرات عينيه المتقدّتين فطنةً، ثمّ تلاها سقوط صورة رئيس الدولة؛
فقال عضو بارز كان قد حرّك البرلمان لمناقشة أمر برنامج التقشّف الذي
طالهم من أجل دفع الإجراءات الأمنية في البحث عن الزعيم إلى أقصى
مدى ممكن: ها هو الزعيم والرئيس غير راضيين باقتطاعاتك المُجحفّة،
يا وزير الماليّة!

هزّة ضربت أرجاء البرلمان وأركانها جميعاً فتشوّقت الحيطان وهوت الأسقف التي لم تُتعهد بالصيانة منذ سبعينيات القرن الماضي، وانفجرت الأنابيب الصدئة وغمرت المياه المخلوطة بقاذورات البالوعات صالة الجلسات فتحوّلت إلى حوض سباحة واسع تطفو عليه مستندات مشروع قانون برنامج التقشّف القومي. وشاهد رئيس اللجنة الاقتصادية الذي كان يقضي حاجته الطبيعيّة في المراض الوحيد حين وقع الزلزال، صورة الزعيم سباحةً، ثمّ اتكأت على نافذة صغيرة ضيّقة بالقرب من الجزء الذي لم يسقط سقفه، وأخذت تُحدّق فيه بعينين حمراوين، ساخطتين، فانتفض واقفاً -وسرواله الأبيض المسودّ متدلّ تحت ركبتيه- وحيّاً الزعيم الذي تركه، وسبح خارجاً كحوت يحتضر.

أمّا بقيّة الأعضاء، فقد التبس عليهم الأمر وتوهّموا أنّ زلزالاً عنيفاً ضرب العاصمة فركضوا لاهثين خارج المبنى. ويا لدهشتهم حين وجدوا الحياة في الشوارع تسير بصورة طبيعيّة وكان الضريح، هناك، داخل السور وحوله الحُجّاج المحيطون به في صمتٍ. لا بدّ أنّ أحد عسكري الضريح قد انتهى، غير مهتمّ بالحشد الكبير، من غسل ملابسه فأخذ ينشرها فوق السور الحديديّ. وكان جنديّ آخر يطهو شيئاً ما على نارٍ تصاعدت أدخنتها عاليّاً كأنّ حريقاً شبّ في قبر الزعيم.

وقف البرلمانيّون في الشارع يشاهدون المياه الجارفة تلخع النوافذ. وتبلّدت مشاعرهم عندما رأوا جثةً منتفخةً طافية فوق الماء، وهي تضرب برجليها ويديها كغريق يتشبّث بحبال الهواء، ولكنّهم عندما نظروا إليها مليّاً، انفجروا في ضحكة هستيريّة وهم يعصرون بطونهم،

ليس لأنَّ صاحبَ الجثة الذي عرّف نفسه بالتراب، كان لا يجيد العوم فحسب، بل لأنّه كان يسبح في الأرض اليابسة، متخيلاً أنّه ما يزال داخل حوض السباحة تحت قبة البرلمان، وليس في شارع الإسفلت الساخن. ضرب البرلمانيون أحماساً في أسداس، وما عرفوا سبب هذه الهزة التي سجّلها أقرب مركز لرصد الحركات الأرضيّة والزلازل في شرق إفريقيا، وقد قال عنها إنّها الأخفّ في العالم، ولم يعرفوا حتّى سبب حمل السيّد الرئيس في سيّارة إسعافٍ انطلقت خلف الموكب الرئاسيّ.

وصلت السيّدة الأولى على جناح السرعة ووجدته مستلقياً على السرير الأبيض، ضاغطاً بالهاتف على أذنه اليسرى ويهذي بمفردات لم يفهمها الطبيب الذي كان يقيس ضغطه. اكتفى بأن سأل السيّدة الأولى عمّا إذا كان لدى السيّد الرئيس تاريخ مع ارتفاع ضغط الدّم أو السكّريّ أو أيّ مرضٍ وراثيّ. رمقته سوزي شزراً، وأوشكت أن تتفوّه بكلّ شيء تعلمه عنه: الأدوية ذات الألوان القوس قزحيّة التي كان يمصّها قبل أن يختلي بها في أمسيات نهاية الأسبوع؛ أسنانه البيضاء المغشوشة التي فقد طاقمها الأسفل يوم رمت الخادمة في زبالة القصر. تاقّت إلى أن تفشي بما في جعبتها للطبيب كي يتنّسم صدرها المحتقن هواءً نقيّاً منعشاً. كان الطبيب يخربش على ورقةٍ مستطيلة بيضاء، وعلى صدره تتأرجح سماعة صدئة، فلم توله سوزي اهتماماً، بل اكتفت بأن صعقته بنظرةٍ حادّة، مُترّعة بشكاوى وظنون تصبو إلى أن تبوح بها لشخصٍ ما. فطّن الطبيب الذي توسّم فيها خيراً بأن لا فائدة تُرجى من عيّنين تصوّتان علناً: طُز فيك!، فحاطبها بأدب كبير قائلاً: السيّد الرئيس لا يحتاج إلى غير الرّاحة.

حاول الطبيب أن يأخذ الهاتف منه فرفض وهو يصرخ كطفل يتشبَّث بحلوى. وما إن مدَّت سوزي يدها حتَّى أعطاه إياه دون مقاومة، فوجدت الهاتف ساخناً كجمرة تصلح لشواء فراخ برازيلية في غصون دقائق. وفتشت في الاتصالات الواردة فلم تر سوى اتصالاتها المائة والستين التي لم يردَّ عليها.

كانت عيناه تمهلقتان وتبحران حول شيء ما في سقف غرفة الطوارئ المزين بخيوط العنكبوت، وهو ممدد بقميص أصفر مبتل برغوة لعابٍ ودموعٍ ومخاطٍ وربطة عنقٍ حمراء تدلَّت كسعف نخيل جاف، يصهل بالكلمات نفسها التي كان يرددها منذ الساعة التاسعة صباحاً: حاضر يا زعيم، حاضر يا زعيم! سألت سوزي الطبيب عن مغزى هذه الكلمات فغصَّ الطرف عنها، وتناول دفترًا كان معلقاً على رجل سرير المريض، ومضى يرسم بخطه الرديء كلمات كأنها غرافيتي هيلوغرافي على جدار معبد أثري. كان لا بدَّ له أن يدَّعي أنه لم يسمع ما كان يقوله مريضه الاستثنائي: السيّد الرئيس! فالتعليمات التي استلمها حتَّى قبل أن تصل سيارة الإسعاف، ومن قبلها عربية نجدة الموكب الرئاسيَّ المسبوقة بصافرة إنذارٍ، كانت مكتوبةً بإيجازٍ وصرامةٍ وحروفٍ واضحةٍ لا يمكن تأويلها، تماماً كما قرأها على صفحات الصحف وسمعها في نشرات الأخبار الإذاعيَّة والتلفزيونيَّة على رأس كلِّ ساعة: أن يمسح كلُّ مواطن في هذه الدولة كلمة «الزعيم» من قاموس ذاكرته!

لذا كان من الاستحالة بمكان القول إنَّ السيّد الرئيس كان يتفوّه بتلك الكلمة التي حرّمها على كلِّ مواطنٍ في محيط دائرة دولته، رغم أنَّ

التفسير المنطقي لهذا القرار، دون اللجوء إلى أي تفسير من التفسيرات القانونية الدستورية، هو أنّ سيّد البلاد وإله العباد لا يمكن اعتباره مواطناً كأَيِّ مواطنٍ يمشي مثل بقية البشر على الأرض، بل هو مواطن ذو امتياز خاص، وقانون خاص، وربما دستور خاص يجعله يفعل ما يريد، ويقول ما يريد، ويصمت عمّا يريد وما لا يريد دون العمل بأحكام الدستور. فالدستور والقانون هنا، في مثل هذه البلاد، لا ينطبق سوى على الأغبياء والأغبياء الأرفع درجة؛ باستثناء إنسان واحد فقط، وهو السيّد الرئيس صانع الدستور الذي يمكنه، هو فقط، أن يعمل به أو ألا يعمل به في أغلب الأحيان.

جلست السيّدة الأولى مبتسمةً على طرف سرير السيّد الرئيس. ولأوّل مرّة، منذ زواجهما الطويل، وعلى الرغم من أنّه كان يعزف موسيقى شخير الخنزيريّ المألوفة، وهي موسيقى أرغمت مرضى مستشفى جوبا التعليمي، الآن، على ترك أسرتهم واختلاس النظرات كي يروا شكل هذا الإنسان الذي يُثير ضجيجاً كما لو أنّ له خرطوم فيل في مؤخرة حلقه، لأوّل مرة تكتشف أنّ في ذبذبات شخير، براءة جميلة تتخلّل الموسيقى المملّة التي كانت تمقتها، براءة جعلتها -دون مبالاة بالعيون التي تنظر إلى السيّد الأوّل بشفقة- تطبع على شفثيه المتشققتين، قبلة طرية ناعمة، بطعم حبّها السرمديّ.

كان الأمر يزداد إثارةً ومتعةً بالنسبة إلى المرضى المتطفّلين المشرّئين بأعناقهم أكثر ممّا كان مُقلّقاً لسوزي وطاقم الحراسة، وهو ما جعل عمّال غسل الموتى يكفّنون أطفالاً جيء بهم ليلة أمس ملوثين بدماء أهدرها ما يسمّى «قاتل مجهول» دون أن يكلفوا أنفسهم عناء الغسيل،

وهم يصغون بذهولٍ إلى صوت السيّد الرئيس الذي تحوّل من شخيرٍ إلى تُغَاءٍ ونهيقٍ، ثمّ إلى حشرجةٍ فالإلى عزفٍ جنائزيٍّ في النهاية - كما صنّفه عازف موسيقى كلاسيكيّة مريض وفق نوتة موسيقيّة اجترحها داخل العنبر - جعل غاسل الموتى الواقف أمام المشرحة، يقول وهو يمسح العرق بمنديلٍ مصنوع من كفنٍ لميّتٍ، إنّهُ عندما يتغنّى سيّد البلاد بمثل هذا الحزن، فلا بدّ أنّ يوم القيامة قد دنا!

قالت السيّدة الأولى، بعد عشر سنواتٍ من جلوسها بالقرب منه، إنّها تشعر، لأوّل مرّة، بعطفٍ وحنوّ نحوه، وإنّ وجهه، وهو يشخر، كان كوجه طفلٍ بفمٍ لم تنبت أسنانه بعد، وإنّ شفّته السفلى كانت مُغريةً إلى درجة أنّ رغبة جامحة في تقبيل تلك الشفة مرّات متتالية قد سيطرت عليها وأوشكت أن تفقد وعيها، لولا الطبيب النوبتجي إذ جاء وطرّد المتطفّلين من المرضى، بينما أخذ البعض يخلّس صور سلفي، تُظهر فمه المفتوح ولهاته المرتجفة الدائرة حول نفسها كمروحة سقف.

كان قدره منقوشاً بحروف غير مرئيّة في حوافّ رموش عينيهِ المغمضتين. وقد خُيّل لسوزي، حين تطلّعت إليه وهو نائم، أنّ القدر سوف يعلن عن نفسه الآن، وأكثر من أيّ وقتٍ مضى، بطريقةٍ لا تقلّ سخريةً عمّن كانوا يضحكون من منظر فمه الشنيع.

رأت، السيّدة الأولى، بين تموجات دموعها النبيّ أنطوني يقف أمامها متراقصاً مشوّشاً، أطرق برأسه احتراماً لها وسلّمها بطاقة أعمال كنيسة القيامة التي أسّسها، ثمّ رسم إشارة الصليب على صدره وغادر مسرعاً، مهمهماً بكلمات لاتينيّة، كان قد سمع - عندما كان طفل المسيح في الكنيسة - القسّ الكاثوليكيّ يرّدّها أثناء الليتورجية أو طقس

القربان المقدّس. انفضّ الجميع، بما فيهم الرقيب سانتينو وقد بانت على محيّا أماره حقّد وهو يرى النبيّ أنطوني يسلم البطاقة، وتركوا غرفة المريض والمستشفى يئنّ في صمتٍ. التفتت السيّدة الأولى حولها فلم ترَ أحدًا. كانت بعض الوطاويط تصوّت وهي ترفل بأجنحتها مغادرةً سقف العنبر، ربّما للبحث عن قوت اليوم. ذرفت سوزي دمعتين يتيّمتين رأت عبرهما أشباح حرس كانوا يجلسون مخيّبي الظهور، ثمّ انحنت على السيّد الرئيس، وبشغفٍ من يفعلها للمرّة الأولى، طبعت على خدّه قُبلةً مالحة تركت أثرًا بارزًا على ثغره البارد، كعضّة كلب.

أبعدت السيِّدة الأولى عن رأسها فكرة البحث عن العلاج لزوجها داخل البلاد بعد أن شاهدت خلال تلك الليلة، شاباً عشرينياً يلفظ أنفاسه راقداً على دكة الخشب في غرفة الانتظار المسقوفة بالزنك، والتابعة لقسم الطوارئ. نشج الشاب واختنق، وسقط على وجهه مرتطماً بالبلاط بينما ظلَّ الطبيب النبوتجي واقفاً، يضع يديه في جيبي البالطو الأبيض، متفرساً في المشهد، كمن ينظر إلى لعبة أطفال لم يشاهدها في طفولته.

هزّت السيِّدة الأولى رأسها، فقالت الممرضة البدينة وهي تضعّ بالضحك إنّ السبب ببساطة هو عدم وجود الأكسجين، وإنَّ كلَّ شخص يأتي إلى هذا المبنى سيعود إلى بيته محملاً على آلة حدباء كئيبة. تبلّدت مشاعر السيِّدة الأولى، وانفجرت الممرضة ضاحكة حينما جاء العسكر بشابٍّ وألقوه -كجوال إسمنت- على أرضية غرفة الطوارئ ومضوا إلى حال سبيلهم تاركين إيّاه يتأوّه، بينما وقف طبيب بدين، يمزغ علكة بطريقة شاذّة، ويتسم بين الفينة والأخرى، فقالت البدينة: «ليس لدينا تصوير بالأشعة في المشفى! من أين تأتي له بالة تصوير؟» وضحكت مرّة أخرى كأنّ ديدنها أن تُبهر نهاية كلّ كلام بضحكة فاجرة.

علمت سوزي أنّ ما يسمّى العلاج هنا ليس سوى هراء، خاصّة عندما جيء بامرأة حامل في منتصف الليل. كانت تنزف بغزارة، ولبثت هكذا أمام مصطبة العيادة الخارجيّة إلى أن أغمضت جفניה في الساعة السادسة صباحًا دون أن يمسه أحد. وما أدهشها حدّ الألم، وهي تبحث عن حرس الرئيس الذين كانوا يجلسون تحت شجرة النيم الكبيرة، هو رؤية صبيّ يخرج من المشرحة وجفناه مُثقلان بآثار النوم. كان ذاك هو «مودي» الذي ينام في المشرحة، ويقول عنها للناس إنّها أكثر الأماكن أمانًا في الكون. وكان مودي يساعد في غسل الموتى مقابل السماح له بالنوم في المشرحة الصغيرة.

لذا، قرّرت سوزي أخذ زوجها إلى الخارج للعلاج.

كانت الطائرة التي تقلّ الرئيس المريض تُحلّق في سماء العاصمة، ذاهبة إلى دولة أجنبيّة، عندما اقتحم مدير مستشفى جوبا غرفة الرئيس ورأى ورقة معلّقة عند رأس السرير خُربِشت فيها كلمات كأنّ كاتبها كان في حالة سباق وهو يكتب: *قد ارتكمت هذه ستؤدّي بالبلاد إلى الهلاك!* صَعقت الجملة رأس المدير فأسرّ في أذنه الطبيب بأنّهم لا يملكون علاجًا لحالة الوسواس القهريّ الذي أطاح بعقل الرئيس، وأنّه من الأفضل إرساله إلى الخارج بدلًا من تركه يجابه مصيره المجهول هنا في هذه «السفينة الوسخة» مشيرًا بيده إلى المستشفى. تسرّع المدير في مكانه مصعوقًا، مرّة أخرى، وظلّ يقلّب في خيلته سفينة ضخمة تحمل وساخات العالم وهو قبطنها، تمخرع باب بحر شاسع لا نهاية له ولا قرار. لم يتوقّف السيّد الرئيس عن الثرثرة بمفرداتٍ غريبة جعلت الأطباء الأجانب يعجزون عن معرفة نوع الوسواس الذي ألمّ به.

ولم تترك سوزي مشفى أجنبيًا في الدول المجاورة إلاّ طرقت أبوابه ولكنها كانت تعود معه، وهي تربّت على كتفه وتقبّل جبينه، بخُفّي حُنين. لم يُقنعها الطبّ في دول الجوار، وبدأ خبر مرض الرئيس يتصدّر صحفها الصفراء، مرض قال عنه رئيس صحيفة صفراء اسمها «الشطة الحمراء» إنّهُ لا يمكن علاجه في المستشفيات التي تعتمد علوم الطبّ، لأنّ أعراضه الغامضة لا تحتاج سوى إلى جلسات علاج يقوم بها طبيب إفريقيّ تقليديّ. وكان رئيس التحرير أقرب إلى الحقيقة من الاستنتاج الذي توصل إليه بعض الأطباء الغربيّين وعنه قال إنّ نتائج فحوصات مختبر «اس أربعة» الألمانيّ كشفت أنّ الرئيس ليس مصابًا بأيّ شيء، وأنّ عقله أبيض تمامًا كأنّه لم يستخدمه منذ أن جاء إلى العالم قبل سبعة عقود، وهو الأمر الذي جعل المدير الطبيّ للمختبر الأكثر خطورة في الكون يعجز عن تصوّر اعتلاء مريضه قمة الهرم السلطويّ في البلاد بعقل خاو كهذا، مضيفًا أنّه في حاجة إلى راحة لا يمكن توفيرها إلاّ بالابتعاد عن السلطة!

نظرت سوزي شزّرًا إلى الطبيب الألمانيّ وهو ينطق بذلك الكلام المثير للغثيان، وتخيّلت لو أنّ هذا الطبيب الألمانيّ القصير ذا الشعر الذهبيّ والجبين القرمزيّ كان ابنها، لقرصته على جبينه بأطراف أصابعها، ورفعته إلى مستوى عينيها لتتفحّصه مليًّا قبل أن تصفّعه على خدّه اللين.

كان المطارُ خاويًا في تلك الأمسية الكئيبة، عندما تأبّطت سوزي ذراع الرئيس، وهما قادمان من رحلة العلاج البائسة. نفّر قليلٌ من الحرس الجمهوريّ، وعاملُ نظافةٍ كان يغسل المرحاض الوحيد في

المطار، وضابطُ جوازاتٍ يثاءب ويسكب الماء البارد على وجهه، وأضواء خافتة بعيدة تتلألأ على إسفلت المطار، استقبلتهما بفتورٍ شديد. كانت سوزي أكثر بؤساً من الرئيس، وحاولت أن تخفي الحالة المزرية التي بلغها بعلها، فقد كان يتسم في وجوه الحراس كمهرج في سيرك، غير عابئٍ برائحة قميصه الذي رفض أن يبدله منذ أن غادر البلاد قبل شهر.

كان القصر هادئاً والطيور المهاجرة والصقور الجارحة تلوح بأجنحتها فوق أشجار المانجو المتمايلة بنسائم الليل، والكلاب تعوى في القطيات العشوائية الكائنة خلف القصر كأنها تُرحب بعودة الرئيس. جلس على المصطبة الإسمنتية، وتنهد عميقاً وهو يرخي رجليه المرهقتين. حلَّ سيرِّي حذائه وركله بعيداً، وشرع يحكّ قشور قدميه غير مدركٍ لماذا استمتع جداً برائحة الحذاء التي جذبت فتراناً وصراصير وبعض الضفادع خرجت تقفز حوله رغم الجو الساخن المسموم. انفرجت أسارير سوزي لأنها كانت متلهفة للاستلقاء على سريرها، بيد أنها سرعان ما رسمت على وجهها أمارة صفاقة زائفة عندما أطلعتها الطباخة على أن رجال الدولة أصبحوا يعانون من حالاتٍ نفسية خطيرة.

أعلن وزير الشباب والثقافة القومي على الملا أنه أخذ يشرب «الدراي جن» صرفاً دون أن يكسره بالمياه المقوية «مياه التونيك» لمدة ستة أشهر وأخفق، تماماً، في القضاء على الكابوس، فقد ظلّ يلازمه في كلِّ الأوقات: في ساعات الثمالة وخلال فترات نوم السكر العميق ولحظات الوعي القليلة التي قلما عرفها منذ قيامة الزعيم. أعلن الوزير ذلك لأسرته على مائدة العشاء قبل خمس دقائق من ذهابه الى المرحاض

وإغلاقه الباب بقفل من الداخل. قضى حاجته الطبيعيّة بارتياح منقطع النظر، نظّف نفسه جيّدًا مستخدمًا ورقة مرحاض كاملة، وصلّى «أبانا الذي في السموات» و«السلام عليك يا مريم...» وختمها بـ«المجد للأب والابن والروح القدس...»، ثمّ وضع -بدرجة عالية من الوعي- فوهة مسدس نمساويّ على صدغه، وأطلق رصاصة واحدة أفزعت الأسرة، وخفق لها قلب زوجته فلورينا، فنهضت بسرعة، ومضت إلى مصدر الصوت فرأت مشهدًا مروّعًا. كان الوزير غابرييل هناك، جالسًا على السلطانيّة وفي يده طبنجته، ورأسه الأصلع يتدلّى على صدره. كان صدغه الأيمن ينزف دمًا، وعلى يده اليمنى ورقة صغيرة مطويّة، قال حرّاسه فيما بعد، إنّها تتضمّن كلمة واحدة، كلمة خشي الملائم أن ينطقها بصوت عال: الزعيم!

وقبل يوم من وصول الرئيس، أي قبل اليوم الذي حكّت فيه الطباخة قصّة انتحار الوزير للسيدة الأولى، أعلن وزير الثقافة في احتفال رياضيّ أنّ الأدب عمومًا والشعر والرواية بالخصوص هي من الأشياء التي تضع الكثير من الوقت لصعوبة قراءتها واستيعابها، وهي تلف عقل البشر.

أمّا وزير الصحّة الذي اختفى من العاصمة بعد صلاة يوم الأحد، فقد وجدوه راقدًا، عاريا، وسط المقابر التي دُفن فيها الأطفال الخمسة عشر ضحايا التطعيم المسموم في شرق المنطقة الاستوائية. كان جالسًا على مقبرة قديمة، أصبحت مسطّحة، وهو يبكي من آلام رأسه المبرّحة، يصرخ ويركض ثمّ يرمي نفسه ويتمرّغ في التراب ثمّ يختبئ بين القبور، ويقول إنّ هنالك خمسة عشر طفلًا يصرخون في رأسه، ويريدون الخروج إلى

العالم. لقد أصبح نحيلاً أغبش فاقداً ملامح البشر، وتحول إلى شيء يشبه كائناً ميتافيزيقياً. في اليوم السابع، وجدوه وقد حفر لنفسه قبراً ورقد فيه وبجانبه خمس عشرة حقنة ملوثة بدماء جلده المتقرحة. يقال إنهم وجدوا خمسة عشر طفلاً كانوا يوارونه الثرى، وإن الزعيم هو من أمرهم بذلك!، ختمت الطبّاخة روايتها للسيّدة الأولى، ففزعت من مصير زوجها، لأنّه قد يكون أسوأ من مصير وزير الصحّة ووزير الشباب.

كان الرئيس جالساً في مقعده فوق المصطبة يحتسي الويسكي المفضّل عنده، متأملاً النُجيمات وهي تومض بين السحب البيضاء، حينما سحب شخصٌ كرسيّاً أمامه وجلس دون أن يسلم عليه. كان يتمرّز الخمر ملتذاً وينظر بطرف عينه إلى الضيف الذي كان يدعك يديه وهو مطرق. رفع رأسه في اللحظة التي غادرت فيها الكأس فم الرئيس فارتشعت يده، وأوقعت الكأس على الأرضيّة. جذب صوتُ شظايا الكأس عاملَ المطبخ فجاء مسرعاً، ولكنّ الرئيس أوماً إليه بالآ يقترّب.

- مساء الخير، سيّدي الرئيس.

كان صوته واضحاً كذاك الذي سمعه الرئيس في ذلك الصباح حين زاره السلاطين، فتنحّج كي يصفّي حنجرتَه من بقايا الشراب، فاستطرد الضيف قائلاً:

- حمد الله على السلامة. إن شاء الله اتعاجلت.

أدرك الضيف أنّ الرئيس تائه في كوكب تفكيره المتشابك وهو يرنو إليه بحيرةٍ يحاول أن يعرف ما إذا كان الزعيم ما يزال بهيئته عندما غادر

العالم قبل عقدٍ ونيف. حاول أن يردّ، بيد أنّ الشراب الذي ابتلع ثلاثة أرباع قنّيته خدّر لسانه فخرجت كلماته في حروفٍ متناثرة. تاق إلى أن يعود إلى تلك الفترة قبل موته الشهير، لكنّه اصطدم بجدارٍ إسمنتيّ يفصل بين يوم القيامة وما قبله والآن. كانت ذاكرة ما قبل يوم القيامة ضبابيّة مشوّشة، بينما كانت الأولى واضحة كشمس الظهيرة.

- سيّدي الرئيس، أنا الزعيم إن كنت لا تعرفني، قال الضيف. فالتمعت المنطقة المعتمدة من ذاكرة الرئيس واعتدل في جلسته وسحب الزعيم كرسيّه إلى الأمام قليلاً كي يقترب منه ليتحدّث همساً وبصورة واضحة. عطس الزعيم وقال:

- أنا أشتّم رائحةً في قصرِك سيّدي الرئيس.

- لا بدّ أنّهم يسحبون مياه القاذورات، سيّدي الزعيم، ردّ الرئيس متلعثماً.

- صدقت. إنّهم يسحبون مياه قاذوراتك الفاسدة، نطق الزعيم بصوتٍ مُخيف.

خيّم صمتٌ ثَقِيلٌ بينهما. نشر الظلامُ ظلاله في أرجاء المكان فهبط اللّيلُ سريعاً. تناول الرئيس القنينة وصبّ لنفسه كأساً وتابعه الزعيم بعينه فوضعها الرئيس على المنضدة دون أن يتذوّق شيئاً. أفرد طائر، بصخب، جناحيه فوق قمّة شجرة البان بالقرب من خيمة الحرس في الوقت الذي كانت سوزي تزيع فيه الستارة عن النافذة المطلة على المصطبة كي ترى السيّد الرئيس.

تبخّر الخمرُ من رأسه، فشعر بألمٍ خفيفٍ يسري في منتصفه، وردّ:

-إنّهُ فساد المؤسّسات، سيّدي الزعيم. أنا لستُ فاسدًا، دافع السيّد الرئيس.

برزت عينا الزعيم من حدقتيهما، فطأطأ السيّد الرئيس رأسه، وهتف الزعيم مخاطبه:

-سيّدي الرئيس، عندما تكون المؤسّسات فاسدة، هذا يعني أنّ هناك كارثة في القيادة. أنت عسكريّ وتعلم جيّدًا، حينما تكون هناك كتّيبة ما ضعيفة فلا بدّ من تغيير قائدها، وليس تغيير الكتّيبة، لأنّ القائد الضعيف يحوّل الكتّيبة أو أيّ مؤسّسة قويّة إلى مؤسّسة ضعيفة، والضعف يجلب معه أشياء كثيرة وما الفساد سوى أحد مظاهرها. إن أصبح المستوى الأكاديميّ لمدرسة ما ضعيفًا، فلا بدّ من تغيير المدير وليس الطلاب سيّدي الرئيس! وهكذا، عندما تكون وزارة ما ضعيفة وفاسدة، فلا بدّ من تغيير من يرأسها وهو الوزير وليس الموظّفين. أمّا عندما تكون كلّ مؤسّسات الدولة ضعيفة ومنهارة وغارقة في الفساد إلى أذنيها، وتستمرّ هكذا، حتّى بعد تغيير الوزراء مرارًا وتكرارًا ودكّهم وخلطهم كأوراق الكوتشينة أو قطعات الدومينو، فلا بدّ، سيّدي الرئيس، أن تكون أنت هو التغيير المطلوب لأنّك رأس السمكة المتعفنّ. في هذه الحال سيكون لديك خياران فقط لا ثالث لهما: الاستقالة وتسليم الحكومة لرئيسٍ جديدٍ أو إعلان انتخابات مبكّرة كي تأتي بخيارٍ تراه مناسبًا.

تنهّد الزعيم عميقًا، همهم ثمّ أردف قائلاً:

-اترك الأمر للشعب، سيدي الرئيس، ليأتي بقائدٍ يستطيع قيادة السفينة، وهي الآن تسير على غير هدى، إلى برّ الأمان. أنت رئيسٌ ولكنك ليست قائداً. القيادة، كما يقول العلماء، تتطوّر يومياً، لكنني أراك تتطوّر يومياً إلى الخلف، تتطوّر يومياً نحو المنطقة، ونحو القبيلة، ونحو العشيرة، ونحو الأسرة... القائد الحقيقي يتطوّر انطلاقاً من قبيلته ليلبغ الأمة دون النظر إلى قبيلته، لأن قبيلته تصبح هي الأمة في تلك الحالة وليس العكس...

سمع الزعيم السيّد الرئيس يستنشق وصوته يجesh بالبكاء، فاستند إلى الكرسيّ وشبك يديه ووضعها فوق كرشه مستغرباً من هذا البكاء الطفوليّ والانفجار المخاطي المتقطع. وقف رئيس الحرس على بعد عشرين خطوة يتلصّص على الزعيم والرئيس، لكنّه لم يولِ بكاء الرئيس اهتماماً؛ فهذا ديدنه، خاصّة عندما يرمي بأخر جرعة ويسكي في حلقه ثمّ ينبش مزبلة ذاكرته، وينخرط في البكاء إلى أن تأتي سوزي فتربّت على كتفه بلطف وتمسح دموعه، وتطبع على خدّه قبلة، ثمّ تأخذ بيده إلى غرفة النوم ليمارس طقس الشخير. ولم يكن ذلك يقضّ مضجع السيّدة الأولى. فقد كانت الأريكة الموجودة في الصالة الكبيرة هي الحلّ، بيد أنّها، وقبل سفرهم إلى الخارج بحثاً عن العلاج، كانت تجرّ الأريكة لتسدّ بها باب الغرفة من الخارج، خشية أن يرتكب فضيحة أخرى مع إحدى الخادومات، كتلك التي وُجدت في غرفتها صبيحة يوم الأحد، وهو يسبح في حوضها، بينما وقفت بقيّة الخادومات واجمات، لا يعرفن ما يفعلن بعد أن عُدن من صلاة صباح الأحد وهو، هناك، ما يزال يشخر بصفيرٍ مزعج في حوض الخادمة.

ظهرت سوزي مرتديةً جلبابًا لامعًا ملتصقًا بجسدها فنهض الزعيم من كرسيه، واستأذن الرئيس الذي كان يراه بين تشوشات دموعه يتراقص كأنه حُلْمٌ يمشي فوق سراب. لم أرَ في العالم رئيسًا يحمل دموعه بين يديه!، قال الزعيم وهو يهزُّ رأسه متحسّرًا، فرسم، لمرأى الحارسين وقد دنا منهما، ابتسامةً باهتةً على شفثيه، وغادر تاركًا وراءه بُكاء بيتٍ عزاءٍ بأسره.

خلقت عودة الرئيس من رحلته العلاجية جدولَ أعمالٍ مُضنٍّ للحرس الرئاسيِّ والموظفين العاملين بالقصر. وكانت السيِّدة الأولى لاتزال مستلقيةً في سريرها غير عابئة بصياح الديكة في الحيِّ العشوائيِّ خلف القصر. لقد كانت تلعن الطبَّ الذي عجز عن إيجاد علاج لزوجها حين جاءها رئيس الحرس يركض بأنفاسٍ متقطّعة، وحيّاها وقال: لقد وجدنا السيّد الرئيس في الحيِّ الخلفيِّ. لم تصدّقه سوزي وهي تنظر إلى الباب فوجدت الأريكة ماتزال أمام غرفة نومه وهي نائمة عليها. أخبرها رئيس الحرس بأنهم وجدوا النافذة الخلفية للغرفة مخلوعة كأنَّ نجّارًا ذكيًّا حلَّ مفاصلها.

وحين بلغت سوزي الميدان الترابيِّ، حيث كان يلعب مع الأطفال كرة الشراب ويصنع أكواخًا وحيواناتٍ وسيّاراتٍ من الطين، أعطى رئيس الحرس أوامره بالابتعاد للعسكر الذين جاؤوا ليعيدوه إلى القصر. كان ينفجر ضاحكا حتّى يسيل لعابه وتسقط أسنانه المزيّفة فيتعقّر الأطفال بالتراب ويستلقون ضاحكين وهم يبحثون عن أسنانه قائلين: أسنانك ههنا، يا أيّها الأحقّ الجميل!

في أحد الأيام، بحسب رواية جادا بائع الزهور، وبتأكيد من

ساندرا بائعة الشاي التي كانت قادمة من مستشفى جوبا التعليمي، وجدوه جالسًا في مدرسة جوبا «وان» الابتدائية، داخل فصل المستوى الأول، وقد أخذ ورقة وجعل عليها أشجارًا وجنودًا وطيورًا وسيارات إسعاف وأطفالًا تنزف من رقابهم المبتورة دماءً سوداء، وموتى يرقصون في حفل جنائزيٍّ بمناسبة عيد القيامة، ممّا جعل التلاميذ يهربون إلى بيوتهم فرعين. وعندما جاءت سوزي لتأخذه وجدته يكتب في السبورة ويتهجّى الحروف الأبجدية غناءً ونطقًا وصمتًا وتأتأة. كان سعيدًا وهو يتأبط ذراع سوزي، أمّا هي فقد استحت حينما رأت التلاميذ يرتعشون من منظر وجهه المخيف المصبوغ بالطباشير والتهيه وقد أغمي على بعضهم.

كانت السيّدة الأولى تجلس معه في المقعد الخلفي وتضمّه بيدها اليمنى إلى صدرها، عندما أخبرها السائق، بأنّ الحكومة قد حسمت أمر غياب الرئيس، فقد تسبّب في أزمة أمنية واقتصادية وسياسية، والأهم من كلّ ذلك، أزمة إثنية كادت تزجّ بالبلاد في أتون صراع دمويّ بعد أن رفض المكتب السياسيّ للحزب أن يتولّى نائب الرئيس، وهو ينتمي إلى إثنية غير إثنية الرئيس، رئاسة الجمهورية ريثما يتماثل الرئيس للشفاء. لقد أتينّا بمثله، قال عضو المكتب السياسيّ بثقةٍ لم يفهمها الأعضاء الآخرون إلّا بعد أن فُتح الباب وسُمح لعشرة رجال يرتدون بذلات بيضاء بتصميم واحد. أشار إليهم بأن يصطفّوا بمحاذاة الجدران ففعلوا. كانوا يشبهون الرئيس كأثمّ ليسوا سوى نسخٍ من الصورة الأصلية للسيّد الرئيس أو توائم من بويضة واحدة. كانت تجاعيد وجه سوزي الصغير مفعمة بالسعادة التي انتشرت لتخرق نفسها عندما أضاف لها

السائق بأنّه لو تسنّى للرئيس رؤية أولئك الرجال العشرة، لما شكّ في أنّه واحد منهم، أو ربّما قال إنّهُ يقف وسط مرايا كثيرة تعكس صوراً كثيرة له وتنتجها. فكّرت السيّدة الأولى لحظةً في اقتناء واحد من أولئك التوائم العشرة، بيد أنّها طلبت في سرّها أن يغفر لها الله مثل هذا التفكير الخبيث. كان دهاء المكتب السياسيّ للحزب الذي يدين للسيّد الرئيس بالولاء الكامل، وتحسّباً منه لطارئ غياب الرئيس لوقت غير معلوم، يفوق الاحتمالات التي وضعتها شعبيّة النائب الأوّل في عين الاعتبار، وهي غياب الرئيس وموت شبيهه، وذلك عندما استنطق الحزب مكتبه السياسيّ قائلاً: وهل سيموت التسعة الباقون يوم يموت الأوّل؟

ابتسمت سوزي عندما عرفت أنّ النسخة التي ستمثّل زوجها في المناسبات الرسميّة كانت على شبه بليغ بالرئيس إلى حدّ أنّها تقوم بكلّ إيماءة وتنطق بكلّ كلمة، تماماً، كما ينطقها الرئيس. أمّا الحركة التي أرغمت السيّدة الأولى على التفكير بجديّة في الفكرة التي استغفرت منها، فهي طريقة إدخال إصبعه في أنفه لإخراج المخاط الجاف. فقد كان تدوير الإصبع داخل الأنف وهو يلوي شفّته السفلى، متطابقاً مع طريقة السيد الرئيس إلى حدّ غريب جعل سوزي تشعر بشفقة كبيرة للمصير الذي سيواجه هذه النسخة الغبيّة، إن قابلها الزعيم واعتقد أنّها السيّد الرئيس نفسه. ولم يقف الأمر عند هذا الحدّ الذي جعل الجميع يلطمون وجوههم دهشةً، بل ذهب أبعد من ذلك إذ كان يبصق على إبهامه ليقلّب صفحات الخطاب الذي يليقه كما كان يفعل سيّد البلاد الأوّل. وكان قاموسه اللغويّ كما لو أنّه نُسخ من عقل الرئيس وطُبع في رأسه: كان يُعاني من شحّ المفردات فيستعيض عن مفردة إنجليزيّة

بأخرى عربيّة عندما يستحيل عليه نطقها أو يعود إلى لغته الأمّ، إذا ندر وجودها في مراجع اللغتين الكامنة في عقله الباطن.

كانت ابتسامة السيّد الأولى غامضةً ومواربةً، حار السائق في تفسيرها، فاكتفى بأن ردّ بابتسامة دميمة.

هبطت أوامر السيّد الأولى قاسيةً على رؤوس حرس القصر فتردّدوا في تنفيذها لولا أنّ الرئيس نفسه -دون أن يدرك ما يقول- أيدها ووبّخهم قائلاً إنّ هذا القصر ستديره، من الآن فصاعداً، سيّد البلاد. وعلى الرغم من تذمّر ضابط الحرس، وتملّمل بقيّة الحرس المستنكرين لتلك الأوامر، فقد أوثقوا الرئيس بحبالٍ سميكةٍ في رجل سرير نومه، ظلّت تضغط على رجله ويديه فأصدر أنيناً رقيقاً له قلب سوزي، وعلا على صوت التلفاز حيث كان المذيع يقرأ خبر عودة الرئيس من رحلة علاج واستجمام خارج البلاد، ويخبر المشاهدين بأنّه في صحّة جيّدة، وأنّ رئاسة الدولة ستستأنف أعمالها بصورة بطبيعيّة، وعلى المرافق الحكوميّة وأصحاب الأعمال التجاريّة مزاولة أنشطتهم دون قلق على عافية السيّد الأوّل الآن.

قضى الرئيس أسبوعاً كاملاً في ذلك الوضع المزري، موثقاً كجرو مُشاكسٍ، بينما ظلّت سوزي تبحث عن علاج له بمقابلة أجنبي يمارسون شيئاً أشبه بالطبّ في أطراف المدينة. كان الطبيب الترناني الذي زارته، حسب الإعلان الضخم المعلّق في باب بيته، يعالج البواسير والضغط والسكريّ، ومشاكل الحبّ، والعطالة، والزواج والطلاق، والحصول على المال، وكلّ ما يخطر على بال المرء من تحقيق النجاح في

كُلّ المجالات الأكاديميّة، «حتّى إن لم يحضر الامتحان النهائي»، قال الطبيب وابتسامة خبيثة مطبوعة في شفّته كأنّها لصقّة جرح. وحين دخلت غرفته، شاهدت عددًا هائلًا من رجال الدولة جالسين أمامه وهم يرجونه كي يجد لهم العلاج الناجع لمسألة قيامة الزعيم، فقد أصبحت فكرتها تؤرّقهم ليلَ نهار.

لم يتعرّف وزير الإعلام، وكان يجلس فوق حفرة دخانٍ والعرق يتصبّب منه، على السيّدة الأولى، فقد كانت تلبس بنطالاً وقميصاً أسودَ وغطاء رأسٍ بُنيًّا، ونظّارة كبيرة سوداء تُخفي ملامح وجهها. كان الوزير يشكو من ظهور الزعيم له أكثر من مرّة في اليوم الواحد وخاصّةً عندما يكون في مزاج رائق ليختلي بزوجته أو عندما يختم مؤتمرًا صحفيًّا يدحض فيه شائعة القيامة. لم تشفع له كلّ المسكّنات والأعشاب المستوردة. قيل له إنّها تُزيل الذكريات المؤلمة من الدماغ وتستبدلها بأخرى سعيدة ومفرحة. وفعلاً، فقد محت من عقله ذكرى قيامة الزعيم، ولكنها استبدلتها بكذبة قيامة الزعيم. وعلى الرغم من أنّ الوزير كان مغتبطًا من النتيجة التي برزت في الأسبوع الأوّل فإنّه اكتشف في أحد الأيام وهو قادم من اجتماع مع رجل أعمالٍ لاستلام نصيبه من عقدٍ حكوميٍّ ساعده في الحصول عليه، أنّ تلك الذاكرة السيّئة ما تزال قابضةً في ركنٍ مظلم من ذاكرته، وأنّها أصبحت أوضح من شمس النّهار، وصارت تعذّبه أكثر من أيّ وقتٍ مضى، وهي تظهر له في شكلٍ أحد حراسه أو ابنه الذي غاب طويلاً وظهر فجأةً في هيئة الزعيم.

تخطّت السيّدة وزير المالية الذي كان يهذي ويكي ويشكو من ألمٍ تسبّبه له ذكرى الزعيم في مؤخّرة رأسه. كان صوته بعيدًا كأنّه آتٍ من

تحت ماء وهو يضحك ليُظهر أسنانًا بترسبات كلسية مصطبغة بلون بني غامق. جلست سوزي وهمست في أذن التنزاني الأرنبية فاتسعت حدقتا عينيه وبرزت على شفثيه اليابستين ابتسامة مقبلة وأوماً إلى مساعده الأحذب بأن يأتي، فظهر وكأنه انبثق من جوف حرب أهلية. لم تطل زيارتها. خرجت من الغرفة وحقيبتها الجلدية منتفخة بأعشاب وأوراق نباتات صغيرة وأدعية وتماثيل وإرشادات وأشياء غريبة لا هي بأعشاب أو بأحجار، بل هي أقرب ما تكون إلى براغل وصواميل صدئة مصنوعة من البلاستيك المقوى.

احتارت سوزي وهي ترى وزير البترول مصفداً بجنازير، وخمسة جنود عتاة يحملونه وهو يصرخ بصوت مبحوح بأن حسابه في بنك كينيا التجاري قد أُغلق فجأة بعد أن سحبت لجنة محاسبة دولية كل أمواله وصادر البنك العقاري الأثيوبي فندقاً وثلاث محطات بنزين كممتلكات مرهونة للبنك. إنه لم يأكل منذ ثلاثة أسابيع، قالت زوجته للطبيب التنزاني حين فزع من رثائه هيئته، فأمر بإدخاله إلى غرفة الدخان مباشرة كي يستحم ببخار خشب الصندل قبل خضوعه للعلاج الإفريقي الفعال، كما قال.

شاب في مقتبل عمره وريعانه، يمزج القات ويتسم في وجهه كل من يراه، قيل إن النوم غادره منذ القيامة الأولى للزعيم فأصبح ينام نومًا متقطعًا باتكائه على عمود كهرباء في الشارع العام أو على جدران المدارس، ساعة أو نصفها، دون أن يشعر بالتعب وهو يمجّ عقب سيجارة بشرهة وتوتر. كان ذاك الشاب هو ابن مستشار رئيس الجمهورية، وقد تخرج حديثاً فعين سفيراً في بلاد الثلج.

علت سوزي قشعريرة، وشعرت بأنّ وباءً خطيراً ضرب الحكومة في مقتل وأنّ التنزانيّ الأصلع، متين القامة الذي يلفّ نفسه بملاءة كبيرة تكشف عن صدر مفتول مشعرّ، هو مجرد شفاطة نقود ساهمت في نشر الوباء بوصف علاجات تساعد في ازدياد أعراض مرض زوجها، إذ تحوّل إلى فأر يقضم الحبال التي أوثق بها في السرير. وفي الشهر الثالث عندما أتت به كي يفحص تقرّحات أطرافه وجلد بطنه، ضربه الطبيب بالسّماعة الطّبيّة وهو يقبض على يده التي كانت تنزف دمًا، وصاح في وجه سوزي: لقد عضّني، ثمّ أكمل بصرخة، هذا كلب مسعور! كانت الوحشيّة التي بلغها، سيّئة للغاية، وهو مقيد على سريره، وأصبح القصر الرئاسيّ شبيهاً بمصحّة أمراض نفسيّة مليئة بعويلٍ وصراخٍ وتقليد أصوات أطفالٍ يصرخون ومواءٍ قططٍ بريّة. وكان كلّ ذلك يخيف الفئران التي كانت تحاول قضم حبال وثاقه، ويقلق الحراس الذين أصابهم داء الأرق.

صار نحول سوزي مرّضيّاً بصورةٍ أخافتها حينما وقفت أمام المرأة ونظرت إلى وجهها في ذلك الصباح المغيّم بالكآبة. في ذلك الصباح أبلغها قائد الحرس أنّهم شاهدوا شخصاً يقفز من السور العالي للقصر فجراً، ويفرّ هارباً. فشعرت، وهي تمعن النظر في تجاعيد وجهها، بأنّها بلغت من العمر عتياً في ليلة واحدة أو ربّما بلغته لتوّها. ظنّ الحرس أنّه لصّ فأطلقوا عليه رصاصاً أربع الطيور النائمة على فروع الأشجار العالية فطارت بعيداً، لكنّه كان رشيّقاً فقفز هارباً. ثمّ شاهدوا النافذة الزجاجيّة لغرفة الرئيس المطلة على الحديقة، مشرعة. سحبت سوزي الأريكة عن باب الغرفة فرأت السرير خالياً. كانت خيوط حبال وثاقه

السميكة مبعثرة فوق السرير وعلى الأرضية المبلطة بالسيراميك وأخرى تطايرت وتعلقت فوق خيوط العنكبوت المنسوجة على السقف. لم تتفاجأ السيِّدة الأولى باختفائه، فقد أصبح أمراً حتمياً لا بدّ منه، كأن يشرب المرء الشاي كلّ صباح أو يستمع إلى الأخبار الباهتة التي يبثّها مذياع الدولة الوحيد.

قضت السيِّدة الأولى ساعةً كاملة في وضع المساحيق المتنوّعة علّها تُفلح في إخفاء آثار الشيخوخة الزاحفة على صحراء وجهها. وبشهيّة فقيرة تناولت فطورها واحتست الشاي وارتدت بنطالها الأسود وقميصاً رمادياً باهتاً، وخرجت إلى الباحة فرأت جنود الحراسة بنظراتهم التائهة جالسين على الدكّة الخشبيّة وآخرين مقرّفين على ورق الشجر في انتظار أوامر سيِّدة البلاد الأولى. رمقها جنديّ صغير واستغربت لأنّها شاهدت فيه ملامح يُتمّ أزعتها. كانت السيّارة واقفة، كفرس تستعدّ لسباق، فركبتها ثمّ انطلقت في رحلة البحث عن الهارب.

كان مسلسل اختفائه وظهوره ثمّ اختفاؤه مرّةً أخرى قد صار أمراً روتينياً عند سكّان القصر طالما أنّ غيابه لم يكن يتعدّى ثلاث ساعات يعود بعدها فجأة. ذات مرّة ضلّ طريقه ومشى إلى أن وجد نفسه في مطعم كومرد. كان مبتلاً بالمطر ويرتعش من الجوع وهو يجلس على مصطبة ينظر إلى شبّان يتناولون طعام عشائهم، فأمر أحدهم النادل بأن يأتي له بحساء ذيل البقر كي يبتّ في جسده الدفء: لأنّه يشبه رئيسنا، قال الشابّ ساخراً. وفي إحدى المرّات وجده الحرس في شارع حيّ الثورة يلعب الليدو مع تلاميذ يرتدون الزيّ المدرسيّ. ضحك أحدهم وضرب يد رفيقه عندما قال لهم إنّ السيّد الرئيس: أنت مجنون

يا زول؟، قال التلميذ. وفي ليلةٍ ظلماء، ذهب إلى مقهى في شارع الفيس بوك بالقرب من حَمارة أبراهام الأثيوبيّ رَوّاده من المثليّين الطيّين وطلب قهوة أثيوبيّة احتساها سريعاً وتسلّل خارجاً دون أن يدفع ثمنها ومضى، مباشرة، إلى منزله كي يتقضى حقيقة وجود هذا الكمّ المذهل من المثليّين في العاصمة:

- نعم سيّدي الرئيس، إنهم كثر ومن قبائل مُتنافرة، قال له قائد الحرس ضاحكاً.

- هل فيهم من ينتمي إلى قبيلتي؟، سأل بطريقة تنمّ عن أمنية في إجابة بالنفي، ولكنّ الحارس كان حازماً:

- يوجد سيّدي الرئيس، وهم الأغلبية أيضاً.

إجابة غليظة صدمته وشعر بحمّى بردٍ شديد، فدثّرتة سوزي بثلاث بطانيّات ونام ولم يستيقظ إلّا في عشية اليوم الثالث، ذلك اليوم الأسوأ في تاريخ مدام سوزي، وقد أبقتة سرّاً عظيماً أبت أن تُحدّث به أيّ شخص في العالم إلّا زوجها، وكان ذلك بعد عشرين عاماً من شفائه.

كان يوماً جميلاً غطّى سماءه لطخٌ غيم متوهج انقشع سريعاً وحلّت مكانه سحابة داكنة نشرت على الأرض زخّات ناعمة يكاد المرء لا يحسّ بها حين نهضت السيّدة الأولى متخذةً قرارها بالتخلّي عن الطبيب التنزانيّ الزائف، ومضت إلى منزل النبيّ أنطوني، فرحّب بها وأبدى استعداداه الروحيّ الكامل لتسخير قدراته الدينيّة المقدّسة في علاج السيّد الرئيس.

-سبقى الأمر سرّاً بيننا، أيتها السيّدة الجليلة، قال النبيّ أنطوني
بانحناءة احترام للسيّدة.

الأمر السريّ الذي تحدّث عنه النبيّ، ويده ترسم إشارة الصليب
كأنّه أحد الرّسل، كان قد سمعه من بائع الزهور. يومها لم يكمل البائع
باقي الشاي كي يلحق بأبرهام الأثيوبيّ، وقد كان في انتظار ذلك النبا
العظيم وهو يمجّ دخان سيجارته، بتوتّر.

في القصر، كان سيّد البلاد على غير عادته، يوزّع بقايا شواء
عشاء ليلة أمس وقنّينات ويسكي مغلقة على أفراد حراسته، فاثنوا
عليه وأمطروه تقريظاً بلغة القبيلة، خاصّةً رئيس الحرس الذي انبرى
يتحدّث في السياسة الدوليّة بعد أن تجرّع الكأس الثانية ووضع يده على
كتف الرئيس كأنّه صديق ينوي أن يشي له بسرّاً في أذنه، ومشى فتبعه
الرئيس صامتاً طوال مدّة نصف الساعة التي قضّاها في المشي بمحاذاة
سور القصر العالي. ظلّ بقيّة العسكر هناك يتسامرون ويقهقون بصوتٍ
عالٍ حين داهمهم السيّدة الأولى وتوسّطتهم فجأة. سألت عن رئيس
الحرس فأشار إليه جنديّ فرأته هناك ممّداً على الأرض المعشوشبة
المبتلّة بقطرات المطر.

وهكذا، استغلّ السيّد الأوّل فوضى سُكرهم واختفى، وقد كان
الاختفاء الأسوأ على الإطلاق!

منافع البَعَث

لم أكن لأتخيّل لما رويتُ ما دار بيني وبين الزعيم للرقيب أوّل سانتينو أنّه سيستغلّ ذاكرته التصويريّة وموهبته الفدّة في الحكي، دون أن يترك أيّ نقطةٍ مهما بدتْ تافهةً وسخيفةً تنفلتُ منه. وقد ظهرت هذه الموهبة السردية منذ سنواتٍ عند الشاطئ الشرقيّ لبحر الجبل بعد يومٍ طويلٍ ومُرهِقٍ من تلك المعركة الشرسة التي خسرنا فيها عشرةً من رفاقنا.

كان الهدوء يخيم على بحر الجبل وأوراق الشجر والحشائش الطويلة تتمايل على ضفّتيه كأنّها تحاول أن تشاطرنا أحزانَ فقدانِ الرفاق أو أن تخفّف من وطأتها على نفوسنا المثقلة بالعار والهزيمة. مازلت أذكر الرقيب أوّل سانتينو يجلس القرفصاء ببزّته العسكرية المهلهلة المُلطّخة بدماء رفاقنا الموتى وهو يتأمل صفحة الماء وقُرصَ الشمس ينحدر ببطء نحو المغيب وينثر ذرّات أشعّته على الماء المتفرّق. غامت عينا سانتينو خلف دموع غزيرة وامتزجت بماء النهر المتراقص. وكأنّها الطبيعة حولنا أدركت أنّ سانتينو سينتهك سكونها الجميل، فقد هبّ نسيمٌ عبّقُ برائحة التراب المشبع بالمطر، فهمهم سانتينو في إشارةٍ إلى أنّه يريد أن يقول شيئاً ثمّ شرع يحكي دون أن ينتظر موافقة الضابط المسؤول:

«كان برد الشتاء لا سَعًا في ذلك العام يا رفاقي، وكانت العصافير الصادرة بأغاني العشق وهي تُطعم صغارها بحَبَّات الذرة، قد أوت إلى وكناتها المصنوعة من القش تحت سقوف الزنك، هدلت الحمام في هدوء كأنها تحاول أن تُدفع صغارها من لسعات قَر الشتاء القارس في تلك المدينة النيلية التي آثرت أن تغمض جفنيها مبكرًا، غافلة عما يُخبئه لها القدر في اليوم التالي. كنتُ خادماً في منزل عميدٍ شمالي في منطقة العمليات في الجنوب. لا بدَّ أنه يقتل أهلي أو يغتصب قريتي أو ينقل التيك من مدينتي ويهرّبها إلى الشمال كما كان يفعل دومًا، هجست بذلك حين تذكّرتَه وأنا مستلقٍ على لحافٍ رقيقٍ لا يمنع عني برد الإسمنت تحته. لم يُغمض لي جفنٌ من شدّة البرد، كنت أرتجف ونبضات قلبي تتسارع كأنني في ماراطون.

شعرتُ بضالتي وعاري منذ أن صفعني لؤي ابن العميد على مرأى من نساء الجيران اللواتي كنَّ يحسّين قهوة ما بعد الغداء تحت ظلّ شجرة النيم الكبيرة داخل بيت العميد الكبير. لعقتُ دموعي فنزلت ثقيلةً علقماً في حلقي. ضحكت النسوة وفرحت سُعاد أم لؤي لأنها شعرت في تلك اللحظة بأن ابنها قد صار رجلاً يُعتمد عليه. لم تفهم سُعاد ذلك الشعور الغريب، فعندما رأتَه يصفعني -أنا الخادم سانتينو الذي يمكن أن يُنجب مثل لؤي وأخته رزاز وأكثر- اكتشفتُ لأوّل مرة أنّ بينه وبين والده شبهًا عجيبًا، فأدامت النظر في تقاطيع وجه لؤي الناعم وبريق عينيه المتألّكتين في حدقتيهما والأخاديد الناعمة المطبوعة في سهول شفّتيه. رأيْتُ في سيّما وجهها شيئًا غريبًا! رأيْتُ تفاحة عُنقها تتلوّى فمّصّت شفّتيها وابتلعت ريقها وفغرت فاهًا برهةً، وكادت

أن... لكنّ حبل أفكارها الغريبة قد انقطع عندما شعرت بحرارة
القهوة المندلقة على فخذها.

حدجتنى بنظرةٍ عنيفةٍ فأشحتُ بعينيّ ونظرتُ بعيداً، إلى الفراغ،
إلى عاري ذي الطعم الحمضيّ.

كنتُ مستغرقاً في تفكيرٍ عميقٍ حين سمعتُ صافرةَ القطار،
وطقطقةَ عجلاته الحديديةِ وهو قادمٌ إلى المدينة في ذلك الوقت المتأخر
من الليل. رأيتُ حياتي كحياة تلك القضبان المستسلمة تحت وطأة
آلاف العجلات تطحنها طحناً كلّ يوم ولا تعلم لمن تشكو منذ أن
جاء بها المستعمر الإنجليزّي إلى هذا الجزء من العالم قبل قرنٍ ونيف.
كانت حياتي كحياة تلك القضبان المحروقة بأشعة الشمس في النهار،
ويقرصها البرد ليلاً، وليس لها غير أن تنصاع للحمل الثقيل الذي تنوء
به بسبب تلك القاطرات عديمة الرحمة: هكذا أنا أطحن طحناً وأصنع
صفعاً، وليس هناك من يرأف بي...

كنت أسأل نفسي، متعللاً بالصبر وهو يسحطني على الأرض ثم
يغرقني في اليّم قائلاً: أنت لست إلاّ عبداً أسوداً خلقت لخدم أسياذك!
انظر إلى لؤي يا سانتينو، فجلده ناعمٌ ولونه أبيض ونسبه عريق ناصع
لا تشوبه شائبة. أمّا سرواله الملطّخ بلون القذارة والدنس فهو أنقى
منك. فزعتُ وألفيتُ نفسي مغموراً في مستنقع من عرقٍ ينبجس من
كلّ مسامات جسدي رغم جوّ الشتاء. وكان الدّم كالماء الساخن يغلي
في دماغي متزامناً مع طقطقة عجلات القطار إذ يوشك على الرحيل
تاركاً وراءه آمالاً ووداعاتٍ وتمنيّاتٍ برحلةٍ سعيدة.

قطع تلك الأفكار التي كانت تتدافع في رأسي وتزاحم، صوت
 أنثويٍّ مشيرٍّ ممزوجٌ بأهاتِ اللذة انبعث فجأةً من غرفة زوج السيد
 العميد فوجدتني دون إرادة أتسلّل بخفّةٍ على أوراق الشجر المتساقطة
 دون أن أحدث صوتًا كأنّ قدمي لا تمسّان الأرض. التصق وجهي
 بنافذة الغرفة المطلّة على مزرعة الحُضار الصغيرة، كانت عاليةً فوضعتُ
 حجرًا ووقفتُ عليه كي أتمكّن من رؤية المشهد بارتياح، صعقني منظرُ
 سُعاد في ثوب نوم قصير شفاف كأنّه مصنوعٌ من جلدها. كانت مستلقيةً
 على ظهرها تُمارس حلمها، وتفتح رجليها على مصراعيها كأنّها بوابة
 عسكريّة تركها العدوّ مواربةً بعد تدمير المعسكر. كانت تتلوّى مثل
 أناكوندا ابتلعت غزالًا أو كأنّها خُزنت كلّ شهوات العالم في خلاياها
 وقد حان انفجارها. تتأوّه بصوتٍ رقيقٍ وتنادي باسم زوج قد يكون
 مطاردًا الآن في أحراش الجنوب. فكّرتُ؛ «هي فرصتك يا سانتينو، لا
 بدّ أن تحتبر رجولتك!» تسلّلتُ إلى الغرفة عبر الشباك، كانت زقزقة
 العصافير المختلطة بصرصرة الجداجد تتوارى خلف أنفاسي المتلاحقة
 حين نعب بومٌ أفرعني. كنت أقف مباشرةً فوق رأسها وقلبي يدقّ بقوة
 حتّى خشيت أن تسمعه. مددتُ يدي ببطءٍ لأسحب جونلتها ففزعتُ
 حين رأيتُ صورة العميد حسن جار النبيّ المعلّقة فوق رأسها تنظر
 إليّ، ارتعشتُ وضوء الغرفة الخافت يفضحني كما خيل إليّ. اكتشفتُ
 أنّها لم تكن ترتدي ما يستر عورتها عندما سحبت الجونلة إلى الأعلى
 ورأيت أبواب الجنة مشرعة بلا حراسة. نزعت بنطالي برشاقة، وما
 كدت أبعث هذا المخلوق الجميل إلى جنّة عدن حتّى صاحت سعاد
 بصوتٍ عالٍ: ماذا تفعل أيّها الوغد؟ فشعرت بأنّ السماء قد دنت

من الأرض، وكان لا بدّ أن أُسكِّتَها قبل أن يسمعها سكّان قشلاق الضبّاط. قبضت على عنقها بكلتا يديّ وضغطت بكلّ قوّة فتحوّل صوتها إلى خوار لكنّها كانت ماتزال تنتفض حين حشرت في فمها قطعة قماشٍ وولجتها...».

تنفّس سانتينو بقوة كما لو أنّ هنالك طنّاً من الحديد يجثم فوق صدره، فتبادلنا جميعاً نظراتٍ حائرة، فاستأنف قائلاً:

«كانت تلك هي المرّة الأولى التي أتذوّق فيها شيئاً بذاك المذاق واللذة وتلك المتعة. كرّرتها مراراً دون أن أتفطّن إلى سكونها التام. أجل لقد تصلّبت، وانقطع نفّسها. سحبْتُ القماش من فمها فظلّ مفتوحاً كمدخل إصطبل وحرّكتُ رأسها يمنةً ويسرة لكنّها ظلت صامتةً بلا حراك.

اخترقت سكونَ الليل صافرةُ القطار تُنبّه المسافرين إلى دنوّ موعد السفر. بقيت إذن صافرتان أخريان ليغادر، قفزت من الشباك وعدوتُ إلى غرفتي، فكان القطار يطلق الصافرة الثانية عندما خطفت حقيبتَي الصغيرة وركضت خارجاً من القشلاق عبر فرجةٍ في سور السلك الشائك متجنّباً الباب الرئيسيّ حيث الديدبان. كانت الحقيبة معلّقة على ظهري ويداي تمسكان بأخر عربة في القطار الراحل عن تلك المدينة.

وقف المودّعون يلوّحون، بحسرةٍ أو ربّما بسعادة، إلى المسافرين غير مدرّكين أنّ ذاك الشابّ الواقف على بوّابة العربة الأخيرة، المرتدي بنطالاً كاكياً وفنيلاً رماديّة مهترئة، ليس سوى مسافر آخر، يُغادر هذا العالم الذي كرهه، دون رجعة».

تناول سانتينو قطعةً خشبٍ وأخذ يحفر طين الأرض وهو مُطْرِقٌ،
فسأله قائدنا:

-وماذا حدث بعد ذلك يا سانتينو؟

-لا شيء يا سيدي. فأنا الآن معكم.

نظر القائد عبر الضفة الأخرى من النهر. تأمل سانتينو من قمة رأسه، مروراً بوجه كالموت، وركّز على عينيه، وصاح:

-أنت مجرم قاتل يا سانتينو!

-أنا لست مجرمًا يا سيدي!

-أنت مجرمٌ وقاتلٌ وإنسانٌ دنيء.

ارتعشت شفتا سانتينو وغمغم بكلماتٍ وهو يتصبّب عرقاً، ثم تفرّس في وجهي ولسان حاله يقول: أنقذني يا أجانق من هذه الورطة، فأبعدت وجهي. فاستجمع رباطة جأشه وقال:

-نعم قاتل، لكن أنا قتلت جلابه يا سيدي.

رمقه القائد بنظرةٍ شعر معها سانتينو بأنه أقدر إنسان خُلق على وجه البسيطة، فواصل قائلاً:

-قبل ساعاتٍ فقط، قتل الجلابه عشرةً من رفاقنا، يا سيدي.

-أنت غبيّ يا سانتينو، زأر القائد، وأضاف بغضبٍ، هناك فرقٌ بين الجلابه التي نحاربها، والجلابه التي تعتقد أنك قتلتها. أنت مُغتصبٌ يا سانتينو، وما فعلته لا يقلّ عما يفعله جيش الجلابه

هنا في الجنوب. نحن لا نغتصب مواطنين ولا نقتل مواطنين،
بل نحارب جيش الحكومة يا مجرم! يا قاتل! يا سفّاح!

كانت ألسنةُ لهيبِ الغضب تسري كأذرع الرّعد في عيون قائدنا
وهو يتحدّث، فتقطّعتْ أنفاسُه ودمعتْ عيناه وانكمش صدرُه وهو
يتنفس بصعوبة فتدخل المساعد الطبيّ برنجي مانحًا إيّاه بخاخ مرض
الرّبو الذي يداهمه كلّما غضب.

وعلى الرّغم من أنّي أصبحت منذ ذلك الحين أرى سانتينو قاتلاً
ومجرماً وسفّاحاً، إلّا أنّ مقدّرتي على حفظ القصص وسردها وإعادة
سردها بطرقٍ مختلفة ليخلق من قصّة واحدة مجموعة قصصٍ شقّة
ظلّت تُثير إعجابي وتحظى بتقديري!

عندما رويتُ له تفاصيل ليلة ظهور الزعيم لم أكن أتخيّل أنّه
سيحفظها عن ظهر قلب، ويحكّيها لاحقاً بطرقٍ شتى حتّى أخذتُ
أنا، الشاهد الوحيد على قيامة الزعيم، أصدّقه، بل وأفكر في العودة
إليه لمراجعة بعض تفاصيل القيامة، ثم صار مرجعاً قيماً لحدث القرن
الواحد والعشرين.

لم يكتفِ الرقيب أوّل سانتينو بعد أن استقال من الجيش، براوية
قصّة قيامة الزعيم للذين كانوا يأتونه من القرى النائية، بل صار يقبض
مبالغ طائلة لقاء تلك الحكاية:

— لا والله! إنتمو بالذات يا سلاطين، لم يزعل الزعيم منكم أبداً.
وهذا أوّل ما سمعته منه عندما قام من بين الأموات.

هكذا كان يقول لسلاطين إحدى قبائل مدينة «غرب الاستوائية»

الذين جاؤوا ليسألوه عن تلك الشائعة حول بؤس الزعيم، لأنهم تجاهلوا عمداً مساعدات سلطات الإدارة الأهلية في حل النزاعات بين المزارعين والرعاة، وأخذوا يتهافتون على موائد السياسيين.

- هذا صحيح، لقد كان غاضباً قبل موته بخمسة أيام، لكنه ساحمكم الآن، بعد القيامة. الموتى يسامحون أيضاً! قال سانتينو لمجموعة أخرى جاء أفرادها بثورٍ وثلاثة عجول وخمس شياه وربطوها داخل بيته.

كان الناس يتوافدون عليه من كلِّ حدبٍ وصوبٍ لسماع ما قاله الزعيم للرقيب أول سانتينو عن مصائر أبنائهم العُزَّاب، بعد أن شنت عليهم إحدى القبائل المجاورة لهم هجوماً ونهبت ثلاثة آلاف رأسٍ من البقر في ليلةٍ واحدة، وقتلت خمسةً وعشرين شاباً كانوا يتناوبون على حراسة تلك الأبقار.

- وبماذا يتزوَّج أولادكم؟

قال لهم إنّ الزعيم قد وجّه لهم هذا السؤال المُلغز، وما كان على أعيان القبيلة إلا أن يترجموا ذلك بأنّ القصد من هذا السؤال هو أن يستردّوا تلك الأبقار المنهوبة بالقوّة حتّى يتمكّن أبنائهم من الزواج الذي أصبح مهره مصدر ثراء، ولم يعد مجرد شيء يرمز إلى ثقافة القبيلة.

كان زوّار الرقيب أول سانتينو من شتّى الأطياف والطبقات والشرائح؛ نساء عواقر ورجال أفناهم العقم، خريجون وخريجات لفظتهم ظروف العطالة في بلدٍ يسوده الجهل، شبّات هجرهنّ عشاقهنّ

وَأَلْقُوا بِهِنَّ عَلَى أَرْصَفَةِ دُرُوبِ الْهَوَى، مُطْلَقُونَ وَمُطْلَقَات، ووزراء كانت أمنيّاتهم في الدنيا أن يبقوا في السلطة إلى القيامة، جميعهم زاروا سانتينو خلصةً بحثاً عن علاج لأسقامهم ومشكلاتهم، مؤمنين بأنّ الزعيم قد أودع الرقيب أوّل سانتينو وصفاتٍ لكلّ الأشياء: الأمراض والمشكلات العاطفيّة والعائليّة والبطالة وبيع الأجساد وكلّ ما يخطر ببال المرء من أمرٍ مستعصٍ لا علاج له.

-ما هو الحلّ لزمالك الرقيب أجانق؟

-أجانق مات في معركة مدينة الناصر، عليه انتظار القيامة القادمة! أجاب بحزم، ثمّ تنبّه إلى أنّ هناك كثيراً من الأسئلة تأتيه من كلّ جهة.

-قال الزعيم كلّ شيء، كلّ شيء! كلّ ما يخطر ببالك وبيال أجدادك الراقدين على أمل القيامة! أليس هو الزعيم، ماذا تظنّه؟

كان سانتينو يهتف في زبائنه بصوته الجمهوريّ وحدقتا عيناه تتسعان كأنّهما تقولان: ألا ترون الحقيقة المُشعّة من هاتين الحدقتين؟ منذ قيامة الزعيم، جنى سانتينو، في فترةٍ وجيزة، ثروةً جعلت الناس في الحيّ يتناقشون حتّى منتصف الليل لمعرفة مقدار ثروته التي يحصيها بعدد الأكياس الملقاة في المخزن المخصّص لها بعد أن رفض إيداع ماله في البنوك.

سانتينو من القلائل الذين يقال عنهم إنّ الحياة ابتسمت لهم، ثمّ ضحكت، فباتت نواجزها حتى انحنى له الجميع على طول حيّ (107) وعرضه. وأصبح بعض الوزراء الحكوميين يقبلون يديه

تبجيلاً واحتراماً، أمّا بعضهم فقد تزوّج بناتهم عنوةً رغم علمهم بمعاملته الفظة المهينة لنسائه، وذلك أنه لا يضاجعهنّ إلاّ في ليلة الدُّخلة، ثمّ يهجرهنّ بعدها ليواجهن مصيرهنّ المجهول في زواج لم يدُمّ إلاّ ساعاتٍ مُتعةٍ ليليّةٍ كأنهنّ طالباتُ رزقٍ اصطادهنّ من ملهّى ليليٍّ رخيص، كان لا يرى في نسائه اللائي تجاوزن المائة غير دواجن للتفريخ ولا يذكر من أسمائهنّ إلاّ اسم زوجته الأولى أنيتا والأخيرة لوشيا ذات الستة عشر ربيعاً. كان يحبّ لوشيا كثيراً ويعزو إليها كلّ الخيرات:

-هي وجه السعد بالنسبة إليّ، قال باعتزاز، ولن أتزوّج بعدها أبداً!
كان يقول ذلك، بجديّة لا تخلو من رعونةٍ في نهاية كلّ زيجة وهو يعلم في قرارة نفسه علم اليقين أنّ ما يتفوّه به كذبٌ محض لا يقلّ بشاعةً عن أكاذيبه وأراجيفه المتناقضة في تلفيق أشياء لم ينطق بها الزعيم. وكان الناس يصدّقونه وهم يهزّون رؤوسهم بسداجةٍ واحترامٍ بالغين.

أنفق في عرسه الأخير أموالاً لم تقتصر على المهر الذي سُجّل على أنّه الأعلى على الإطلاق، منذ اتفاقية أديس أبابا، بل امتدّت إلى الأموال الطائلة التي أنفقت على كلّ أهل حيّ (107) بعد أن مكّنه الرقيب أوّل سانتينو من الأكل والشرب في كلّ مطاعم سوق مليشيا وسوق ليبيّا واحتساء أجود الخمور والعريضة في كل مواخير المدينة وملاهيها سبعة أيّام بلياليها ليجعل المدينة سدوماً عصرية تعجّ بشتى ألوان العريضة والفجور.

كلّ من عرف العريف أنطوني قبل يوم ميلاده ظنّ أنّه مات جنيّاً وهو في شهره السادس. أمّا النسوة اللواتي كنّ يغسّلن أمّه بعد أن أسلمت الروح في تلك الأمسية من يوم الأحد، فقد فزعن وتوجّسن حتّى إنّ أكبرهنّ سنّاً قد فأغمي عليها لما رأت بطن أمّه يتحرّك. حدث ذلك، بعد أن أعلن حكيم مشفى المدينة موتها في الأسبوع الماضي، وبقي جثتها داخل المشرحة لأكثر من أربعة أيّام، بينما كان الأهل يبحثون عن سُبُلٍ لإيجادِ عربةٍ تنقلُ جثّتها إلى القرية الباكية.

تموت عرائس في مثل عمرها وحتّى قبل ذلك لأنّ الموت حقيقةً حتميّة مهما تكن السنّ، لكنّ موتها هي بالذات كان شبيهاً بمعجزة، وحين شاهدت النساء شيئاً يتحرّك في بطنها أطلقن سيقانهنّ للريح وخلفهنّ السيّدة السبعينيّة، أكيلو قابلة القرية، وسبائب شعرها الأبيض تتطاير كخيوطٍ في الهواء. فأدرك شيوخ القبيلة ورجالها وشبّانها أنّ مثل هذا الموت، ومثل هذه الجثّة الراقدة بهدوء داخل تلك القطية الكبيرة لا بدّ أن تكون قد أصابتها لعنة الأسلاف! ولما رأى الشيوخ أكيلو تجري بسرعةٍ ورشاقة، عرفوا أنّ فاجعة كبرى قد حلّت بالقبيلة، وأنّ الشمس المعلّقة كأنّها شمسان ما هي إلّا نذيرٌ شؤمٍ يجعل يوم الأحد ذاك لا يمرُّ بخيرٍ رغم صلواتهم القويّة في كنيسة القرية.

عكف سلطان أوشين يعجن أفكاره عساه يفهم سرّ فرار النساء
من غرفة الميّتة، ثم أمر قارع الطبل بالكفّ عن إعلان خبر الوفاة،
وتوقّفت النساء عن النواح.

اكتفى بعض المتهامسين بسحب أنفاسٍ من التوباكو الخامّ فيما
كانت أذنته السميكة تتصاعد ببطء، وأخذوا يحدّقون في القطية
كأنهم يتوقّعون خروج الجثّة ووقوفها عند الباب، تمامًا كما فعل لازرو
الذي بعثه عمانوئيل من بين الأموات. لكن وقع ما لم يكن في الحسبان
عندما توقّفت حبوبة أكيلو فجأة وأرهفت السمع وهي تتلفّت بريّة
نحو القطية. لم تصدّق أذنيها عندما سمعت صوتًا كأنه آتٍ من أعماقها.
وبعلم الخيرة، عرفت أنّ مثل هذا الصوت لا يصدر إلّا عن طفلٍ يعبر
عن احتجاجه على قدومه غير المرغوب فيه إلى هذه الدنيا. وعلا صراخ
الرضيع فابتسمت.

مشت حبوبة أكيلو صوب القطية وهي تشعر بأنّ القرية تسمع
نبضات قلبها ووقع خطواتها وأنفاسها المتقطّعة. كان الصمتُ وحشًا
ضحكًا وقبيحًا أناخ بكلّكله على صدر القرية، وجعل أكيلو تقول بعد
سنواتٍ وهي تحكي تلك القصّة لحفيد حفيدها إنّ قلبها كان ينبض
بالسرعة والإيقاع والصوت والعرشة نفسها، تمامًا كما نبض في ليلة
عرسها قبل تسعة عقود! وما إن وطئت قدمها اليمنى عتبة باب القطية
ومدّت رأسها إلى الداخل حتّى فتحت عينيها وأغمضتهما مرارًا لتتأكّد
من أنّ ما تراه أمامها واقع وليس حلمًا أو مسحًا من المسوخ، فركت
عينها بإصبعٍ مرتعشةٍ وسعلت ونظرت خلفها فرأت النسوة واقفاتٍ
بخوفٍ، والرجال مازالوا جالسين تحت شجرة المهوطني وقد لفّهم

هدوءٌ عجيب، في حين كان سلطان أوشين ينفخ دخان غليونيه في الهواء بقلبي واضح.

أجل، كان ثمة طفلٌ خرج إلى العالم وهو يُجرِّك رجله ويرضع من ثدي أمّه التي ماتت قبل أسبوع.

ألقي ميلاد ذلك الطفل بالجميع في لجّة الاستغراب والتوجّس، وعجز كبار القبيلة عن سبر أغوار تلك الولادة التي جاءت بطفلٍ ظلّ في رحم أمّه دون أن يتأثّر بالحياة الميتة حوله.

ضحكنا أنا والرقيب أوّل سانتينو ضحكًا لم نضحكه من قبل ونحن نحتمي «العرقى» ونفث بمتعةٍ بالغة أدخنة سجائر الـ«سبورتسمان» الشهيرة على بعد خطواتٍ من الصريح، وتندّرنا بقصّة العريف أنطوني الذي روى لنا حكاية ولادته الغريبة بعد موت أمّه بأسبوع. وسرعان ما علّت القهقهة عندما قلت له: حقًا إنك عفريت يا أنطوني! كيف يُولد إنسانٌ من رحم ميّت؟ فقهقه أنطوني وهو يصبّ آخر قطرات «العرقى» في كأسٍ كئيبة ثم جرّعها دفعةً واحدة وهو ينفث هواءً سامًا بوجه مُتقلّص.

مرّت كلّ تلك الأحداث وقصّة الولادة التي رواها لنا العريف أنطوني كشريط ذكريات في باطن عقلي وأنا واقف وسط حشد المؤمنين الذين كانوا يصلّون ويمجّدون الربّ لأنّه أنزل إليهم نبيًا يشفي المرضى ويُطعم الجياع ويزيل الفقر ويثمر الأشجار ويبعث الأموات أيضًا.

كنتُ بين مُصدّقٍ ومُكذّبٍ حين هربني نياما صديق أخى الميت أغسطينو خارج المعتقل، ومضيت إلى كنيسة القيامة ورأيتَه يعظ، سألتُ

رجلاً يبكي خشوعاً وورعاً عن اسم نبيهم. فرمقني بشفقةٍ وحنوٍ ولسانُ حاله يقول: انظر إليّ، لقد كنت أعمى في الأسبوع السابق، لكنني أشكر الربّ، فقد شفاني النبيّ. هللويا!

كان المؤمنون واقفين لمدة خمس ساعاتٍ يهلّلون ويرقصون ويترنّمون بترانيم روحانيّة كما لو أنّ السماء ستفتح أبوابها. التفتُ فرأيتُ صديقة زوجتي ليزا، لكنّها لم تعرفني، ربّما غيّرت حياة السجن وظلامه الحالّك ملامح وجهي. فأنا لم أعد أعرف نفسي، فلقد نسيْتُ وجهي تماماً. رأيتها تنوح وتُتمتم بآياتٍ لم أتبيّن ما إذا كانت من الكتاب المقدّس أو من كتاب آخر! حدتني بعينين متوقّدتين وقالت:

-نبينا هذا كان جنديّاً في حرب التحرير التي أزهدت أرواحاً روت دماؤها الطاهرة هذه الأرض تحت أقدامنا!
ثم استطردت:

-إنّ هذا الجنديّ النبيّ قد نجا من مائة معركة دون أن يُصاب بطلقةٍ واحدة أو حتّى شظيّة صغيرة من آلاف الشظايا المتطايرة من الألغام التي دمّرت العربّة وكلّ ما فيها من جُنْد، ولم ينبج إلاّ هو! أجل.. كنت عاقراً لعشرة أعوام لكن الآن، وبعد أن آمنت بهذا النبيّ، أصبح لديّ من الأبناء ما جعلني أكره الولادة. ألا يكون نبياً؟

تأكّدت أنّ النبيّ الواقفَ أمام ما يناهز الألف شخص هو نفسه نديم «العراقي» ورفيق السجائر والحشيش دون أيّ اعتبار لقدسيّة الصريح، وهو نفسه من يتسلّل بعد أن يُذهب الحشيش عقله إلى بيوت

الصفيح المنتشرة خلف مبنى الشرطة العسكرية، ليُجدَّ سوائل صلبه بممارسةً غالباً ما تنتهي بمشاجرة يفتعلها كي لا يدفع المقابل.

أيقنت الآن، بما لا يدع مجالاً للريبة، أنا الرقيب أجانق واني، وبكامل وعي، أن هذا النبي الذي أخذ يتلو آياتٍ ليقم ذلك الأربعيني الراقد أمامه من بين الأموات ليس إلاّ العريف أنطوني فرانسيسكو بقاري.

حدّثني نفسي بصوتٍ خافتٍ وارتسمتُ على شفتي نصفُ ابتسامةٍ ماكرة رأيتُ تأثيرها في عيني المرأة عندما نظرتُ إليّ شزراً، فقلت: غريب أمر قيامة الزعيم هذه، فقد أخرجت لنا من بيوت الصفيح نبياً ينشر في الناس كلام الناس.

كان النبي أنطوني يُصليّ بصوتٍ يخرج مدوّياً عبر مصادح ضخمة مثبّته أمامه، فبدأ كأنّه رئيس دولة، وهو يرّتل في أتباعه: لو قال مؤمن منكم لهذه الجثة أمامي قومي لقامت وانتصرت على الأموات كما قام المسيح! كان يردّد ذلك وأتباعه يصرخون بأياٍ مرفوعة إلى السماء ويهتفون بصوتٍ واحدٍ قائلين: هلولويا، هلولويا!

شعرتُ بقشعريرةٍ عندما وقع في أذني صدى تلك الكلمة المقدّسة المُلهمة: هلولويا. كنت كمن بدأ ينظر إلى ماضيه عبر منظار فرأيتُ كلّ الماضي يتحرّك أمامي ببطء؛ قرى ومُدناً نائية عبرتها على عَجَل، ومعارك شاركت فيها بحماس بالغ. أوقفت المنظار برهةً لآلتجاذب أطراف أحاديث لم تكتمل لأكثر من عشرين عاماً مع رفاق استشهدوا وقلتُ: الموت خير لكم من هذه المهزلة التي نعيشها الآن. ثم أعدت المنظار فرأيتُ بجلاءٍ

ذلك اليوم البعيد الأفل نجمه في سماء ثمانينيات القرن الماضي عندما دمرَ لغمٌ أرضيٌّ شاحنةً عسكريَّةً بالقرب من مدينة توريت، وأدَّى إلى مقتل كلِّ الجنود على متنها بما فيهم العريف أنطوني بقاري فرانسيسكو الذي احتار الجميع في أمره عندما دفنوه وزملاءه في مقبرة جماعيَّة كي لا تتعرَّض جثامينهم لعبث الحيوانات البريَّة الشرسة. لكننا فوجئنا، بعد ستَّة شهور من تلك الحادثة عندما وجدنا العريف أنطوني بلحمه ودمه وشعر رأسه الأبعد يُقاتِل في كتيبة الجيش الشعبيِّ قريباً من منطقة ناجيرو: ألمْ ندفنك في شارع توريت يا أنطوني؟ قهقهه عاليًا وهو يضرب يداً بيدٍ حتَّى حدَّره القائد من أنَّ مثل تلك الضحكات قد تجلب العدو، نعم ضحك، ولم ينكر أنَّه العريف أنطوني، إلَّا أنَّه أنكر تمامًا أن يكون هو نفسه ذلك الشخص المدعو أنطوني بقاري فرانسيسكو الذي استشهد بالقرب من مدينة توريت، رغم أنَّه قال لي بالحرف الواحد: نعم، أنا أعرفك يا أجانق، وقد تقابلنا في توريت، وكنت في تلك الشاحنة المدمَّرة ولكنني لم أمت!

كان النبيُّ مُنغمسًا في صلاته، يصرخ ويمجِّد الربَّ بخشوعٍ وتضرُّعٍ والمصلُّون يترنِّمون ويغنَّون ويسبِّحون للربِّ بعيونٍ جاحظة، ربَّما كانوا يرون شيئًا لا أراه أنا الوافد الجديد على كنسية القيامة. والحقيقة هي أنَّ هذه العيون الدامعة كانت تنظر إلى شيء أكبر من كلِّ هذا، شيء شبيه بنبوءات توشك أن تتحقَّق. لقد كانت هذه العيون تنتظر أن يقوم هذا الأربعينيُّ الذي مات قبل شهرٍ بالتهام والكمال لينتصر للأموات على الموت.

كان هناك شخصان وسط هذا الحشد المؤمن لا يعرفان أنّ أفكارهما تسير في اتجاهٍ معاكس خلال تلك اللحظة: السيّدة الأولى واقفة في الصفوف الأماميّة، مغمضة العينين، تتمنّى من كلّ قلبها أن تتمّ المعجزة، لأنّها ستعزّز قدرة النبيّ أنطوني على إحداث معجزة عودة السيّد الرئيس التّائه إلى منزله وصوابه؛ وشخص آخر كان يقف بعيداً عنها، في الصفوف الخلفيّة، يضحك سرّاً لأنّه يدرك تماماً أنّ البهلوان الواقف المسيح باسم الله، المدعوّ أنطوني سيكون مصيره الفشل الذريع أمام تلك المعجزة، وهو أمرٌ سيفتح له آفاقاً واسعة مع السيّدة الأولى. وكان ذلك الشخص، هو الرّقيب أوّل سانتينو.

-يا أبانا السماويّ نحن نتضرّع إليك خاشعين، ونبتهل إليك ساجدين، ونركع أمامك آمنين بك وبقوّتك ونعمتك ورحمتك! أبانا السماويّ، ها هو أخونا نتالي راقّد في ملكوتك، ونحن نعلم أنّ روحه ستعود بقوّتك التي تنفخها في جسد خادمك نتالي، وسيجري الدّم في عروقه، ونعلم أنّه سينهض أمام هؤلاء المؤمنين، ويذهب إلى أسرته المكلومة البائسة الحزينة، أسرته التي جفّت دموعها لفقدائها ابنها العزيز وعائلتها. أبانا السماويّ...

كانت تلك صلوات النبيّ الذي لم أعرف أيّ أنطوني بقاري فرانسيسكو كان هو!

كان صوته قوياً مُدوياً، سمعنا على إثره دويّ انفجارٍ على مقربة من الركن الجنوبيّ حيث كان يصليّ والجنّة الهامدة راقدة أمامه. كانت هزّة ارتجّت لها نفوس المؤمنين المنهمكين كأنّهم في محراب، أو معتكفٍ مُقدّسٍ

مفعم بالروح القدس؛ هزة عنيفة أدت إلى اهتزاز إيمانهم وإضعافه، فركض بعضهم معتقداً أنّ معجزة ما قد حدثت وأدت إلى قيام الرجل الأربعيني من موته الأبدي. لكن الحقيقة هي أنّ الميت انتصر حقاً على الأموات، أو هكذا شُبّه لنا، وقام في اليوم الواحد والثلاثين وأخذ يهرول مع الناس لا يعلم إلى أيّ وجهة يتّجه. كان يركض بسرعة الريح كأنّه يحاول الإفلات من عزرائيل وهو يطارده ويكاد يقبض روحه التي نَفِختَ فيها حياة لا يريد أن يفقدها مرّة أخرى.

ترى ماذا سيفعل في حياته الجديدة بعد عبوره إلى الشاطئ المناقض للحياة وعودته مرّة أخرى؟ هل سيعامل الناس بلطفٍ لم يعاملهم به من قبل، أم سيعتكف في معبد ما، ويقضي بقيّة حياته مؤمناً بالربّ والآخرة؟ هل سيعتذر إلى كلّ من أساء إليه عندما كان يمشي بين الناس متعجرفاً؛ يسيء إلى الشيخ ويسبّ العجوز، ويركل الطفل ويبصق في وجوه المتسوّلين؟

تفرّق الناس يحرون لكنّهم توقّفوا فجأة عندما سمعوا النبيّ يطلب منهم ألاّ يخافوا، ويقول إنّ الانفجار الذي حدث ليس إلّا روحاً شيطانيّة تمثّلت في تماس كهربائيّ أدّى إلى انفجار مكبر الصّوت الضخم المنتصب في الركن الجنوبيّ من الخيمة الكبيرة.

عاد المؤمنون وهم يرتّلون ترانيم حماسيّة تطرد الخوف عن نفوسهم المتشكّكة. كان الأطفال يضحكون في خفوتٍ والنساء يوسوسن في همسٍ، والرجال يتبادلون نظراتٍ مخجلة! وكانت الجثّة راقدة ولم تتحرّك قيد أنملة على الرغم من قوّة التراتيل، كأنّها جماد.

أخذ النبي يُصَلِّي بعمقٍ وإيمانٍ وخشوعٍ لم يُصَلِّ به من قبل، وكان ينظر إليّ وأنا واقفٌ في مكاني لم أركض مع الراكضين. كانت هنالك قوّة كونيّة تخرج من النبي في شكلِ جُزَيئاتٍ ضوئيّةٍ صغيرة اخترقت الجثّة المسجّاة أمامه وخرجت من أنحائها كشُعاع أبيض وشكّلت هالةً أحاطت بالنبي وأخفت جسده. فبدأ صدر الميّت يتحرّك كأنّه يتنفّس، وما لبث أن أصدر عطسةً تحرّكت معها المنضدة تحته. أخذت الجثّة ترتفع ببطء شديد تصعب ملاحظته والنبي منهمكٌ في الصلوات والعرق يتصبّب وقطرات منه تحرق عينيه دون أن يعبأ بذلك. ارتفعت الجثّة وأصبحت على مستوى نظر النبي المنهمك في الصلوات والترانيم والابتهالات. شعر الجميع بأنّ أبواب السماء أخذت تنفتح. كنت أتابع الجثّة في صعودها إلى أعلى، حتّى هوت فجأةً ووقفت على رجليها. فصرختُ بأعلى صوتي: هلولويا، هلولويا، هلولويا!

شعرت بأنّ صوتي كان، وسط جوقة المنشدين، سوبرانوياً جعل النبي يصمتُ ويرمقني بقسوة. فأحسستُ بابتلال بنطالي الذي هرّبه لي نياماً داخل المعتقل. حاولتُ أن أستوعب ما يدور حولي بنظرات مسروقة. كانت علامات الاستياء واضحةً في وجوه المؤمنين عندما بدأ النبي يقول إنّ الربّ تحدّث إليه يوم أمس، وإنّ ما أتاه هذا الرجل الأربعيني من أعمال سيّئة لن يُقيمه من بين الأموات.

أحبّبت سوزي وهي تسمع كلام النبي يعلن زيف المعجزة التي كانت، قبل ساعةٍ فقط، تؤمن بحدوثها وأنّ وقوعها سينقذ الرئيس من لوثة عقلية أصابته بها مكالمة الزعيم الشهيرة. وقد وعد النبي بأنّ علاج سيّد البلاد أسهل بكثير من إعادة ميّت إلى حياته الأولى. خطّت

سوزي خطواتٍ، تاركةً الجثّة خلفها ووقفت وجهاً لوجه مع النبيّ. توقّفت الخيمة المهتزة بفعل الهواء ورفع المؤمنون حواجبهم برهةً بينما لاحت على وجه سانتينو الواقف في الصفّ الأماميّ على بعد خطواتٍ منهما ابتسامةٌ غامضة. كانت شفتا سوزي ترتعشان وهي تُحدّث النبيّ بصوتٍ غير مسموع وتلوّح بيدها وذراتٌ بُصاقها تتطاير لتصفع وجه النبيّ المنكمش، فأطرق كمن يُصليّ. تبادل الجميع نظرات تساؤل حينما امتطت سوزي سيّارتها السوداء واختفت وسط غبارٍ أحمر كثيف.

ابتسم أنطوني ابتسامة باهتة وودّع بها المؤمنين الذين كانوا في تلك الأثناء قد بلغوا بيوتهم وأخذوا يتداولون في سرّهم ما إذا كان الربّ قد تحدّث فعلاً مع النبيّ عن أعمال الرجل السيّئة أم إنّ أيّام المعجزات قد ولّت في اليوم الثالث من قيامة لازرو من بين الأموات.

كانت السُّمعةُ التي اكتسبتها ليزا زوجةً أجانق في فترةٍ وجيزة كافيةً لأن تغطّي البلاد من أقصاها إلى أقصاها. فقد شعرت منذ أن التقت عيناها بنظرات أجانق البائسة وهي تضع أوراقاً مائيّة في الحَصّالة المتدلّية من رقبتها في ذلك الصباح البعيد بأنّها فُرِجَتْ أخيراً، وأنّ في نظراتها شيئاً غامضاً، شيئاً يحثّها على النهوض وتقبيل أجانق واني من خدّه، وتمنّي الخير له في كلّ خطوة يخطوها. لم تعرف لماذا اقتحمت تلك الأحاسيس القويّة كلّ جوانحها إلى درجة أن رموش عينيها طرفت قليلاً، كريش طائرٍ، وهي ترنو إليه للمرّة الثانية كأنّها تكتشف فيه سرّاً جديداً.

ذكاء ليزا الماليّ الحادّ مفخرة أجانق أمام سانتينو وأنطوني، كان السبب في اكتسابها شهرةً فاقت شهرة سانتينو الذي أصبح مرجع الحدث التاريخيّ في البلاد، على الرغم من أنّه كان كثيراً ما يأتي خلسةً إلى ليزا ليسألها عن بعض التفاصيل قد يكون أجانق المعتقل رواها لها. «لقد سجتتموه أنتم وزعيمكم هذا يا زفت»، كانت ليزا تستشيط في وجه سانتينو غضباً.

لم يكن أجانق يدرك ما كانت تقوم به ليزا في ذلك الصباح وما تلاه من أيّام وربّما شهور أو سنواتٍ قادمة، فقد سبقت سانتينو الذي انتفع

من رواية القيامة، والنبّي أنطوني الذي أسّس كنيسةً ضخمةً سمّاها «كنيسة القيامة»، وبدأت فعليًا بقراءة المستقبل الكامن في حُبيبات القهوة السوداء الملتصقة بقعر الفنجان، ورمي الودع، وصناعة توائم الحظّ وخواتم صدفيّة وأساور. كان صفّ النساء، أمام منزل ليزا في اليوم الأوّل طويلاً، ولم ينته إلاّ في منتصف الليل حين نهض ابنها إيمانويل من كرسيّه وخرج إلى الشارع ليقدرّ عدد النساء المصطفّات، لكنّ ما رآه كان صادمًا؛ إذ وجد الصفّ ممتدًّا من الركن الجنوبيّ لجامعة جوبا، مارًّا أمام القرن الذي أُصيب ببرودة لأكثر من عام بسبب انعدام الدقيق، لينعطف على طول شارع طمبرة فيلّي الشارع المؤدّي إلى سوق كونجوكونجو. كانت ليزا تلفّ تعويذة بورقة صغيرة ثمّ تغلفها بقماشٍ وِسْخ وتعطّيها فتاةً جاءت تشكو خطيبتها المشغول عنها بعلاقة سريّة مع صديقتها، عندما رأت إيمانويل يقترب منها ووجهه مُحْتَقِن بالكآبة كأنّه يحمل خبر موت.

- يبدو أنّنا لن ننام مدة أسبوع، قال إيمانويل دون أن ينتظر ردّ فعل أمّه عندما كانت تقول للصبيّة: كي تتركه، لا بدّ أن تضبطيه متلبّسًا لتكون حجّتك قويّة، ثمّ أضافت: بمجرد خروجك من هنا، يجب أن تردّدي اسمه مائة مرّة قبل أن تحفري حفرةً بالقرب من بيته وتدفني هذه الورقة.

أومأت ليزا برأسها إلى إيمانويل فأغلق الباب الرئيسيّ بالمفتاح مخاطبًا صفّ النساء في الخارج بأنّ نهاية دوام العمل قد أزفت، وعليهنّ العودة في الغد. قال ذلك دون أن يعبأ بالأصوات التي ارتفعت فجأةً في الخارج، ومنها صوتُ امرأةٍ تتحدّث بصوتٍ يُشبه النواح عن مدى

فعاليّة التميمة الصدقيّة التي أعطتها إيّاها ليزا يوم أمس. فما كادت تبلغ منزلها في حيّ «ليمون غابة» حتّى رأت زوجها بمعيّة سيّدة جميلة، تمامًا، كما تتبّأت ليزا حسب قراءتها لحُبيبات البنّ العالقة بجنبات الفنجان، وقالت إنّها رأت من خلالها وجه الزعيم ينظر إلى زوج المرأة بغضبٍ شديد. وماذا فعلتِ؟، سألتها سيّدة دنت منها، متلهّفة لسماع بقيّة القصّة. لهذا السبب جئتُ إلى ماما ليزا لمعرفة ما يمكن أن أفعله، أجابت. تلمّظت السائلة ومصّت شفّتها بصوتٍ عالٍ فأنصت جميع النسوة في الصفّ: امشي يا عبيطة. وجدّته مع تلك العاهرة، وأتيت لتسألني عمّا يمكنك فعله؟، واستطردت قائلة: لو كنتُ مكانك لكانت تلك القبيحة تنعم بقبرٍ محترمٍ في مقابر النيو سايت!

-نعم عبيطة وغبيّة، قالت أخرى.

عندما دخلت ليزا الغرفة كانت كلارا تحلم بأبيها أجانق الذي اختفى منذ تدفّق الحشود على الضريح وهي تناديه «بابا بابا»، فوقعت حادثة، ترمقها وهي تتبسّم في نومها، ثمّ أدارت ظهرها إلى أمّها وغطّت في نوم طفلة بريئة. وقفت نحو خمس دقائق في وسط الغرفة مرتدية قميصًا أسود بكُمّ طويلٍ ورأسها مُغطّى بخرقة سوداء. كانت قد أقلعت منذ اختفاء أجانق عن ارتداء ثيابها المشدودة وبناطيلها الضيّقة، وكان الرقيب سانتينو يغازلها في شيء من المزاح الأخويّ بقوله: والله يا ليزا، من يراك بهذا البنطال الضيّق يقول إنّك ابنة أجانق! فتضحك من أعماقها حتّى تبرز أسنانها البيضاء وتظهر فليجتها الصغيرة الجذّابة، ويضحك معها سانتينو وأجانق.

أعلنت الحداد بارتداء الأسود دون أن تُفصح عمَّن مات لها. وعندما تسألها ساندرا بائعة الشاي أو جارتها المجنونة أو أبراهام الأثيوبي الذي لا يشم شاردةً أو واردة في الحيِّ إلا حشر أنفه الخنزيريِّ فيها، كانت تضيِّق ما بين حاجبيها وتترقق عيناها بالدموع. إنَّها حزينة لا اختفاء أجانق، بيد أن شيئاً داخلها كان يطمئنُّها ويجعل حزنها أخفَّ وطأة، شيئاً يظهر لها أحياناً في ساعات القيلولة عندما يترأى لها شبح أجانق قادماً إليها، فاتحاً ذراعيه، لترتمي هي في حضنه كما كانت تفعل عندما كان إيمانويل طفلاً صغيراً. كانت على ثقة بأنَّه سيعود يوماً كما غادر في ذلك الصباح البعيد خلصةً.

فكَّت ليزا الطرحة السوداء عن رأسها وأزرار قميصها الأسود وبنطالها الطويل، ثم ارتدت جونلة نومها. لقد تمكَّن منها التعب فتلاشت رغبتها في عدِّ النقود كما كانت تفعل يومياً قبل أن تصليَّ الصلاة الربانية «السلام عليك يا مريم» وهي تمرُّ أناملها الرقيقة على حبَّات مسبحتها الخرزية برفق.

أيقظها هواءٌ باردٌ وهي متكورة في سريرها بجانب الطفلة كلارا، فعرفت أنَّها نسيَت بابيَّ الغرفة والشرفة مفتوحين. نهضت لتُغلق باب الشرفة فرأت شبحَ إنسانٍ جالساً على كرسيِّ الخيزران خلف الباب. سألت وساقاها ترتجفان: من هناك؟ فهمم الشبح، وأدركت ليزا أنَّ هذه المهمة لا يمكن أن تصدر عن أيِّ إنسان في العالم، حتَّى ولو خُلِق من شبهه خمسون شخصاً، غير أجانق واني المختفي. أضاءت لمبة الولاة فكشفت عن وجهٍ متجعَّد جائع، وهيئة رثَّة مفزعة، فذرفت دمعين ساختين قبل أن تحضنه طويلاً متحمِّلةً رائحته المُقرزة في صمت.

حدّثها أجانق، وهو يشرب حساء لحم الضأن الذي يستطيعه، عن ظروف اختفائه. وهي تنتحب وتمسح سائل أنفها في الظلام وتشهق بصوتٍ مكتوم. أخبرها بأنّ عليه أن يغادر قبل انبلاج الصباح كي يتسلّل إلى المعتقل حيث ينتظره الأمنيّ نيمايا المهربّ عند السور الخلفيّ. أجهشت ليزا وهي تلملم أطباق الطعام بينما ذهب هو ليستحمّ، وقد كان لوقع الماء على جسده بعد شهور الاعتقال إحساسٌ لذيد.

لم ينما طيلة ساعات اللّيل التي بدت، على طولها، قصيرةً ومختصرةً وملتهبة بلهفةٍ وحُبٍّ كلقاء عاشقين لأوّل مرّة. لم يعرفا كم مرّة لعبا لعبة الحبّ رغم أنّ أجانق وجدها عصيّة جدًّا فأحدث في ليزا خدوشًا لم تشعر بألمها. فقد كان كلّ شيء جميلًا ولذيذًا بالنسبة إليهما، وكان القمر المضيء يشهد على ذلك.

وعندما أرادت ليزا أن تتقلّب في السرير لتضع يدها حول خصر أجانق، جاءها صوت كلارا، يسبقه ضوءٌ شمسيّ قويٌّ انسَلَّ إلى داخل الغرفة، وقد تخلّلت أصواتُ نسوةٍ مصطفات في الخارج في انتظار ما تحبّنه هنّ نبوءاتها الصادقة. هكذا هي الأوقات الجميلة دومًا، تأتي وتذهب سريعًا كلمحة بصرٍ دون أن ندرك كيف انقضت.

حين خرجت ليزا من غرفتها في وضوح النهار بوجهٍ لامعٍ وخدّين متنفخين وجفنين متورمين سعادةً، لم يتعرّف إليها ابنُها إيمانويل من أوّل وهلةٍ، فقد كان شعرها معقوصًا ووجهها باسماً، وبلوزتها وبنطالها يكادان يتمزقان من ضغط جسدها، فأشاح بوجهه عنها عندما حدّقت فيه بنظرة لومٍ. يبدو أنّ الكآبة والحزن اللّذين اتّشحت بسوادهما، قد

زالا تمامًا دون أن تُعلن عن أسباب ذلك. كانت عيناها الكبيرتان بفضل القوس المرسوم فوق الحاجب المنموص أكثر اتساعاً، ونهداها، من شدة انتصابهما أو ربّما من ضيق البلوزة، يهتزّان بحيويّة طاغية. شدّت أزراها فبان الأخدود الإفريقيّ بين النهدين، عميقاً غائراً أرغم سيّدة تتضوّع بعقب السلطة على أن تفغر فمها دهشةً وهي تعانين تينك الحلمتين البارزتين كأنّهما حبّتا عنبٍ نضجتا وحن قطافهما. فحصتها ليزا بطرف عينيها وهي تُشير إلى بعض الصبايا اللواتي ينثرن الماء على تراب الأرض لتلطيف الجوّ ومنع الغبار، وينفضن المقاعد الوثيرة التي اشترتها قبل أيّام عندما بدأ سلّم طبقة زبائنها يرتفع قليلاً ليشمل بعض سيّدات الأعمال وزوجات مسؤولين حكوميين. ألقت ليزا دون اهتمام كبير تحيّةً على تلك السيّدة التي ظلّت تتفحصها من خلف نظّارتها الشمسيّة السوداء وهي تهزّز بتوتّرٍ رِجلها اليمنى الموضوعة فوق اليسرى، وتنوّرتها الضيقة تصل إلى منتصف فخذها النّصرين.

-أهلاً، ردّت بإنجليزيّة محشوّّة ولكنّه شرق إفريقيّة صدئة، ثمّ أومأت إلى اثنين من رجال حراستها بالابتعاد فذهبا وجلسا تحت شجرة الجواقة المنتصبّة أمام المطبخ حتّى لا تحيد نظراتهما عنها قيد لحظة.

نظرت يمنةً ويسرةً فلم تر سوى إيمانويل الجالس عند الباب الرئيسيّ فبدأت تسرد حكايتها.

كانت ليزا شاردةً الذهن وهي ترمقها باستغرابٍ شديدٍ، ليس لأنّها تسرد حكايةً غريبةً عن اختفاء زوجها، سيّد البلاد الأوّل، أو

لأنّها مرتبطة بالزعيم المنبعث من بين الأموات، بل لأنّ مفرداتها المنتقاة بعناية دقيقة، والمنطوقة بطريقة جذّابة، جعلت اللّغة العربيّة على لسانها لغةً جديدةً أخرى اخترعتها نُخبةٌ عجيبةٌ من نساء المسؤولين.

ختمت سوزي حديثها الطويل بقولها إنّها جاهزة لتدفع أيّ مبلغ، شرط أن يعود إليها زوجها في أقرب وقت. «لا تقلقي يا أختاه، إنّ زوجك حيّ يُرزقُ»، كلمات مطمئنة لفظتها ليزا مثلجّة صدر سوزي فأخذت تمسح وجهها المندي بالدموع وهي تُردّد: «أخشى ألاّ يعود إليّ. لقد رأيته مراراً في أحلامي يودّعني من بعيدٍ بابتسامةٍ غامضة!»

أخفقت ليزا في عدّ النقود التي نقدتها إيّاها السيّدة سوزي، وعجزت، على الرغم من حصافتها المشهودة، عن تحيّل قيمة المال الذي جناه قديس «كنيسة القيامة» النبيّ أنطوني، من وراء تلك السيّدة النبيلة القانطة، مقابل أن يعود إليها شريك حياتها يوماً ما.

كانت صلواتُ كنيسة القيامة من أجل الرئيس المختفي تبدأ قبل مغيب الشمس وتستمرّ طيلة ساعات اللّيل الحالك، إلى أن يكسو البياض الشاحب وجه الفجر بتراتيل خاشعة، تجعل سوزي تغيب في غفوة عميقة حالما تعود إلى منزلها، فتحلم بزوجها يُجالسها على مائدة الطعام وهو يطلق نكته ومزاحه المضحك، وتراه أحياناً أخرى وسط ثلّة من المشتريين المُلتحفين بالكراتين، يضع خرقةً قدرة في فمه ويمصّ منها بنشوة لا تُخطئها العين مادّة السيلسيون المخدّرة فتستفيق من نومها مُشوشة ومضطربة غارقة في عرقها وهي تسأل الربّ أيّ جناية ارتكبتها كي تتعذّب وتتوجّع هكذا. ساءت أحوال سوزي، والنبيّ يشرب لبن تلك البقرة الحلوب بمنحها صلوات، أطولها تتكوّن من ثلاثة أسطر،

لتردّدها في المنزل كي تزجر الأرواح الشيطانيّة التي احتلت مكان زوجها، ثمّ تحتّمها بتراتيل انتقاها الروح القدس من مزامير داود وأخرى من نشيد الأنشاد في العهد القديم، كما قال النبيّ أنطوني.

-عليك بتلاوة الصلاة الربانيّة خمسين مرّة و«السلام عليك يا مريم» خمس مرّات بعد الانتهاء من التراتيل مباشرة، هكذا كانت تعاليم النبيّ أنطوني.

صارت مدام سوزي شاحبةً كظّل غبار، ولكنّها لم تكن تتردّد في ترتيل تلك الآيات والأسفار والصلوات، بل إنّها أخذت تردّدها أكثر من الجرعات المقدّسة التي منحها إيّاها النبيّ؛ «لقد رتلتُها مائة وخمسين مرّةً يوم أمس أيّها النبيّ»، كانت تقول. فبيتسم النبيّ ويضيء وجهه، أمّا نظراته المتلصّصة مخترقةً جسد سوزي فلم تكن مقدّسة على الإطلاق. وقد تحمّلت تلك النظرات المريبة، كما تحمّلت الأعباء الماليّة المدفوعة لكنيسة القيامة كعشور يدفعها المؤمن شهريّاً من حرّ ماله، ولم تدرك كيف تتصرّف معها إلى أن حدث ما سمّاه النبيّ «زلّة قدم مؤمن»، في حين لم تخطئ سوزي في تسميتها أمام حشد المؤمنين الذين اكتظت بهم الكنيسة، باسمها الصحيح.

بعد أربع ساعاتٍ من الصلوات غير المنقطعة، والمؤمنون يسبحون ويمجدون الربّ، جاء وقت المعجزات حين دعا النبيّ كلّ مريضٍ أو شخص يُعاني إلى أن يتقدّم نحو المنصّة؛ وسرعان ما وصل إلى المنصّة رجلٌ مُقعّدٌ يجلس على كرسيّ متحرّك يقوده ابنه، تلتّه مدام سوزي بنظراتها السوداء، وهي ترتدي ثوباً إفريقيّاً ملوّناً، وقد غطّت شعرها بقلنسوة

كبيرة شبيهة برأس قطية أخفت وجهها قليلاً، وقفت بالقرب من النبي أنطوني فلم يعرفها. ثم امتلأت المنصة بعشرات المعاقين بعضهم محمول وبعضهم يمشي وهو يهز رأسه هزاً، وآخرون يرمقون الناس بنظرات تائهة كأنهم وجدوا أنفسهم فجأة في عرس. همس النبي: «السيدات أولاً»، فخفضت جوقة المرتلين أصواتها، وجعل العازفون إيقاع آلاتهم الموسيقية بطيئاً. وبابتسامة لا تُغادر شفثيه أبداً، مدّ أحدُ مساعدي النبي أنطوني مصدحاً لاسلكياً إلى مدام سوزي لتحكي قصة معاناتها كي تُنزل عليها صلوات المؤمنين والنبي معجزةً سماويةً. أمسكت سوزي المصحح ونزعت النظارة السوداء عن وجهها، فارتسمت على وجه النبي ابتسامة باهتة مصطنعة لأنه لم يتوقع أن تأتي سوزي إلى المنصة، طالما أنه جهّز لها جُراتٍ جديدة من الصلوات، بديلةً من تلك الخائبة. «ربّما فقدت تلك الصلوات صلاحيتها»، همس مساعد النبي في أذنها، حين اشتكت من عدم حدوث أيّ تغيير في حياتها خلال أسبوع.

-يا أيّها الناس، قالت سوزي، فقاطعها أحد الأعوان: هنا ندعوهم مؤمنين يا أختاه، وليس أناساً.

لم تلقِ سوزي له بالاً، إذ يبدو أنها جاءت عاقدة العزم على ألاّ تُزعجها مقاطعة أيّ أحدٍ لها حتّى ولو كان النبي ذاته.

-يا أيّها الناس، إنّ هذا المدعوّ نبياً...

بدأت همهمات خافتة هنا وهناك وسط حشد المؤمنين، فابتلعت سوزي ريقها ورفعت عقيرتها بالكلام:

-نأتي جميعاً إلى هذه الكنيسة ونحن نؤمن بالربّ والمسيح ابن

العدراء مريم، نؤمن بأن صلواتنا خلف نبينا المَبَجَّل أنطوني
ما هي إلا صلواتٌ مقدّسة طالما أن نبياً مقدّساً مثله يقودها.
هللويا... هللويا.

ردّد الحشد كلمة «هللويا» وراء سوزي وهي تروح وتغدو حول
موضوع مُبْهَم كأنّها سياسيٌّ يتسوّل أصوات ناخبه. تململ بعض
المؤمنين ورمقها الآخر بامتعاض وملل. صمتت برهةً. حدّقت في وجه
النبيّ فاخرقت نظراتها صدره وشعر بها كخنجر يغوص عميقاً في
أحشائه. أحسّ كلامها إعصاراً عنيفاً يدور حوله، يُضَيِّق محيط دائرته،
يقترّب منه أكثر، وقد يتلعه في أية لحظة. أخرج من جيب بذلته البيضاء
منديلاً زهرّي اللون ومسح قطرات الندى من جبهته البرّاقة ورمق
المؤمنين فرأهم يشعرون بألمه، ألم في مكان ما، يشعر به ولا يدرك موقعه.
كلّكم تعرفون أنّ زوجي، السيّد الرئيس، اختفى. وكلّكم تعلمون
أنّي أنا والبلاد وأنتم وأسرتي قد وضعنا كلّ آمالنا وصلواتنا في يد الربّ
إلهنا والنبيّ قدّيسنا...

جاء صوت الحشد عالياً.. هللويا.. هللويا آمين، وارتفع معه
عزف لاستهلال ترنيمة تسبيحية ثمّ خفت فجأة.

-لقد دفعت العصور والعشور لهذه الكنيسة. ألم يقل: كُلِّ وَاحِدٍ
كَمَا يَنْوِي بِقَلْبِهِ، لَيْسَ عَنْ حُزْنٍ أَوْ اضْطِرَارٍّ، لِأَنَّ الْمُعْطِيَ الْمُسْرُورَ
يُحِبُّهُ اللهُ.

-هللويا.. هللويا.. كم أنت عظيم يا رب، هتف شابّ كان يقف
في الصفّ الأخير.

- لكنّ ما لا أفهمه، أردفتُ سوزي، هو كيف يصبح الجسد بديلاً
من العشور يا مؤمنين؟ كيف؟

رفعت سوزي عقيرتها بالكلام، ملوحةً بيدها في الهواء، وهي
تسرد سيئات النبيّ التي استهلّها بنظرات شهوانيّة كذبّتها أوّل الأمر
قائلةً إنّ من يفعل المعجزات لا يمكن أن ينظر إلى مغريات الحياة. لكن
يدو أنّ النبيّ كان في تلك اللحظة بالذات، يخلع عنه الإيمان الذي يظهر
به في كنيسة القيامة ويخبّئه في مكان ما.

لم تشعر سوزي بهبوط الليل سريعاً في تلك الأمسية والنبيّ
يصلّي واضعاً يده المرتجفة على رأسها، فأدركت أنّ الروح القدس قد
نزلت عليها. وشعرت بدماء غزيرة تتدفّق في رأسها ثمّ خديها وعنقها
وصدرها ثمّ تبلغ قدميها، شعرت سوزي بتلك الدماء فأغمضت
عينيهما وهي ترى حمائم بيضاء تُحلّق فوقها وكائنات جميلة تحمل زوجها
التائه وتضعه برفقٍ في حضنها، فمسّدت وجهه الذي افترّ ثغره عن
ابتسامة عشقٍ، وعانقته بنهم.

استفاقت سوزي وعلى فمها ترنيمة شكر للنبيّ، وكانت المفاجأة
التي لم تستوعبها أبداً - حتّى بعد أن عقدت العزم على قراءة كلّ أسفار
الكتاب المقدّس بعهديه، القديم والجديد وأكملتها في ستين يوماً - هي
كيف انتهت كلّ الصلوات المُستجابة بالنبيّ أنطوني وهو فاقد الوعي في
حضنها.

وقفت سوزي في مسبحة كنيسة القيامة تحكي تجربتها المريعة مع
النبيّ أنطوني الذي شعر بقطرات عرقٍ ثلجيّة تجري في عموده الفقريّ

وتتجمّع في تّبانه بين رجليه. لم يسمع معظم المؤمنين ما قالته سوزي، فكلّما كانت ترفع صوتها، يرفع مايسترو جوقة المنشدين يديه عاليًا، فتطغى الأصوات الموسيقيّة الأربعة على صوتها الشجيّ وتختفي كلماتها كعملات معدنيّة في بركة آسنة.

رمت سوزي المصحح في وجه النبيّ بغضبٍ، ونزلت من المنصة مغادرة الكنيسة. فغمغم المؤمنون ونزل عليهم بردّ قارس وهم يفتّشون بين ثنایا إيمانهم عن مثل هذا التصرف الذي قامت به المؤمنة سوزي، وهو تصرف يتنافى مع روح الكنيسة. ووشّح النبيّ وجهه المتقلّص بابتسامة بريئة وقال متلعثمًا: هلولويا.. هلولويا. فبدت عبارته ممسوخة، ونزل على فضاء الخيمة هدوءٌ فظيعٌ. ثم استلّ النبيّ نبرة التردّد من حنجرتة بهممة، فخرج صوته قويًا واثقًا:

-كلّكم تعرفون أنّ مدام سوزي تمرّ بحالة نفسيّة سيّئة، ويجب علينا نحن المؤمنين الصلاة من أجلها.

رنت ليزا باستغرابٍ إلى عينيّ سوزي وهي جالسةٌ تحت الراكوبة تحكي قصّتها مع النبيّ أنطوني وكنيسة القيامة وتتمنّى أن تلتهمها النار قبل يوم الحساب، فاستبدّت بها تساؤلات جمّة. ولم تكن لحيرتها علاقة بالروح القدس إذ نزلت في هيئة النبيّ أنطوني وهو في دفء حضن السيّدة الأولى، بل بنظرات الإغواء التي استشفّتها من عينيّ أنطوني عندما زارها قبل يومين، في منزلها، للاطمئنان على زميله أجانق واني المختفي، حتّى إنّها خالت نفسها نادلةً تتعرّض لتحرشات سكّير خسيس في بار الأثيوبيّ أبراهام.

لا يحتاج شيوخ أيّ خبر في حيّ مثل «أطلع برّه» عناء كثيرًا من المتلقّي طالما أنّ حبّ الاستطلاع والتطفّل وحشر الأنوف في كلّ شيء هو من أسهل الأشياء التي يقوم بها ساكنوه بأريحية شديدة، فقد يكون الشيء الوحيد الذي يدفعك إلى الحصول على أيّ خبرٍ في حيننا هو الخروج إلى الشارع والاصطدام بأيّ شخص، وإن كان طفلاً، ليُتخَمَك بكلّ صغيرة وكبيرة حتّى ما أنت في غنى عن سماعها، مثل اصطدام صهريج مياهٍ بكلبٍ ضالٍّ أمام البنك المركزيّ.

عندما خرج سانتينو من منزل ليزا يوم أمس، وسط عشراتٍ من حرّاسه وعلى أكتافهم العريضة بنادقٌ مختلفة وعيناه تشعّان بنظرات الموت الوشيك، كان موضوع قدومه إلى منزلها علكةً في السنة النسوة اللواتي يصنعن الشاي على قارعة شارع طمبرة، والشبان الذين يرتشفون القهوة.

صبّ أبراهام الأثيوبيّ لنفسه قدح براندي غير مكسورٍ بهاء التونيك كي يصفّي عقله، ثمّ همس في أذن عم جادا بائع الورد: قد يؤدّي هذا الخبر ذو العيار الثقيل إلى تصلّب شرايين المخ وفقدان الذاكرة على أقلّ تقدير، إن لم يستخدم المرء واقياً يُبعد عنه صدمة لا تقلّ عن صدمة قاطرةٍ تسير بسرعة 180 كم في الساعة. وعندما مرّت ساعة كاملة،

وبدأ الظلام ينشر لونه الفاحم على شارع فيس بوك تتخلله ومضات لمبات، وشرارات نيران النرجيلة تتطاير في الهواء، أخذ سوس القلق ينخر قلب أبراهام، فرشق بائع الورد بنظرة جعلته يتبسم في وجهه بلامبالاة، ولسان حاله يقول: لا تقلق يا سيدي، فكل الأخبار تأتي إلى هنا برجليها، وربما وجدناها تتسكع في شارع حي الثورة أو بالقرب من دكان جوني، فإن اختفى مثل القاتل المجهول، ليلاً، فلا بد أن نجده صباح الغد يشرب الشاي في مقهى ساندرالو الوضيع!

تأفف أبراهام حين أخفق في استنطاق عم جادا الذي دلف إلى الشارع الرئيسي، لعله يلتقي وجهًا لوجه مع من يروي ظمأه الملتهب في صدره. لكنه عاد بوجه مكتئب، يسحب رجله الثقيلتين.

كان الدرس الذي لقنته ليزا لـ «سميرة الكبيرة» القاطنة في الشارع الخلفي لمنزلها، قد ألزمها منزلها سبعة أشهر أصبحت فيها كتمثال، تفرص فوق سريرها ولا تبرح سجنها ذاك إلا حين يُرغمها نداء الطبيعة الذي أصبح ملحاحًا في تلك الأيام، بيد أنها توكت على عكازين وهي تن في صمتٍ وذهبت إلى منزل ليزا في الساعة الخامسة صباحًا. ضباب صباحي كثيف يلف الجو بكآبة، جعل سميرة تنفث بخارًا دافئًا من أنفها. وقفت أمام منزل ليزا متنصتة، ثم تلفت إلى شارع فيس بوك فبدا كعجوزٍ يتشاءب. أمالت رأسها وألصقت أذنها اليسرى بباب الصفيح فلم تسمع حركة. لم تكن سميرة تنوي، في زيارتها تلك، رؤية ليزا وجهًا لوجه لأنهما كانتا متخاصمتين لكنها كانت ترغب في تأكيد خبر سمعته من بائع الورد ليلة أمس حين قال إن حدسه يخبره بمغادرة ليزا هذا الحي في أي وقت؛ قال عم جادا «صدّقيني يا سميرة أنا أثق بحدسي

أكثر من ثقّتي بالكتاب المقدّس!». قرعت الباب بقبضة يدها بهدوء في البداية، ثم زادت من الطرقات حتّى أصبحت كضربات طبولٍ عشوائية. أخذت سميرة تضرب بعكازها على الأرض بغضبٍ وهي عائدة إلى منزلها بخفّيّ حُنين. كان لا بدّ لها من تلقّي أيّ خبر ذي علاقة بليزا مهما كان ثمنه. وكانت ضربات عكازها على الأرض، وهي تعضّ شفّيتها، تقع في ذاكرتها كحوافرِ فرسٍ تمتطيها ليزا وتركض سريعاً بين تجاويف رأسها.

وتعود أرواح الانتقام الشيطانيّة القابعة في دواخل سميرة الكبيرة إلى حقبةٍ ليست ببعيدة حين فضحتها ساندرا في جلسة القهوة المسائيّة المقامة في منزل سميرة بأمرٍ يخصّ ليزا.

في تلك الأمسية، كان الأفق الغربيّ الممطر يبدو كأرجوحة شبكيّة معلّقة في السماء وجاهزة كي تستلقي عليها الشمس بعد نهار يوم مرهق. وحين اقتحمت ليزا جلسة القهوة بعد حقبةٍ من الوقت دون دعوةٍ من أحد، صُغت سميرة الكبيرة من دهشة المفاجأة. ولكنّ ليزا جلست على أقرب مقعدٍ وصبّت لنفسها فنجانَ قهوةٍ دون سُكّر وشربته دفعةً واحدة غير عابئة بسخونته وهي تتمعّن بنظراتٍ مُحَرّضة في وجوه النسوة التائهات في صمتهنّ، ثمّ ثبّتت عينيها على سميرة فأحسّت بكائناتٍ صغيرة تمشي تحت جلد رأسها وسقطت قطرةٌ عرقٍ من عنقها ثمّ تدرجت واختفت في بدنّها.

أدركت سميرة بحدسٍ الخبيرة أنّ ما حدث أمامها للتوّ هو مؤشّرٌ على أمرٍ لا تُحمد عقباه.

كانت الموسيقى المحمولة على أجنحة نسائم المساء المرفرفة هادئةً
موحية بأنّ الوقت ما يزال طفلاً يحبو بالنسبة إلى رّواد خماره شارع
فيس بوك الشهيرة التي لم تنتعش تجارتها البائرة إلّا بعد قيامة الزعيم.
لَمَلَمْتُ ليزا أطراف ثوبها المزركش بيدٍ وبالأخرى أوَمأت إلى سميرة
الكبيرة بأن تقول ما قالته في صباح ذلك اليوم:

-ماذا تقصدين؟ سألت سميرة.

-أقصد عُهركِ الذي لا يتوقّف عن التفوّه باسمي!

-يا ساتر يا ربّ! وبماذا تفوّهت أنا؟

-دعيني أذكركِ يا سميرة، لعلّ حياة العهر التي تعيشينها تنزلق
بكِ نحو الشيخوخة والخرف بسرعة البرق.

-لا داعي للإساءات يا ليزا، لا داعي! صرخت سميرة.

-أنتِ كُلّكِ قذارة وإساءات من قَمّة رأسكِ إلى أخمص قدميكِ يا
سجّم الرّماد.

-ليزا يا بنت أمّي!

قالت سميرة ذلك بصوتٍ مصحوبٍ برعشةٍ وهي تبصر عيني
ساندرا وقد أشاحت بوجهها بعيداً.

كانت ليزا في الحقيقة على علم بما قالته سميرة لساندرا في الصباح،
داخل مطعمها الصغير.

كان الوقت مبكّراً وساندرا تُشعل النار على موقد الفحم، عندما
اقتحمت سميرة المقهى مع بزوغ شمس ذاك اليوم. وكان شذى دخان

طلح ليلة الأمس ما يزال عالقا بشنايا فستانها فعبق حضورها في المكان.
وهو ما جعل عم جادا الجالس خلف المقهى يضع قدح قهوته على
الأرض وهو ينظر بعين قلبه إلى السماء ويهتف كمراهق يرى سيّدة عارية
لأوّل مرّة: محظوظ ابن العاهرة الذي تنعم بتلك الرائحة ليلة أمس!

وسرعان ما انفجرت ضحكة مشحونة بشبقٍ أنثويٍّ خليعٍ وعبرت
النافذة التي كان يجلس تحتها الكائن المئويّ عم جادا، فأيقظت ذاكرته
لتعود به إلى عهدٍ غابرٍ سحيقٍ، وسرّت في بيضتيه رعدةً جميلةً انتقلت
إلى أعلى ودغدغت شيء الميّت، ثمّ تلاشت في منطقةٍ ما من تفكيره
فصاح بصوته المبحوح: قهوة يا ساندرا!

عرف جادا أنّ الضحكة المنبثقة عن تلك النافذة لم تكن لغير تلك
الغانية ذات القوام الرّشيق والجسد اللّامع الممتلئ والأرداف الطريّة
المترججة، وهي ترسم بمشيتها ملامح أنثى ساخنة وحارّة ومثيرة
تجعل قلب الشيخ والشابّ والصبيّ المراهق ينبض بسرعةٍ فيظلّ يحدّق
بشغف، كما يفعل طلاب المدرسة الثانويّة أمام منزل سميرة الكبيرة.

لم يكن يهمّ جادا شعور الرعدة التي نقلتها إليه ضحكة سميرة
كشحنة كهربائيّة عالية، فقد كان يعلم جيّدًا أنّها لا تُغادر بيتها في
هذه الساعة الصباحيّة المبكرة إلّا وهي تحمل في جعبتها شائعة أرقت
مضجعها وطردت النوم من عينيها طوال الليل رغم البخور الفائح من
جسدها، أو تُريد أن تتأكّد من خبرٍ ما. الاثنان خير لي: قال جادا.

كانت ساندرا تصغي إليها غير عابئة بوعاء البُنّ الذي جفّ ماؤه
واحمرّ نحاسه على الموقد. أراد عم جادا أن يصيح منبّها ساندرا لتأتي

بقهوته بيد أنه حين سمع سميرة تتكلم همساً، مدّ عنقه طويلاً واتسعت عيناه بطريقةٍ توحى بأنّهما تتذكّران أياماً كانتا تبصران فيها العالم جميلاً ومختلفاً عن الوقت الحاليّ. دفع أذنه اليسرى بإبهامه إلى الأمام ليجعلها تتأهّب لاستقبال إشاراتٍ غامضة آتية عبر تلك النافذة الضيقة، فبعد أن أخذ سمعه يخلّده في السنوات الأخيرة، طوّر نظاماً غريباً يعمل كجهاز مرس، يلتقط به إشاراتٍ ورموزاً ثم يفكّكها بسرعة ليكون منها جملاً مفيدة. وقد تمكّن بائع الزهور، من خلال همسات سميرة وهدوء ساندرّا، من فكّ مغالِق ما وصله وهو جالسٌ على دكّة الخشب، فابتهج. ولم تمضِ بضعة دقائق حتّى جاءته ساندرّا بقهوته المُرّة، لكنّ عمّ جادا كان هناك في وسط شارع طمبرة، يضرب بعصاه يمنةً ويسرةً رافعاً رأسه إلى الأعلى، يظنّ من يراه في تلك اللحظة أنّ هذا الشارع القديم الطويل قد أصبح في لمحة بصر ملك هذا العجوز الغريب الذي يقول عنه الناس إنّّه إحدى معجزات المدينة، فهو يبصر ستّة شهور ويظلّ أعمى في الشهور الستّة الأخرى.

خرجت سميرة وتبعتها ساندرّا، وهما تتواعدان على أن يظلّ ما دار بينهما مثل سرٍّ دُفِن مع ميّت، وضحكتا وهما تضربان يديهما مطمئنّتين.

كان اليوم قد بدأ بحياةٍ جديدةٍ في شارع طُمْبُرا وشارع فيس بوك وبالقرب من جامعة جوبا، عندما رفعت ساندرّا رأسها وتطلّعت إلى شخصٍ يهرول ويضرب الأرض بعصاه. أدامت النظر فاستوثقت من أنّ ما رآته هو المئويّ جادا بجسده السمين وكرشه المتهدّلة وشعره الأشيب، فاستمهلت سميرة وأومأت إليها بأن تنظر إلى هناك. ولم تكن

سميرة لتُدقّ كثيرًا، فقد كان مشيه وهو يرفع صدره ورأسه عاليًا كفيلاً بأن يجعلها تهتف في وجه ساندرا، وتقول بثقة عمياء: «مادام عم جادا قد اختفى عند نهاية شارع طمبرة، فإنّ ما دار بيننا، سيحلّق في أقلّ من ربع ساعة، في آفاق أحياء «أطلع برّه» الثلاثة».

- بنت أمي ليست عاهرة ونّامة يا سميرة..

قالت ليزا، كأنّها بداخلها صاروخ صغير، ثمّ قفزت بجسدها النحيل فوق سميرة التي لم تُعطَ فرصة الردّ على تلك الجملة. فأطلقت صراخًا حادًا يُشبه زغرودة وهي تُغطّي عينيها الغارقتين في الدم بينما أخذت ليزا تجذّ شعر رأسها وتصفعها وترسم بأظفارها الطويلة خدوشًا في عنقها البضّ. وسرعان ما اقتحم الجيران والمارّون والأطفال القادمون من المدارس منزلها وشرعوا يتفرّجون على تلك المصارعة المجانيّة. وبعد لأيّ، تمكّنت النسوة من نزع ليزا بعد أن مزّقت فستان سميرة القصير المكشوف اليدين، فضحك الأطفال وقهقهه السكارى الذين كانوا يركلون الهواء مع كلّ ضربةٍ تهبها ليزا إلى سميرة الباكية.

نزعت عجوز ثوبها وسترّت به جسد سميرة، ثمّ أخذتها ثلاث نساء إلى غرفتها، أمّا ليزا فقد ألقت نظرةً فاحصة على وجوه عضوات جلسة قهوة المساء فرأين في نظراتها شرارة وعيد تطاير، ورفعن رؤوسهنّ متطلّعات إلى أفقٍ بعيد. ولما أفسحن لها الطريق مضت بينهنّ كأسد يمشي متبخترًا وسط لبّواته، مرفوعة الرأس، تتقصّى الكائن المئويّ عم جادا الذي وقف هناك يتلمّظ. ولم تمرّ لحظات حتّى تخطّت ليزا عتبة باب المنزل وصفقته خلفها بفضاظة، وصاح عم جادا قائلاً: سمعتها

تقول إنّ ليزا على علاقة بالزعيم! كيف يستقيم هذا يا قوم، هل يقيم
الأحياء علاقات مع الموتى؟

نهضت سميرة مثاقلة، تئنّ أنيناً متزامناً مع احتكاك مفاصلها. مضت ببطءٍ إلى ساحةٍ خلف غرفتها، وصاحت من خلال فتحة سور بيتها المصنوع من البامبو، مُناديةً النادلة الأريترية من بار أبراهام الأثيوبي، فظنّت النادلة أنّ عليها خفض صوت جهاز الإستريو، وقد كانت الفنانة الإثيوبية حنا ملّس تشدو فيه بأغنية رومانسية توافق ذوق بعض السكارى المنغمسين في رقصاتٍ ماجنة، وهم يهزون خصورهم وصدورهم، ويضربون بأرجلهم على الأرض، وأقمصتهم مبلّلة بالعرق والنشوة. خفّضت النادلة صوت الجهاز، ولكنّ سميرة الكبيرة نادتها مرّة أخرى، فعلمت النادلة أنّ المسألة لا علاقة لها بالموسيقى الصادرة بل بشيء آخر. أزاحت سميرة أخشاب القنا بيديها، وتوجّهت إلى النادلة من دون أن تردّ سلامها:

-ماذا يقول طبيبك المزيف هذا؟، سألت سميرة، وهي تعني أبراهام.

-يقول أشياء كثيرة سيّئة، ردّت النادلة القصيرة.

نادى أبراهام النادلة فعادت مسرعةً، وشعرت سميرة بقشعريرة خيبة باردة تسري تحت جلدها، وعادت إلى سريرها تتجرّع مرارة سدّت حلقها وهي تسبّ صاحب البار.

- ما الأخبار الآتية من سميرة قليلة الحياء؟، سأل أبراهام الأثيوبي
النادلة بلهفة.

كان الشغف إلى سماع ما قالته سميرة ينهش سريره. أرهف
جميع من في البار آذانهم متأهبين لسماع شيء يبدو أنه أهم من أي قرار
جمهوري تصدره مؤسسة الرئاسة. عم جادا، ذلك الكائن المثنوي،
تظاهر بأنه مخمور وتعمد الوقوع مرتين من فوق كرسيه، فساعده أحد
الزبائن حتى يقف على رجله، وفي المرة الثالثة رفعه عسكري الحراسة
وطرده، لكنه عاد متسللاً كي يسمع خبر الموسم الشبيه بقيامة الزعيم.
أما بائع صناديق الموتى الذي كان يقضم رغيف خبز جاف بعد كل
جرعة يسكبها بنهم في فمه الكبير، فقد كان مستاءً لأن أمنيته، كما قال
لأبراهام، هي أن تكون وراء خبر اختفاء ليزا معجزة كبيرة تُنعش تجارته
الكاسدة منذ إعدام أشباه الزعيم في المحاكمة الظلمة الشهيرة.

- كنت أبيع خمسين صندوقاً في اليوم الواحد، قال وهو يهز رأسه
متأثراً.

رمقه زبون بنظرة تشاؤم وفزع، وعلق أبراهام ضاحكاً:

- لم أجد في هذه المدينة من يتمنى الموت للبشر ليُنعش تجارته.

كانت أمسية صيف جميلة وصافية، تحلقت فيها ثلاث من بائعات
الشاي حول ساندرا، وقد كانت تجهز موائد العشاء أمام كشكها
بالقرب من كبري طمبرة، وأنصتن إليها وهي تحاول ألا ترفع صوتها
خشية أن ينقل الهواء كلامها، فالهواء نَقال كلام، كما كانت تقول.

- يقال إنها هربت إلى رواندا، قالت ساندرا وهي تتلفت حولها.

- لا يمكن، إنها لا تعرف أيّ شخص هناك، ردّت أخرى.

- المهمّ هربت يعني هربت، أكّدت ساندرأ ويداها في خصرها.

- لكن الحاصل شنو بالضبط، يا ساندرأ؟ ألحّت إحداهنّ.

قطّبت ساندرأ جبينها، ورفعت حاجبها الأيسر إلى أعلى تُحدّق في شارع طمبرة الطويل من أوّله إلى آخره كأنّها تُريد أن تقيس المسافة بين نقطتين في مخيلتها، أو ربّما كانت تبحث بين السيّارات المارّة عن كلمةٍ تاهت منها. أو مأت إلى النسوة الثلاث بأن يقتربن، ووشوشت قائلة:

- قالوا إنّها أقامت علاقة مع الحارس بلاك.

- كيف هذا الكلام؟، سألن جميعاً في وقت واحد.

فواصلت ساندرأ:

- وأجانب ضبطها وقتل بلاك.

- معقولة؟

- دي واحدة واطية!

- لا لا لا! ليزا سيّدة محترمة، ولا يمكنها أن تفعل ذلك. وبلاك

هذا، هو أفدّر من كل بالوعات فنادق جوبا.

- اخرسي. أنتِ لا تعرفين ليزا!، صرخت ساندرأ.

- صحيح، إنّك لا تعرفينها. تدّعي الاحترام، لكنّها أسوأ من

سميرة الكبيرة، قالت أخرى مؤيّدة.

بمجرّد نطق تلك الجملة القاتلة، دبّ القلق في نفس سميرة الكبيرة

فنهضت من سريرها برشاقة، ألقت ثوبها على كتفها، ومضت مسرعة

إلى الكوة التي تصل بيتها ببار أبراهام. لم تنادِ النادلة هذه المرة، فقد كانت الموسيقى خافتة تمامًا، ما مكنها من سماع صوت بائع صناديق الموتى وهو يذيع الخبر بثقة كبيرة، كأنه كان شاهداً على ذلك. ضرب أبراهام يداً بيد، وعيناه تدوران في محجريهما، وعَبَّ زبونُ كأس جُعة، بينما تجمّدت النادلة في مكانها، حاملةً طلباً في يدها، تحدّق في بائع صناديق الموتى كأنه مخلوق غريب هبط من الفضاء وطلب كأس نبيذ أحمر. أمّا عم جادا الذي كان يترنّح قبل قليل، فقد استفاق وانتفض كأنه لم يتذوّق قطرة خمر طوال سنوات عمره.

فجأةً، هطل مطرٌ غزير غاضب. وأخذ الأطفال يلعبون بآلاف الضفادع التي تساقطت مع المطر، فقالت سميرة إنّها نذير شؤم، وإنّ البلاد على شفا هلاك مريع، لا محالة. سوى عم جادا بنطاله ذا اللون الحائل، وودّع أبراهام ثمّ توغلّ في شارع فيس بوك رغم المياه الغزيرة التي كانت تغمره، وتغمر شارع طمبرة والمجاري الصغيرة. لم يركض الناس إلى بيوتهم، خاصّةً من كانوا يحتسون الشاي ويتناولون وجبات العشاء، بل ظلّوا واقفين تحت مظلات المحلات التجارية، وهم يلوكون الخبر الذي سمعوه من إحدى بائعات الشاي، وقد سمعته بدورها من ساندرّا قبل تساقط الضفادع بساعة.

كانت زبونات ليزا ممزقات بين الشكّ واليقين غير مستوعباتٍ سببَ قبولِ امرأةٍ جميلةٍ مثلها بـ «بلاك» ذاك الرجل الدميم الوجه، المفطوس الأنف، رجل بلا أسنان أماميّة، ويمشي مفرداً رجله كأنه يعاني من فتق في كيس الصفن. في حيّ «أطلع برّه»، كما في الأحياء

الأخرى، لم يك لمثل تلك الشائعة أيّ مجال لدحضها، ببساطة، لأنّ كلّ شيء في تلك المدينة الكبيرة، شائعة كان أم حقيقة، هو الحقيقة عينها، حقيقة يتسلّى بها الناس في الأمسيات التي قلّما ينعمون فيها بطمأنينة وسكينة، فما يسمّيه البشر هنا «القاتل المجهول» يعكّر صفوهم: إنّهُ اللصّ الذي خرق أخلاقيّات مهنة اللصوصيّة، فهو لا يكتفي بالسرقة، بل يُفرغ ما في جعبة سلاحه من ذخيرة في رأس الضحيّة كأنّه بذلك قد محّا الوصيّتين الخامسة والسابعة من وصايا الله العشر في الكتاب المقدّس.

كان قرار ليزا، في آخر أمسية رأتها فيها سميرة الكبيرة، وهي تلوّح بيدها بعصيّة في وجه سانتينو، صائبًا، حين صفقت باب منزلها وهو يقول لها:

-ستندمين إن لم تفكري بعقلانيّة يا ليزا. ستندمين!

-أنا لا أندم على شيء أيها الوقح!، ردّت ليزا.

كان إيمانويل، ابن ليزا الذي بلغ الرابعة عشرة، جالسًا في الشرفة، يتحدّث بالهاتف مع بنت الجيران التي تصحبه من المدرسة في مساء كلّ يوم. وكانت ليزا جالسة، وهي تضع رجلًا على رجل، وتحّدق في عيني سانتينو، مبصرة كلّ كلمة رواها لها بلاك عنه، فرأت النذالة تجري في دمه، ورأت أنّه ليس سوى صندوق قُمامة في شارع عامّ. حاولت مرارًا أن تبصق بلغما ثخينًا في وجهه وتقول له: أنت لست سوى منافقٍ تكره أجانق ولم تكن صديقًا له بتاتًا.

-يا ليزا، أنا أعرف أنّ أجانق قتل أخي بلاك، قال سانتينو.

-أولاً: أجانق لم يقتله؛ ثانيًا: بلاك ليس أخاك، اعترضت ليزا.

-إذن أنت تعرفين من قتله.

-نعم، أعرفه.

اتسعت حدقتا سانتينو وتلفتت ليزا يمنة ويسرة وقالت:

-الزعيم.

رنا سانتينو إليها طويلاً وزفر قائلاً:

-تلك الكذبة لا تنطلي عليّ، يا ليزا.

-نعم، قتله الزعيم وقد رأيته بأمّ عيني.

-أظنّين أنّ سانتينو الذي تزوّج أكثر من ستين امرأة، لا ينتبه

لكذب امرأةٍ حقيرةٍ مثلك؟

-أنت حقير. اخرج من منزلي.

سمع أحد حراس سانتينو صوت ليزا يرتفع بإساءة إلى رئيسهم

الجالس أمامها، برباطة جأش، لكن سانتينو أشار إليه بالأصبع يتدخل،

وابتسم ساخرًا في وجه ليزا، وقال:

- ليزا، أجانق أخ وصديق لي. وأنا أعرف أنّه ارتكب تلك الجريمة

لعلمه من أحد رجال الأمن، وهو يدعى نياما، بأنك على علاقةٍ

بـ«بلاك». أريد أن أعرف فقط ظروف قتله ومكان جثته، كي

أقنع أهله وأدفع لهم الدية. بلاك، ذاك الحقير، ينتمي إلى قبيلة

تأخذ ديتها دمًا لا مالاً، ثمّ سكت برهةً.

سحب نفسًا عميقًا، في حين نظرت إليه ليزا مُحْتارة. وتناول منديلًا

يمسح عن جبينه حبيبات عرقٍ ممزوجة بعطرٍ صارخ، وأردف قائلاً:

-وستكون ديّتهم أحد أبناء أجانق، والأرجح أن يكون ابنه
إيمانويل طالما أنّه ليس لأجانق أخ.

نهض سانتينو وسوّى يده وسط البنطال المحشور بين ردفه
الكبيرين. همهم بحنجرته، ثمّ قال كمن يُنهي خطاباً بطريقةٍ دراماتيكيّةٍ
مُلوّحاً بيده في الهواء:

-أمّا موضوع الزعيم هذا فلا تردّديه حتّى في سرّك.

-الزعيم هو القاتل، يا سانتينو.

-الموتى لا يقتلون يا ليزا.

-الزعيم قام يا سانتينو.

-الزعيم لم يقم ولن يقوم إلى يوم قيام الساعة.

-ولماذا تقول للنّاس إنّهُ كلّك بوصايا لتنقلها إليهم.

-قيامه الزعيم كذبة يا ليزا. كلّنا كذّابون! وما العالم الذي نعيش
فيه سوى مسرحٍ كبيرٍ للكذب ونحن ممثّلون فيه.

-إن كنتَ كذّاباً فأنا لست كذّابة يا سانتينو. اخرج من منزلي قبل
أن أجمع عليك الحيّ كلّهُ. اخرج الآن، صرخت.

كانت تلك آخر جملة نطقتها في وجهه، عقبها إغلاقُ الباب
الرئيسيّ بقوة. ظلّت ليزا واقفةً تتطلّع إلى باب شرفتها، محاولةً فكّ
حبال اللغز الغريب الذي جعل سانتينو يتحدّث بنبرةٍ وعظيّةٍ أقرب
ما تكون إلى خطبة النبيّ أنطوني. وتخيّلت طريقة خطاب أجانق لو
أنّه سلك مسلكهم وأخذ يبشّر الناس بما قاله الزعيم باعتباره الشاهد

الوحيد على قيامته. وتخيّلت دورها هي زوجة الشاهد الوحيد الذي لا يحتاج إلى من يشكّك في شهادته.

كانت تلك الليلة هادئةً خلّت حتّى من صرير الجنادب الضالّة ونقيق الضفادع العطشى، ليلة ألفت فيها ليزا نفسها حائرة، وهي جالسة تحت سقف من النجوم التي تلوح بعيداً، كأنّ ظلامها الكثيف هواء ثقيل يدخل في رتتيها الضيّقتين. ظلّت كذلك ولم تشعر بما مضى من الوقت، وأخذ ضوء الفجر يتسلّل وبردّه يُبلّل جفنيها المثقلين. مضت إلى الغرفة وجّهّزت حقائبها وأيقظت أطفالها. وكانت المدينة ما تزال تكابد بقايا نوم الليلة الماضية حين عبرت ليزا وأبناؤها كُبري جوبا على متن باص شركة «باكولو».

غادرت ليزا العاصمة التي اشتهرت فيها. ولم يعرف أحدٌ إلى أين ذهبت ولا متى ولا كيف. ولم تعرف ليزا، أيضاً، أنّ الحيّ الذي عاشت فيه لسنواتٍ طويلة، مؤمنةً بأنّها تعرفه أكثر من أيّ وقتٍ مضى، وأكثر من أيّ شخص اقتحمه دخيلاً مثل سانتينو والنبيّ أنطوني وغيرهما من رعاة القوم، سيلوك سرّها الذي ظلّ دفيناً، بينها وبين سانتينو، كما حدث في اليوم الموالي لتساقط الضفادع.

ظلتُ وحيداً في المعتقل الرطب العطن لا أعرف المدّة التي قضيتها،
حتّى خشيت أن أفقد القدرة على الكلام، فأخذتُ أردّد اسمي للتأكّد
من أنّي، لم أنس، على الأقلّ، أن اسمي هو أجانق واني.

حين عدتُ من زيارات التّهریب، قال لي تسفای بلغته العربيّة
المهجنّة، إنّ رجال أمن المعتقل اكتشفوا فجأةً أنّه الدجاجة التي تبيض
ذهباً. «أثيوبيّ يبيض ذهباً، إنّهُ ثروة هائلة»، قال تسفای ساخراً. كنت
أظنّ أنّ حظّه في كفّه، إذ كانوا يخرجونه مرّتين في اليوم إلى الضوء
والهواء النقيّ والبشر. «لقد أسأت الظنّ بي»، قال لي تسفای وجدار
سميك من اليأس يفصل بيننا. كانت السرعة في إعادة صياغة كلام
تسفای في عقليّ ثمّ فهمه في الوقت نفسه قد بلغت مداها في الشهور
التي قضيناها معاً، خاصّةً عندما استيقظ ذات يومٍ وجلس بقربي وأخذ
يحدّثني دون مقدّمات:

-حقاً إنّهم أذكاء في اكتشافهم هذه الدجاجة الأثيوبيّة، يا أجانق.
بيد أنّ الأمر لا يحتاج إلى مثقال ذرّة من الذكاء طالما أنّك أجنبيّ،
فأنت لست سوى بقرةٍ حلّوب تُرْضِعُهُمْ من أثدائك التي تقطر
مالاً. في اليوم الأوّل، اتصلتُ بصديقي أبراهام الأثيوبيّ الذي
يملك عيادةً وباراً. إنّهُ يعمل طبيباً عندكم على الرغم من أنّه لم

يَرِ فِي حَيَاتِهِ كُلِّيةَ طَبِّ بَأَمِّ عَيْنِيهِ، تَحْيَلُ يَا صَدِيقِي! وَهُوَ يَمْلِكُ
أَيْضًا مَتَجَرًّا لِبَيْعِ الْخَمُورِ الْمُسْتَوْرَدَةِ. إِنَّ تِجَارَةَ الْخَمُورِ فِي بِلَدِكُمْ
هَذِهِ تَدْرُ الْمَالَ دَرَّ الْجَعَّةِ لِلْبُولِ. وَلَوْ لَا أَنَّ الصُّومَالِيِّينَ مُسْلِمُونَ
يُحَرِّمُ عَلَيْهِمْ بَيْعَ الْخَمُورِ، لَا كَتَسَحُوا هَذِهِ التِّجَارَةَ كَمَا سَيَطُرُوا
عَلَى مَحَطَّاتِ الْبَنْزِينَ هُنَا وَتَحْوِيلَاتِ الْأَمْوَالِ إِلَى أَيِّ بَقْعَةٍ فِي الْعَالَمِ،
وَلَا صَبَحَتِ التِّجَارَةُ الَّتِي تُسَيِّطِرُ عَلَيْهَا، نَحْنُ الْأَثْيُوبِيِّينَ، فِي مَهَبِّ
الرِّيحِ. أَخَذُونِي فِي مَتَنَصِّفِ لَيْلَةِ أَمَسْ، وَأَنْتِ تَمَارِسُ شَعَائِرَ نَوْمِكَ
بِالْحَدِيثِ إِلَى الزَّعِيمِ. كَانُوا ثَلَاثَةً، أَجْلَسُونِي بَيْنَهُمْ وَاللَّيْلِ الْهَادِي
يَطْلُ عَلَيْنَا بِحُلُكَّتِهِ وَضَحَكَاتِ الدِّيدَانِ تَشْوِشُ أَفْكَارِي. كَانَتْ
تِلْكَ هِيَ اللَّيْلَةُ الْعَاشِرَةُ، وَالْمَرَّةُ الْعَاشِرَةُ الَّتِي تَفَاوَضُوا فِيهَا مَعَ
صَدِيقِي أَبْرَاهَامَ لِأَيَّاتِهِمْ بِمَبْلَغٍ مِنَ الْمَالِ يَوْمَ غَدٍ: «لَمْ يَتَبَقْ لَنَا غَيْرُ
الْمَسْئُولِ الْكَبِيرِ، بَعْدَهُ سَيَكُونُ أَخُوكَ حَرًّا طَلِيقًا»، قَالَ النَّحِيلُ
الَّذِي كَانَ يَجْلِسُ قِبَالَتِي وَيَرْنُو إِلَيَّ كَأَنَّهُ يَرِيدُ مُوَافَقَتِي. عِنْدَمَا
تَحَدَّثَ مَعِي صَدِيقِي أَبْرَاهَامَ قَبْلَ أُسْبُوعٍ قَالَ لِي إِنَّهُمْ أَتَوْهُ بِسَيَّارَةٍ
سُودَاءَ لَا تَحْمِلُ لَوْحَةً مَنْجُمِيَّةً كَأَنَّهَا خَرَجَتْ مِنْ صُلْبِ فِيلِم
لِمَافِيَا إِيْطَالِيَّةٍ. كَانُوا يَحْمِلُونَ بِنَادِقَ رَشَّاشَةٍ عِنْدَمَا اسْتَلَمُوا الْمَالَ
وْخَمْسَ زَجَاجَاتٍ وَيَسْكِي وَكَرَاتَيْنِ سَجَائِرَ لِلْمَسْئُولِ الْكَبِيرِ، كَمَا
قَالُوا، وَانْطَلَقُوا مَخْلَفِينَ وَرَاءَهُمْ غَبَارًا كَثِيفًا وَأَدْخَنَةً سَجَائِرَ تَاهَتْ
وَسَطَ التَّرَابِ. «يَبْدُو أَنَّهُمْ لَنْ يَتَوَقَّفُوا عَنْ حَلْبِي. وَيَبْدُو أَنَّهُمْ لَنْ
يَطْلُقُوا سَرَاحِي، طَالَمَا أَنَّهُمْ وَجَدُوا الدَّجَاجَةَ الَّتِي تَبْيِضُ ذَهَبًا»،
قُلْتُ لِأَبْرَاهَامَ وَأَغْلَقْتُ الْهَاتِفَ. كَانَ رِجَالُ الْأَمْنِ يَسْمَعُونَنِي يَا
أَجَانِقَ وَلَا يَفْهَمُونَ لَغَتِي، فَبَدَتْ عَلَى عَيُونِهِمْ نَظْرَاتُ رِيْبَةٍ. لَوْ لَمْ

يكن لصديقي أبراهام جلدٌ تمسّاح من الصبر الجميل، لما استطاع أن يقاوم طمعهم الشره في استنزاف الأجنبيّ المسكين! لكنّ إيمانه بالمسيح كان قويًّا إلى درجة أن تجارته كادت تهوي كمنزلٍ متداعٍ آيل للسقوط دون أن تدبّ في نفسه زواحف القنوط الشرسة وتجعله يتخلّى عني. إنّه هكذا، لا يهتمّ المال، كان يقول إنّ الأصدقاء هم المال الحقيقيّ. وكنت أضحك من كلامه هذا لكنّي عرفت الآن أنّ الصديق ليس مالاً، بل كنز لا يُقدّر بهال..

حاولتُ، يا أجانق، إقناع أبراهام بأن يضع حدًّا لهذا الابتزاز، ولا يهتمّ في ذلك إن قتلوني! أنا رأيت الزعيم بأّم عيني، وآمنت بما قال. أتعرف ماذا قال يا أجانق؟ «ستصير أنت حامل الرسالة الإنسانيّة في الهضاب والأنهار الأثيوبيّة وأرض كوش ومنابع النيل جميعها. ستخلّص شعبك من أقدام الاضطهاد العملاقة التي تدوس حناجرهم، وأنفاسهم وتكسر أعناقهم. كلّ ذلك سيتمّ قبل أن يكتمل بناء سدّ الألفيّة».

قال لي أبراهام إنّه سيسفّرني إلى أثيوبيا بمجرد خروجي من المعتقل، ويذهب بي إلى مصحّة للأمراض العقليّة والنفسيّة. إنّه لا يؤمن بظهور الزعيم يا أجانق. وأنا أعرف سبب عدم إيمانه بذلك. فهو لا يريدني أن أُخلّص شعبي وأعيد الإمبراطوريّة إلى أيّام مجدها. إنّه ينتمي إلى السلطة الحاكمة يا أجانق. إنّه ينتمي إلى السلطة الحاكمة يا أجانق.

كنت مستلقياً على ظهري مفتوح العينين، لكنّي لا أرى السقف من شدّة العتمة، حين كان تسفائي يحكي لي قصّته. لا أدري هل حدث ذلك في هذا الوقت أم في زمنٍ آخر سافرت إليه بخيالي. لكن ما كنت متيقناً منه هو أنّ تسفائي ذهب في إحدى الليالي ولم يعد إلى الآن.

-تسفاي. تسفاي. شعرتُ بشبحٍ يقرفص بجانبني فناديتُهُ. امتلأتُ
نفسي بنسيمٍ انشراحٍ عليلٍ لأنَّ تسفاي سيخفّف عنيّ وحشة
العزلة بقفشاتهِ ولغته الجميلة المعكوسة.

-سلامات يا أجانق.

كان صوته كخشخشة ورقةٍ جافّةٍ عكّس صوت تسفاي المزوج
بشيءٍ من مواءٍ قطّ ورنينٍ جرسٍ جديد. عرفتُ، من صوته ورائحة
الزهرة الجنائزيّة التي فاحت من فمه وجسده، أنّه مازال يجول بروحه
المعدّبة ويبحث عنيّ. ماذا يريد منّي هذا المصيبة؟ لُمت نفسي لأنّي
تذكّرت أنّه يقرأ الأفكار، فكبحتُ جماح تفكيري. كانت عيناه، في
الظلام، تشبهان عينيّ طائر البوم. إنّهُ الزعيم. لا بدّ من أنّه قد أُفْرِجَ
عن تسفاي.

-ماذا تريد منّي؟، سألتهُ.

-إنّي أشعر بغضبٍ في نبرة صوتك، لماذا يا أجانق؟، سألني
وتنحنح قليلاً.

-ألا تعرف ما ورّطتني فيه، أيّها الزعيم؟ ألا تعرف أنّك انتزعتني
من أسرتي؟، قلت لائثاً.

زفر طويلاً وأنا أصوّب نظراتي نحو عينيهِ اللّتين ازدادتا اتساعاً.

كانت همهمات رعدٍ تأتي من بعيد، وتحترق جدران المعتقل السميكة،
وتستقرّ في رأسي فأتحيلُ سُمك قطرات المطر الكثيف، وشحوبَ السماء،
وأشعر بنسائمٍ لطيفةٍ تُداعب جفنيّ.

كم أحبّ الخريف!

ساد الهدوء بيننا برهةً. لا شكّ في أنّه يُرتّب أفكاره حين يصمت.
-أولادك بخير. زرتهم هذا المساء.

انتفضتُ لأعرف ما فعله بلاك رجل الأمن القذر، فقد كان يراقب منزلي على مدار الأربع والعشرين ساعة من الشارع المقابل، ثمّ انتقل إلى داخل حوش منزلي ليراقبني ويراقب أسرتي. قالت لي ليزا، في آخر زيارة لي إنّ بلاك أخذ ينهشها بنظراتٍ خليعة. وقد كانت على حقّ. ففي الأمسية التي انتقل فيها بلاك إلى منزلها دون إذن منها، تفاجأت به يجلس تحت شجرة الجوافة ويأكل، بشره كلب ضالّ، كمياتٍ كبيرة من البامباي المسلوق، ويتجرّع البيسي ويتجشأ في الهواء محدثاً ضجيجاً كفرس النهر، وبين الفينة والأخرى يتحسّس المسدس المحشور في جنبه الأيمن. وما إن ابتلع آخر قطرة بيسي حتّى انتبه لليزا الجالسة هناك مع ثلاث سيّدات كنّ يصغين إليها. لعق شفته السفلى فرأت ليزا في عينيه الصفراوين نظرةً فاجرة تكاد تنزع ثيابها من منطقة الشقّ العميق بين نهديها، فحجبته بيدها مرتبكةً. التفتت النسوة إليه وهو يمجّ سيجارته بفحولة ويتعمّد مداعبتها ومداعبة ليزا بنظراته الخبيثة، فارتعبن وهمسن بكلام ليزا فغطّت صدرها بقماش وواصلت رمي الودع وقراءة الفنجان.

تلك التفاصيل لم تحكّها ليزا لأجانب في زيارته الأخيرة خشية أن يرتكب حماقة فيجد نفسه في رحلةٍ إلى نهاية العالم.

-لماذا زرت أسرتي يا زعيم؟ ألا يكفي أنّك زججت بي في المعتقل؟

أمسكت بتلابيب صبري وكنت على وشك أن ألكمه، فتذكّرت
أنّه قال لي إنّ أمثاله من الموتى يعيشون في حالة اللا شعور. إنهم لا
يشعرون بأيّ شيء يؤذيهم أو يسعدهم لأنّ شهواتهم التي هي مصدر
كلّ الشرور تموت بموتهم، والإنسان، بمجرد أن تُفارقة الروح، يكون
قد ودّع كلّ الأحزان والآلام ويصل إلى ذروة النرفانا.

- أنا لا أريد توريطك في شيء، يا أجانق.

- أنت ورّطتني، وورّطت البلد كلّ معك.

- ورّطت البلد! كيف يا أجانق، كيف؟

اهتاج صوته فطلبتُ منه ألاّ يورّطني أكثر من ذلك داخل هذا
المعتقل. فأطرق برأسه في الظلام الدامس. حركات مزعجة انبعثت
من سقف الزنك المثقوب، وسمعت صرير الفئران، ووطّ الخفافيش
وصراصير ضخمة تمشي بين رجليّ فباتت عينا القطّة في وجهه. وقلتُ
في سرّي إنّها فرصتك، يا أجانق، لتُخرج ما في أعماقك من قرف.

- دعك منّي يا زعيم، لتتحدّث عن البلد الذي ضيّعته.

- قل لي كيف ضيّعته؟

- ألا تعلم، لقد زججت بنا في حربٍ طويلة، قلتُ فيها، إنّنا نناضل
من أجل السودان الجديد.

- وما المريب في ذلك؟، قاطعني.

- لقد متّ ومات معك المشروع.

- وهل يموت المشروع إذا مات صاحبه؟ أجانق، كنت أظنّ أنّ
موتي سيكون كموت أيّ جنديّ أريقّت دماؤه في هذا النضال

الطويل . لقد فقدنا مئات الآلاف في تلك الحرب البشعة، ولكننا لم نفقد الرؤية الصائبة التي كانت تجعلنا لا ننظر إلى شهدائنا كأموات، بل نراهم أبطالاً دفعوا أرواحهم النفيسة، بكل أمانة وإخلاص، من أجل القضية. موتهم لم يجعلنا نفقد البوصلة بل بالعكس، فلقد كانت دماؤهم هي الدليل الذي نستدل به في طريقنا نحو الهدف. هدف تحقيق السودان الجديد...

قاطعته، فأنا لم أعد أطيق هذا الشعار الرث «السودان الجديد»، وقلت:

-لنفترض أنك لم تمت يا زعيم، هل كانت رؤيتك هذه، ستتحقق؟
شهق طويلاً وزفر بفمه وأنفه، ثم ردّ بنبرة من يروم إلقاء محاضرة طويلة جهّز لها نفسه:
-نعم، كان سيتحقق.

-لا، لا يمكن أن يتحقق أبداً! حتّى ولو كنت حيّاً وعمّرت ما عمّر سيّدنا آدم على الأرض، لما تحقّق.

-لماذا؟ أنت لست أكثر من جنديّ متشائم يا أجانق! يبدو أنّ الانفصال قد خلخل مفاصل تفكيرك ومبادئ السودان الجديد التي كنت تؤمن بها.

-انفصال؟

نفثت من صدري هواءً ساخناً تمنّيت أن يكون قد شعر به ليعرف حجم غضبي ويأسي. ليتكما كنتما حاضرين هنا يا أنطوني وسانتينو لتسمعا ما كنتما تقولانه في ليالي الضريح التي كنّا نقضيها في الاستماع إلى

أغنيات عصافير بطوننا المؤلمة. «انفصال دا أكبر ماسورة في العالم»، قالها أنطوني، ساخرًا، عندما حكى له سانتينو عن أحدهم، وكان عضو لجنة شعبية تابعة لحزب المؤتمر الوطني في الخرطوم، وقد أصبح الآن موظفًا كبيرًا في مكتب رئيس الدولة الوليدة. تخيلت تلك الماسورة الأكبر في العالم معلقة في السماء تسكب مياهها على رؤوسنا المحتمية بزناك راكوبة قبر الزعيم. سألتها: طيب لو كان الزعيم حيًا، هل سيتحقق مشروع السودان الجديد؟ ضحك أنطوني حتى برك على ركبتيه، وهو يقبض على بطنه بكلتا يديه كأنه يمنع أحشائه من الخروج عبر فمه، وقال: السودان الجديد هذا، هو الماسورة التي لم تُخلق بعد! لقد حاول الضابط علي عبد اللطيف قبل قرنٍ من الزمان، فسُجن ونُفي، ثم أُتهم بالجنون وأودع مستشفى للأمراض العقلية ومات فُدفن هناك، وُدُفن حلمه معه!

- الانفصال أفسدك، يا أجانق، ردّ الزعيم. نبرة انتصار سيطرت على ذبذبات صوته فأراد أن ينطق بشيء لكنني قاطعته:

- الانفصال! نعم قد يكون الانفصال أفسدني. ولكن الذي أفسدني أكثر يا زعيم، هو اللّهات وراء مشروع لا يمكن له أن يتحقق.

- كيف لا يمكن أن يتحقق، يا أجانق؟

- قل لي أنت، كيف كنت ستحققه مع وجود الأغلبية المسلمة في السودان؟ قل لي كيف كنت ستقنعهم بإلغاء الشريعة الإسلامية وأنت لست سوى واحدٍ من أهل الكتاب؟ قل لي يا زعيم، كيف كانوا سيستمعون إليك وأنت مسيحي؟ ألم تر أنه تعدّ

سافر على معتقد الآخرين! أعرف أنك تقول، وقد قلت ذلك مرارًا وتكرارًا حتى حفظناه عن ظهر قلب: إن الدولة لا تذهب إلى الكنيسة يوم الأحد ولا إلى الجامع يوم الجمعة. لكن الدولة عندنا، يا زعيم، ذهبت إلى الجامع منذ عام 1983 واعتكفت فيه ولم تخرج منه إلى الآن، وربما صارت إمامًا، من يدري! الشريعة الإسلامية، خطّ أحمر، كما علّمت أنت في نيفاشا.

- هذا صحيح، يا أجانق. لكن كنا سنسيطر على البرلمان، وعن طريقه، كنا سنغيّر القوانين الإسلامية، وبذلك سنكون قد تخّلصنا من الشريعة الإسلامية نهائيًا، ونجعلها دولة علمانية كما حدث في تركيا كمال أتاتورك. يا أجانق، المسلمون والمسيحيون في إفريقيا، لم يتأثروا بالأديان كثيرًا. الثقافة والعادات والتقاليد عندنا أقوى من الدين، فقد وُجدت قبل أن يأتي إلينا الرجل الأبيض مغلفًا استعماره بالكتاب المقدس، فقبلنا نحن دينه وسلب هو ثرواتنا. هذا السودان للسودانيين، وليس للمسيحيين أو المسلمين أو اللادينيين وحدهم. إنه للجميع..

- هذا كلام طير في باقير يا زعيم. انفصلنا وكأنا كنا ننتظر الانفصال بفارغ الصبر ليكره بعضنا بعضًا، بل ليذبح بعضنا بعضًا، وليفضل كل منا قبيلته على قبيلة الآخر.

- دي كارثة كبرى يا أجانق، قال الزعيم.

رجّعت عتمة المعتقل صدى صوته الجمهوري، فصمت برهةً. أصوات أرجلٍ تذهب وتجيء في الخارج وسط زخّات المطر التي بدأت

تنقر على زك سطح قريب. عرفت أنهم الحراس حين تسللت رائحة دخان سيجارة عبر مكان ما في جدار الليل السميك واقتحمت أنفي. دنوت منه كي لا يعلو صوتي فيسمعني الحارس الذي يبدو أنه توقّف وألصق أذنيه وربّما مؤخرته بالبَاب أو بالحائط الإسمنتيّ. أوشك رأسي أن يصطدم برأسه لولا أن رائحة زهرة الجنّازة لفحتني فأدركت أنّي التصقت به فتوقّفت وهمست في وجهه: صدقت، الانفصال ليس كارثة في حدّ ذاته، يا زعيم، لكنّ حكومتنا هي الجحيم بعينه!

وددت أن أقول له إنّ دولتنا شبيهة بقصّة الغراب الذي حاول ذات ساعة أن يقلّد الطاووس في مشيته المتبخّرة، ففشّل فشلاً ذريعاً، ثمّ أراد أن يعود إلى مشيته الأولى فلم تسعفه الذاكرة. وهكذا أخذ يمارس شيئاً شبيهاً بالمشي والقفز معاً. لقد أصبحت لدينا دولة، لكنّها ليست دولة... إنّها شيء لا هو دولة ولا هو إقليم، شيء يمشي ويقفز في آن.

بدأ الصبح ينبج فاستأذني الزعيم، قبل أن أحكي له قصّة الغراب. واختفى تماماً، كما أقبل، لا أعرف كيف، وبسرعة دون أن يمنحني فرصة سؤاله عن الأمنّي بلاك الذي ظلّ يلزم ليّزاً كظّلها وعن سانتينو والنبيّ أنطوني اللّذين قال لي إنّهم غير راضٍ عنهما.

لم يكن عقل الزعيم مشغولاً بالنقاش الذي استهلّه أجانق عندما زاره في المعتقل، بل كان يجد نفسه في وحلٍ من الحيرة بين أن يسرد له ما حدث أو أن يتركه يكتشف الأمر بنفسه.

قبل ساعة القيلولة بقليل، وبينما كانت النسوة يصطففن أمام باب منزل أجانق واني لمقابلة ليّزاً التي ملأت سمعتها الأسماع والأبصار،

كان بلاك الجالس تحت شجرة الباباي في الركن البعيد داخل حوش المنزل، قد أقسم على كتاب ضميره بالألا يترك الأمر يمرّ في ليلة هذا اليوم التي ستأتي بعد ساعاتٍ قليلة، دون الحصول على مبتغاه.

تمكّنت ليزا -بألمعيّتها وقدرتها على إقناع زبائنّها- من ترويض الحيوان الوحشيّ المدعوّ بلاك بأن أحضرت له وجبة عشاء مكوّنة من دجاج مشويّ على الجمر وطبق سلّطة طماطم بالجرجير والخيار والفلفل الأخضر والشطّة الخضراء. ولأوّل مرّة في تاريخ حياته القدرة بالمواخير والشراب البلديّ الرخيص، رأى بلاك زجاجة ويسكي منتصبّة أمامه كأنّها تدعوه إليها. سألها ما إذا كان الويسكي له فأطلقت ليزا ضحكة غنّج بصوتٍ عالٍ وسكتت فجأةً. فقد كان جادًا حين قال إنّّه لم يعرف ذلك الشراب إلّا عند رؤسائه، وحين يشمّ رائحته في الزجاجات الفارغة يختلّ توازنه، ويرى كلّ الصبايا في الشوارع فتيات في فيلم أمريكيّ مثير.

صبّت له ليزا كأسًا وهو يقضم فخذ الدجاج كأنّه يُصارعه بأسنانه الصفراء المتأكلة. مرّر أنفه على حافة الكأس مستنشقًا الرائحة، فشمع بدوخة لذيذة جعلت ليزا تتراقص كأنّها جالسة على سراب. وبحذرٍ تذوّق القليل بطرف لسانه فلسعه الطعم أوّل الأمر، فسكب الكأس في جوفه عندما قالت له ليزا ساخرة: أخائف أنت؟

سحبُ كثيفة بدأت تزحف ببطءٍ، من الأفق الجنوبيّ متّجهة صوب الشمال عندما جاء إيمانويل ابن ليزا الأكبر وهمس في أذنيها وهو يديم النظر، مقطّبًا حاجبيه، إلى بلاك الجالس، مفردًا رجله، وهو يجاهد كي يُخرج، من بين أسنانه، شريحة دجاجة علقت بها.

صدق من قال إنّ الخمر عند بعض الناس فاتحة صندوق أسرارهم. فما إن انصرف إيمانويل صارًا شفّيته، حتّى أطلق بلاك العنان للسانه يقصّ على ليزا قصصًا متشعبة لا بداية لها ولا نهاية عن مغامراته في بلاد الفونج وجمال النوبة وحلّفا القديمة وخشم القربة وأيام العتالة في ميناء بورتسودان وعربداته في حيّ رأس شيطان، ثمّ يعود مرّةً أخرى إلى الفونج حيث بنت شيخ إحدى قرى سنار تشنق نفسها لأنّ والدها رفض أن يزوّجها بلاك. هذا نصرانيّ أغلف يا ابنتي، قال. كان يقهقه بفوضى ويرفع عقيرته بفاحش الكلام كأنّه في عقر داره. وكانت ليزا تحثّه على الحديث والشراب لتخرج منه الأسرار المدفونة في جوف بئرهِ. حطّ بوم فوق شجرة المانجو الكثيفة، ونعق ثلاث مرّات فرفّ جفن ليزا الأسفل، وانتفتحت عينها بلاك فتلاشى بريقهما وصمت فجأةً. أوّمأت ليزا إلى بلاك بأن يواصل، فصبّ لنفسه قدحًا هذه المرّة وسكبه في قعر جوفه فتفجّر ينبوع الأسرار، واعترف دون أيّ مقدمات: «سانتينو هو الذي بعث بي كي أوقف أعمالك التي تقومين بها»، همس في أذن ليزا.

اقشعرّ جسدها وهي ترى سانتينو واقفًا أمامها. «يجب أن نعمل معًا، يا ليزا»، تذكّرت جملته تلك. لم تفهم ما كان يرمي إليه صديق زوجها وزميله. كانت الأخبار غير الموثوقة، والمسرودة في كلّ زقاقٍ من أزقة حيّ «أطلع برّه»، تروّج أنّ سانتينو -بعمله الجديد وهو رواية تنبؤات الزعيم للناس، العمل الذي جنى منه ثروة طائلة- قد سيطر على معظم الرجال، وأصبحوا زبائنه، ولم يتبقّ له في هذه المدينة التي امتثلت لمعجزات النبيّ أنطوني سوى الغالبية العظمى من السيّدات اللواتي احتكرهتنّ ليزا، وبالأخصّ، السيّدة الأولى سوزي، فقد كانت

مستعدة لدفع كل شيء، مقابل الحصول على زوجها المفقود. حدّقت ليزا بدهشة في وجه بلاك المضيء تحت ضوء القمر فرأته مجرد إنسان وقح، يمكنه أن يشي بوالدته إن لم يجد ما يقتات منه.

توطّدت العلاقة بين ليزا وبلاك -أو هكذا كان يظنّ-، فأخذ يُلاينها بكلمات حبّ تشبه ملمس وجهه الخشن، ويلمّح لها أنّ في إمكانه أن يحلّ الفراغ العاطفي الذي تركه أجانق. وبخبث ممزوج بذكاء سيّدة أعمال تعرف كيف تصدّ القوارض البشريّة مثله، كانت ليزا تراوغه كلّ مرة، وكان هو يظنّ أنّ ساعة اللقيا التي كان يحلم بها خلال ساعات القيلولة، جالساً تحت شجرة المانجو، قد دنت، وأنّ التفاحة التي أخرجت آدم من الجنّة مازالت موجودة في الأرض، مختبئة بين رجلي إنسانة واحدة في هذا الكون، وهي «ليزا أجانق واني» كما كانت تحبّ أن تنادي نفسها، وأنّ مصير تلك التفاحة منقوش على جبينه، ولا يهمّه إن كان مكتوباً بحروف إقصائه من جنّة هذا العالم، ولكن ما عليه سوى قطفها. جرّ بلاك كرسيّه مقرباً من ليزا فتأفّفت من رائحة الويسكي التي حرقت أنفها. همس بكلمات حبّ ومسّت يده فخذها فصرته، ولكنه تمادى أكثر ورفع الفستان عن ركبتها. فأدركت أنّ هذا السمين الوقح الذي أرسله سانتينو صديق زوجها، يريد أن يلفّ حول خصرها يداً ملطّخة بوحل ابتزاز جنسيّ!

بالأمس عندما نهرته أمام إحدى النسوة، رفض طعام الغداء ومضى ثمّ عاد بعد ساعة يحمل خطاباً سلّمه إليها، فقرأته وذرفت دموع حزن باردة. ابن لقيطة أنت يا سانتينو، شتمته في قرارة نفسها. شعرت بأنّ تلك اليد التي تحاول أن تحيط بخصرها قد أحكمت

قبضتها وصارت حديدية تضيق وتؤلمها كلما حاولت إبعادها عنها. بدا من صرامة وجهه العابس أنه قد تنازل عن تفّاحته، بيد أن هذه الصرامة كانت تخفي وراءها رغبة جامحة تكاد تُفجّر حيوانه المتنفخ.

كان كلّ شبرٍ في جسد ليزا ينبض بإرهاقٍ وألمٍ من العمل المضني، فاضطجعت سريعاً وراحت في كابوس استفاقت منه وشيء كالحديد الحامي يضغط بين رجلَيْها. كانت يده أكثر خفّة وهو يغطّي بها فمها ويحشر المسدس في عنقها: إن أصدرت أيّ صوت سأطلق النار، همس في أذنها مهدّداً. شعرتُ بفوّهة المسدّس تُخرج هواءً دافئاً في عنقها، كأنه ينفث من صدره غضب طليقة تتأهب للانطلاق. استسلمت ولم تشعر بأيّ ألمٍ في تلك المنطقة بل كانت ترى، وبوضوح شديد، سانتينو صديق أجانقٍ يغرز فيها سكّيناً صديداً يأبى أن يخترق جدار ضميرها. كانت ترنو صوب سرير طفلتها كلارا وهي تذرف دموع توّسل حارّة إلى ربّ الكون لئلا يوقظها في مثل هذا الوقت. تقلّبت كلارا في سريرها فتمنّت ليزا لو أنّ سقف العالم سقط عليها في تلك اللحظة كي لا تراها ابنتها. وفي الوقت الذي كانت فيه مؤخّرة بلاك الوقح ترتعش وهو يتأوّه وتأوّهات بلوغ اللّذة، اهتزّ جسد ليزا، فظنّ بلاك أنّها قد بلغت رعشة الجماع فأوماً إليها بأن تصمت. الآن، فقط، ودون أن تلقي بالاً لبلاك الذي كان يجرّ سحاب بنطاله المهترئ، صدّقت أنّ شائعة القيامة التي زجّت بزوجها أجانق في السجن لم تكن من تخريجاته بل هي الحقيقة التي تجسّدت واقفةً عند عتبة باب الغرفة. أشاحت ليزا بوجهها، خجلاً، عندما تصوّرت أنّ الزعيم قد شاهد كلّ شيء، وهو يقف هناك، دون أن ينقذها، أو لعلّه كان يستمتع بالمنظر.

خطى بلاك خطواتٍ إلى الخارج منشراحًا ومطمئنًا، فلم يتنبّه للشبح الذي كان يتربّص به خلف الباب. استدارت ليزا فرأت حركةً سريعة تخرج من جوف الظلام وتقبض على عنق بلاك وترفعه إلى أعلى فتأرجحت رجلاه في الهواء. صوت كسر وحشجة مذبوح سمعته ليزا وجارتها خميسة المجنونة التي صرّت كالقأر، وسمعها حتّى الجيران الذين حكوا للجارين الثالث والرابع في اليوم الموالي، فطار ذكر صوت الكسر في الآفاق حتّى بلغ حيّ (107) فعلم به سانتينو لكنّه قال في نفسه: فليمت هذا الكلب الدميم.

بعد ساعةٍ، تيقّنت ليزا من أنّ هذا الصمت الكئيب والثقيل على نفسها وعلى صدر الليل لن يكدر صفوه أيّ كدر. نهضت من سريرها، أشعلت بطّاريتها ومشّت ببطء. وما إن تحطّت عتبة باب الشرفة حتّى أحسّت بسائل باردٍ تحت قدميها الحافيتين، فتوقّفت. صوبت الضوء إلى رجليها فرأت تحتها سائلًا أحمر لامعًا بدأ يتخسّر للتوّ، فعلمت أنّه قد فعلها، لكنّها لم تعرف كيف حمل الجثة الثقيلة معه. تتبّعت بقعات الدم الكبيرة على الأرض إلى أن بلغت الباب الرئيسي واختفت هناك. عادت وذهبت إلى الحمام واغتسلت وهي تبكي بكاءً مرًا مكتومًا. مضت إلى الغرفة، تمدّدت على السرير، وبينما هي تسحب الملاءة على جسدها وتغطّي رأسها، شعرت بقشعريرة خوفٍ تسري في أحشائها وتقلّبها ثمّ تستقرّ في معدتها وتحدث غرغرة صاحبة ثمّ تموت هناك. كان أجانق في ذلك الوقت داخل المعتقل، يجادل الزعيم وهو يقول له ورائحة الدّم قد ملأت أنفه: الانفصال ليس كارثة يا زعيم، بل هو الجحيم!

لم يعرف أجانق من أين انبعثت رائحة الدم المتخثر وفاحت، فجأةً،
داخل المعتقل، عندما نهض الزعيم يوّدعه. لكنّه شعر، في اليوم ذاته،
بعد ساعةٍ فقط، بتحرك جيوش من الصراصير والفئران في المكان الذي
كان الزعيم يجلس فيه.

كان اللَّيْل قد ادھمَّ حين طرقت ساندرا باب غرفة سميرة الكبيرة والسماء فوقها ثقيلة كأثْمًا في انتظار إشارة لتسكب مياهها على شوارع «أطلع برّه». سمعت سميرة دقّات بابها فاهتزّت رموشها واضطربت، خوفًا من أن يكون الطارق قد جاء بخبر موت أمّها التي كسرت كلّ الأرقام القياسيّة عندما ماتت أكثر من مرّة في العام السابق.

استعدّت سميرة لاستقبال ذلك النبی الذي جاءها ثلاث مرّات في منتصف ثلاث ليال من العام السابق وأخذت تتوقّعه في كلّ ساعة من ساعات النهار واللَّيْل. لأوّل مرّة منذ أن انتقلت إلى هذا المنزل قبل عشر سنين، تشعر ببرودة مقبض الباب وهي تديره، بلامبالاة، كي تفتحه.

كانت ساندرا ملفوفة بثوبٍ داكن وحزنٍ عميق ينبعث من نظراتها المرتابة. دخلت دون أن تنتظر دعوة من سميرة، وبسرعة استطلعت الشرفة، واخترقت بنظراتها الثاقبة، عبر الباب الموارب، غرفة النوم بإضاءتها الحمراء الخافتة. استنشقت ساندرا رائحة بخور صندل طاعٍ، وخامرها شكٌّ عظيم في أن يمرّ مثل هذا العطر الفوّاح دون وجود رجل يحتضن سميرة على أنغام موسيقى المطر التي ستَهطل الليلة، ويرد الخريف اللطيف المخدّر للجفون، خاصّة أنّ وراء غياب زوجها

شائعات كثيرة تحوم كطائر شؤم فوق رأسها بأنها قد أغرته بأشياء لا تملكها معظم نساء حيّ «أطلع برّة»، إنّها ليست شائعة فقط، بل حقيقة يدعمها شذى هذا الصندل الفاسق.

ظنّت سميرة أنّ ساندرا رأت بائع القماش المستعمل، جنارو القصير، الجالس على كرسيّ كبير غاب فيه. لكنّ ساندرا ابتهجت عندما شاهدتها تُقلّب ملابس قديمة كانت قد رأتها في نهار ذلك اليوم عند البائع نفسه الذي شرب في المقهى كوب شاي ورائحة عرق حمضيّ تفوح من إبطيه. الآن، علّمت ساندرا أنّ كلّ الملابس التي تتبخر بها وتدّعي أنّها آتية من نيروبي، هي ملابس أوروبية تفوح منها روائح موتى حصدهم السرطان أو دهسهم إرهابيّ بسيّارة مسروقة. رسمت ساندرا ابتسامة صغيرة ساخرة وهي تنظر إلى سميرة الكبيرة المرتبكة، فسألتها ما إذا كان لديها دواء لصداع حرّمها النوم في تلك الساعة المتأخرة.

لملم جنارو ملابسه وعبر بالقرب من ساندرا بتلك الرائحة النهارية المقزّزة وعلى ثغره ابتسامة شاحبة، بلا معنى. انعكس ضوء الغرفة الخافت على وجهه مألوف رآته ساندرا يمرق من الحّمّام ليختفي خلف الباب حيث سرير سميرة الوثير.

لم تصدّق ساندرا نفسها وهي تستمع إلى سميرة التي كانت تُبرّر لها وجود جنارو، بائع الملابس البالية في هذا الوقت الذي ابتلع فيه الظلام الكون. فقد ترعرت مع الشكّ حتّى صار يشمل كلّ ما حولها، ولذلك لم تصدّق خبر قيام الزعيم من بين الأموات، على الرغم من أنّها جنت مالا كثيرا من بيع الشاي في الضريح يوم حوّله الجموع مزارا مقدّسا في

شرق إفريقيا، لم تصدّق أنّ الزعيم قد انتفض بقوة، كالعنقاء، من رماد موته، وصعد إلى السماء وتجمّع هناك كسحابة هطلت أمطاراً غزيرة، وتحدّث مع أجانق وكازانوف، وربّما سرّاً مع ليزا، وقابل رئيس البلاد وجهاً لوجه. ولم تستوعب أنّ كلّ ذلك يمكن أن يكون حقيقةً وهي ترى بأمّ عينيها الزعيم داخل غرفة سميرة يلفّ وسطه بمنشفة قصيرة تُظهر ركبتين بارزتين هزيلتين وكرشاً مدوّرة توحى بأنّه تعشى قبل دقائق، وحين سطع الضوء الخافت على وجهه التمعت عيناه الجاحظتان المرعبتان.

إن كان حدثٌ الضريح حقيقةً، والحدث الذي رآته في منزل سميرة الكبيرة، حقيقة أيضاً، فإنّها تستبعد تماماً فكرة وجود ما يُسمّى حقيقةً في الكون بكامله. فالحقيقة البسيطة التي تعرفها، ويعرفها الجميع هي أنّه لا يمكن ليّيت، وإن كُتبت له الحياة مرّة أخرى وفكّر في أن يُمارس الجنس مع امرأة وأسعفته الطبيعة المخالفة للحياة بفعل ذلك، أن يُمارسه مع امرأة مثل سميرة الكبيرة التي يعرفها بائعو الموز والأناس الجوّالون، والشبان الذين يحملون على ظهورهم المقوِّسة المشويّة بشمس خطّ الاستواء أدوات زينة النساء، والبنغاليّون الذين يحملون أسماك البلطي والقرموط في جرادل مثلّجة لبيعوها في أحياء العاصمة، وميكانيكيّو محطة ياي الذين يعملون ليل نهار كي يتمكّن الواحد منهم من زيارة منزل سميرة الكبيرة لساعة متعة ثمّ يفتخر بذلك أمام أقرانه لمدة شهرٍ كامل، وحمالو سوق كونجو كونجو المعروف ببياض الدقيق وأقمشتهم البالية تفوح بروائح الزيت اليوغنديّ الشبيه بزيت محرّك السيّارات الثقيلة والثوم الصينيّ والبصل الأحمر العطن وتبغ السجائر الزهيدة.

كل تلك الأفكار كانت تجول في ذهن ساندرا وقد وضعت كفّها على خدّها، وأخذت تُحمَلق في وجه سميرة وهي تحكي لها قصصاً غير متناسقة، كهذا النشاز المتمثّل في وجود شخص داخل غرفتها في هذه الساعة المتأخّرة. لم تجد ساندرا سوى تفسير واحد جعلها تطمئن قليلاً: عندما يتعلّق الأمر بالجنس اللطيف، فكلّ الرجال في العالم سواسية كأَسنان المشط، أحياء كانوا أم أمواتاً أم نهضوا من بين الأموات مثل الزعيم الذي رأيته، منذ حين، يخرج من حمّام داخل غرفة سميرة، ففي النهاية لا بدّ له هو الآخر أن يأتي ليؤدّي صلوات المتعة في محراب عشق سميرة الكبيرة، ذلك المحراب الذي يتمنّى كل رجل في مدينة جوبا أداء فرائضه فيه، قبل أن يعبر النهر ويغيب في الضفة الأخرى.

تناولت ساندرا قرص الصداق من سميرة وشكرتها، ثمّ استأذنت وسحبت الباب خلفها من دون أن تنطق بكلمة وداع، وغاصت في وحلٍ من ظلام الليل وعقلها يطحن الأفكار ويهرسها دون أن يتمكن من هضمها. مرّت أمام بار الأثيوبي أبراهام ونظرت إلى الداخل عساها ترى شبح زوجها جالساً هناك. أشباح بشر تترنّح على أنغام أغنية أثيوبيّة، تتراقص تحت أضواء حمراء وصفراء وخضراء خافتة. لم تدرك كيف رآها أبراهام في هذا الظلام الحالك فخرج من البار مسرعاً وأوقفها عند نهاية شارع فيس بوك المؤدّي إلى محطة ياي وقد بدأت الحركة تقلّ فيه والسيّارات المارّة تزيد من سرعتها. نظر أبراهام يمنة ويسرة ثمّ نظر خلفه ليتأكّد من أنّ سميرة لم تكن تنظر من بين فتحات سور بيتها المصنوع من أخشاب البامبو. كانت السماء مكسوّة بسواد غريب، وبعض خيوط البرق تومض من نقطة ما، كأنّها بداية الكون

لتنشر في الفضاء، ثم تضمحلّ وتختفي لتعاود الظهور في نقطة جديدة تُحدّدها أسرار الكون. سأل أبرهام ساندر، وهو يمجّ عقب سيجارة عالقة في شفته السفلى ويمعن النظر في نهاية الشارع كأنه لا يتحدّث إليها، فأجابت بجفاء: زوجي ليس هناك.

زفر أبرهام ففاحت منه رائحة دوّخت ساندر.

- لكنّي رأيته هناك، بلحمه ودمه وصلعته المميّزة، أردفت ساندر قائلة.

- هل فقدت عقلك يا ساندر؟ زوجك لا صلعة له!، همس أبرهام.
- أنا لا أتحّدث عن زوجي يا أبرهام. ليذهب إلى الجحيم.

نأت عينا أبرهام من محجريهما وهو يشفط آخر نفسٍ في سيجارته وحملق، لأوّل مرّة، في عيني ساندر كأنه يحاول قراءة ما تفكّر فيه قبل أن تنطق به.

- قل هلوليا.. هلوليا يا أبرهام.

فغر أبرهام فاه، ولولا أنّه كان يعرف ساندر لأكثر من عشر سنين منذ أن جاء من أثيوبيا، ويعرف أنّ همّها الأوّل والأخير هو تربية أولادها الستّة قبل كلّ شيء، ثمّ جمع شائعات حيّ «أطلع برّه» ونشرها ثانيًا، لأقسم بلغته الأمهرية أنّها مخمورة لا محالة!

- أستغفر الله، هلوليا شنو في منتصف الليل يا ساندر؟

- قل هلوليا يا أبرهام! لقد رأيته الليلة يا أبرهام، رأيته في غرفة سميرة قبل خمس دقائق.

-من يا ساندرا؟

-الزعيم. الزعيم يا أبراهام؟

أعرف حيل كل النساء في العالم يا ساندرا، قال أبراهام في سره وهو يُضَيِّق ما بين حاجبيه، وينظر إلى البعيد كأنه يتوقَّع ظهور شخص دام انتظاره عقدًا من الزمان. ثم واصل الصوت داخله وهو يتأمل ساندرا: أعرف كيف تتودَّد المرأة إلى الرجل في الغرب باحترام زائف وأنوثة مصطنعة ومُخَضَّر لا يليق بها، تمامًا كما يسيل لعاب الكلب عند رؤية صاحبه آتيا إليه بالطعام، هكذا يسيل شبقها عندما ترى فحلاً أثيوبياً مثلي. وأعرف كيف تجيد الأثيوبية التمثيل، بادعاء الأدب الجم، وتنعيم صوتها بشكل مبالغ فيه، وأعرف كيف تُراقص السودانية لحم مؤخَّرتها لأنَّ الرجل هناك، لا يهتم من المرأة إلا ذاك الجزء الكبير الذي يرفع غريزته ويشبع رغبته، وأعرف كيف تُلقِّع العربية جسدها بالخيمة السوداء وتتضوَّع بعطر الصندل لاستمالة غبيٍّ يعمل مخيلته ليتصوَّر ما تحت الخيمة، وأعرف كيف تُفْرِط الكينية والرواندية في تشطيف الحبِّ المحفور بين رجليها وكيف تتعطَّر، عكس الآتية من كابلابلّا في كمبالا، تلك التي تنطق رائحة إبطيها بعدم استخدام مُزيل العرق منذ أن خلقها الرب، وعلى الرغم من ذلك تحاول، وبلا خجل، أن ترسم على شفتيها ابتسامة خليعة صارخة لكل من يدفع لها وإن كان متسوِّلاً. أمّا هنا، في هذه المدينة الغربية المكتظة بالأجانب، هذه المدينة التي تبدو كعاهرة تتعلَّم فنون الإغواء والتغنُّج والدلال لتوها، فإنَّ ما يقنع غبيًّا في أقل من ثانية هو الكذب الجميل والبريء الذي يخرج من فم المرأة، على رعونتها، كأنه آية من آيات الكتاب المقدَّس، تحاول به اصطيد الرجل. لقد خبرت

كُلّ ذلك يا ساندرا، وكنت، للأسف، أقع كلّ مرّة، في براثنهنّ بسهولة
وغباء ورغبة أكثر في عدم مقاومتهنّ إلى يومنا هذا، ليس لغبائي، بل
لأني أحبّ الجمال، والجمال لا يوجد في هذا العالم إلّا عند النساء اللواتي
لولا هنّ لا خفت تلك الكلمة من قواميس كلّ اللغات.

-قولي لي، ماذا تريدان يا ساندرا في هذا الجوّ المغربي المثير؟، سأل
أبراهام.

حدثته ساندرا كأنّها كانت تسمع ما كان يعتمل في صدره. رمت
طرف ثوبها لتغطّي به رأسها وبصقت على الأرض، ثمّ مضت دون أن
تُجيب أبراهام، فوقف برهةً يُفكّر في صديقه تسفاي الذي حكى له عن
الزعيم وزياراته المتكرّرة له ولأجانب، في معتقل الأمن الوطنيّ.

عاد أبراهام أدراجه إلى البار الذي كان خاليًا، ومضى إلى المساحة
الخلفيّة منه. اتخذ لنفسه ركنًا مظلمًا وشرع يجتلس النظر إلى غرفة
سميرة الكبيرة المغلقة. كانت هناك خيوط ضوءٍ تنبعث من ثقبٍ
في نافذة الغرفة الخلفيّة. نظر إلى ساعته بتوتّر من ينتظر قطار منتصف
الليل، فوجد الساعة تقترب من الثالثة والنصف صباحًا. لفح وجهه
هواءٌ بارد فشعر بأنّ الخمر بدأت تتسرّب من رأسه. أثقل الصمت
نفسه فمضى وأحضر كرسيًا جلس عليه ثمّ أشعل سيجارةً وسحب
نفسًا عميقًا وهو يقطع على نفسه عهدًا بأن يحسم أمر هذا الزعيم.
لقد بدأ يشكّ في قيامته التي أخذت تهزّ شجرة إيمانه الأرثوذكسيّ.
سرقته غفوة فتحرك رأسه بثقلٍ إلى الأمام فأوقع السيجارة من
فمه وفتح عينيه فرأى باب شرفة سميرة يُفتح ويخرج منه شخصٌ

بطولٍ متوسط، وبنية جسدِيّة قويّة، وصلعة لمعتَ حالما سقط عليها الضوء من فوق باب الشرفة. توقّفت أنفاس أبراهام وما لبثت أن تسارعت كلهاث كلبٍ. نهض بسرعةٍ وجرى إلى شارع فيس بوك فرأى صاحب البنية الجسدِيّة آتياً نحوه. نظر أبراهام خلفه وفكّر في أن يعود أو يركض هرباً، لكنّه وجد نفسه وجهاً لوجه مع الجثّة التي قلبت الدنيا رأساً على عقب. رائحة بخور صندل قويّة انبعثت من لباسه واقتحمت أنف أبراهام فقال في نفسه: لمَ تقولي غير الحقيقة يا ساندرا! شعر أبراهام بأنّ السُّكر قد تبخّر من جوفه فأصبح رأسه نقيّاً صافياً كرأس طفل وليد. ثبتّ نظراته في وجهه وعينه وأنفه وصلعته وحركة يديه عند مشيته العسكرية، فتجمّد في مكانه. استطلع الشارع سريعاً بعينه فألفى كلّ المحالّ التجاريّة مغلقة والهدوء يخيم عليها، والكلاب الهزيلة أرهقها النباح فاستلقت على الأرض تنفّس ببطء. مرّ الرجل الأصلع دون أن يعيره انتباهاً، والتفت أبراهام ليراه من الخلف وفكّر في الصياح بأعلى صوته ليخاطب كلّ الذين هرعوا إلى الضريح قبل سنواتٍ لرؤية الزعيم، ويعتذر منهم جميعاً. ذرف دمعاً، لا لأنّه لم يذهب في ذلك اليوم، بل لأنّه حين كان صديقه تَسْفَي في المعتقل جرّاء إيمانه بقيامة الزعيم، كان هو يجتمع بالجلالية الأثيوبيّة في أحياء «أطلع برّه»، و«كتور»، وسوق كونجو كونجو، وحيّ «طراوة»، وحيّ «ملكال»، ليحكى لهم قصّة الأثيوبيّ الأرعن تَسْفَي الذي قطع آلاف الأميال، آتياً من شمال أمريكا، ليعود إلى أثيوبيا، ثمّ يتركها، يترك أرض الأباطرة، أرض مسيح الراستافارية تفاري مكونن، الإمبراطور هيلاسيلاسي الذي ينحدر من سلالة الملك

سليمان ومملكة سبأ، ليأتي إلى هذه القرية الصغيرة التي تسمى جنوب السودان إيماناً منه بقيامة الزعيم! كان أبراهام يفكر في ذلك ويقهقهه عالياً. «آسف أخي تسفاي أينما كنت»، قال أبراهام وذرف دمعة أخرى عندما كان الزعيم يختفي في زقاقٍ معتم يتقاطع مع شارع فيس بوك المقفر، وقد وقف أبراهام في وسطه، والكلاب راقدة في منتصف الإسفلت المتآكل، لا يعلم إلى أين ينظر وهو يتأمل هذا العالم الذي بدا له عجيباً. عالم يُقتل فيه الإنسان بسهولة ويُسر، ودون حساب لأنَّ مُغتصبَ روحه «قاتل مجهول»، عالم يموت فيه الإنسان ويشيع موتاً ثمَّ ينهض، فجأةً، كالعنقاء، ويمشي بين الناس مرفوع الرأس، عالم يُبعث فيه الإنسان من الموت ليصبح نبياً ويؤمن به آلاف الآلاف من الناس، ثمَّ ينتهي به الأمر إنساناً عادياً، يرتمي مثله مثل عبد المنعم الشيخ، وعبد الرحمن كَش، وسانتينو، وأبراهام وآخرين كثر، في أحضان سميرة الكبيرة التي تستقبلهم وتودّعهم جميعاً، كصالات المطارات الدوليّة.

مسح برد الفجر وجه أبراهام فمضى يجرّ رجله في شارع فيس بوك، ودخل باره، ثمَّ صعد إلى غرفته في العليّة.

كان العالم هادئاً حين اضطجع على سريريه بكامل ثيابه. لم يدرك أبراهام كم عود ثقابٍ أطفأ قبل أن يُشعل سيجارةً واحدة منذ أن كان في الشارع حتّى الآن. وسرعان ما غرق في أحلامه التي تزوره حين يرقد على ظهره. رأى امرأة متّشحة بثوبٍ شفاف ملتصق بجسدها الناعم وقد انبعث منها شذى جميل. كانت تلك هي الرائحة نفسها التي علقت برأسه عندما أمسك بمقبض باب غرفة سميرة قبل سنواتٍ

وخرج دون رجعة وهو يبكي حزناً، عضوه الذي خذله دون أن يفعل شيئاً. كان يحلم، وكان يعرف أن هذا الحلم الذي يحلمه مرتين في الشهر منذ خمس سنين لن يتركه أبداً، لذا لم يكن يحسبه حلماً على الرغم من أنه يزوره في النوم، بل «نحساً، ولعنة»، كما كان يقول.

نهض أبراهام مرهقاً وهو يسبّ باللغة الأمهرية والتقرينجية، وعندما أدرك أنه في جوبا سبّ بالإنجليزية وترجمها إلى لغة عربية شبيهة بنغمة موسيقى لعازف ناشئ. سبّ العويل والصراخ الطويل الذي شقّ شارع فيس بوك، وقد امتلأ بالناس كأنهم انبثقوا من باطن الشارع المكتظ بهم. منظر رهيب جعل أبراهام يتذكّر الضريح في يوم القيامة: بشر كالنمل تدفّقوا في شارع فيس بوك مغلقين كلّ الشوارع الجانبية، شاهدتهم من نافذة عليّته الصغيرة فاضطرم قلبه بنار الخوف. وحينما فتح باب غرفته، لم يعرف لماذا تذكّر أنه في صبيحة يوم أحد قبل سنواتٍ، رأى نسوة حبشيات متّسحات بفساتين بيضاء مزركشة وتتدلّى من صدورهنّ الممتلئات إيماناً، صلبان خشبية كبيرة، ماضيات إلى الكنيسة في شارع طمبرة فقبض برفق على عضوه، ثمّ خجل وطلب المغفرة من الربّ في سرّه. أمّا الآن، فقد رأى في شرفة ذلك المبنى الحديث، منظرًا استثنائيًا جعله يضحك أوّل الأمر، ثمّ يصمت ويهزّ رأسه وينفث من صدره هواءً باشمئزاز من أصيب بغثيان مفاجئ: كان المنظر لرجل بدين بكرش كبيرة لامعة كأنّها جلد طبلّة، عارٍ ولونه كالقرموط يركض وراء صبية تكشف نحافتها غير العادية عن ضلوعٍ مشدودة كالأقواس، تصرخ وتضع تحت إبطها ما بدا من بعيدٍ، فستانا بلون حمار الوحش عرف أبراهام أنه النوع المطاطي الذي يلتصق بالجسد ليكشف بجلاء مفاته وتضاريسه الساحرة. كان أبراهام

قد رأى الفستان نفسه مراراً يُبرز مفاتن النادلة الكينية التي بدأت عملها في باره الأسبوع الماضي، لينة متفخخة ومثيرة كمعجزة، جالبة الكثير من الزبائن إلى محلّه، وقد اعتبرها وجه السعد على تجارتها. ففي اليوم الأوّل الذي باشرت فيه النادلة الجديدة العمل، كان هنالك أكثر من خمسين شارب خمر جديد يزور البار لأوّل مرّة، كانوا حليقي الرؤوس يفوح من أجسادهم شذى عطور رخيصة ويتأّقون في ملابس إفريقية زاهية، يجلسون داخل البار، يكرعون الخمر، يقهقهون ويلكزون خصر النادلة، ويشدّون خيط حمالة صدرها الأسود من فوق قميص بلا كمين وهي تبسم في وجوههم جميعاً كأنّها لا تشعر بتلك الأيدي القذرة أو كأنّهم كائنات غير موجودة. في تلك الليلة، كان أبراهام سعيداً وهو يحسب دُخْل ليلة واحدة لم يُضاهه دخل الشهرين الماضيين! بيد أنّه حين مضى إلى غرفتها الضيقة التي تشبه مرحاض كنيسة عشوائية مبنيّاً من راكوبة قش، كي يشكرها على عملها الدؤوب، شعر بقبضة شديدة شبيهة بلكمة تحت سرّته وهو يراها تدسّ رأسها في وسادتها الوسخة وتجهش بالبكاء. وما إن رآته واقفاً، يهتزّ بفعل دموعها الحمضية حتّى اصطنعت ابتسامة باهتة جعلته يشعر بضالة ذاته.

-تذكّرت أمّي التي أقعدها المرض لأكثر من عشر سنين، قالت له، فانقبض قلبه.

عندما شرع أبراهام في هبوط درجات السلم الحلزونيّ، كان البدين يلوي يد الصبيّة النحيفة وراء ظهرها ويسوقها إلى غرفته غير أبيه بنواحها الذي سكن خلف باب الغرفة وقد صفقه البدين خلفها

بغضب، فهزّ أبراهام رأسه ممتعضاً وسحق برجله عقب السيجارة وهو يخالها ذلك البدين القميء.

صار العويل والصراخ أكثر حدة هذه المرّة، فجعل أبراهام يمشي في الشارع حافياً، يسأل صاحب الكشك المقابل لباره عما يحدث، وكان صاحب الكشك هذا، دائم الشجار مع سميرة الكبيرة. فحدّجه بنظراته وخرج صوته وهو يمنع لعاب بُكاء مُرّ تجمّع في حلقه، وقال: إنّها... نعم إنّها... لقد وُجدت منحورة، وعارية كما جاءت إلى هذا العالم، ثمّ أردف بصوتٍ متهدّج: عاشت عاهرة، وماتت عاهرة أيضاً. رمى عم جادا صاحب الكشك بنظرة سامّة ووبّخه قائلاً: لم تمت عاهرة، أيها القذر. نكس صاحب الكشك رأسه، وواصل بائع الزهور قائلاً: لقد ماتت شريفة، مثل كلّ النساء المُغتصبات في أيّام الحرب.

وضع أبراهام يده على خدّه مشدوهاً. كان عم جادا يضع زهرة حمراء في جيب قميصه الأسود، وهو جالس على حَجَرٍ وضعه العسكر في منتصف شارع فيس بوك كي لا يسمح بالمرور إلّا في اتّجاه واحد. كان يحمل رأسه بين يديه المعرّقتين ويحملق في الناس كأنّه ضيفٌ حلّ على هذه المدينة دون إذن.

كانت ساندرا وليزا ومئات نساء الحيّ وعشرات الصبايا يصرخن ويشددن شعر رؤوسهنّ ويعفرّنه بالتراب. استغرب أبراهام عندما رأى ميكانيكيّ الشارع الخلفيّ لمحلّ إسبيرات جوني وحمّالي سوق كونجو كونجو وعمّال مطعم سمك أبو الجن في نادي ملكيّة ينوحون بأصواتٍ شبيهة بصهيل الخيل. وكانت النادلات الجميلات بمطاعم

الفنادق المطلّة على بحر الجمل، وساكنات بيوت الصفيح خلف سوق جبل، وبعض طالبات الجامعة اللواتي كانت سميرة تؤجّر لهنّ غرفتها لقضاء متعة ساعة، ينحن ويبكين كأنّ التي ماتت هي أمهنّ جميعاً.

حكّ أبراهام رأسه وأشاح بنظره بعيداً كي لا تنفجر ينابيع دموعه أمام النساء. صار الحشد الآن يندفع خارجاً من منزل سميرة وهي ملفوفة بكيس أسود يحمله عسكريّ. وضعوها داخل سيّارة إسعاف بيضاء سارت بين الناس، ثمّ توارت عن الأنظار وسط الحشد الكثيف.

انفضّ الرجال مطرقين يتأمّلون شكل المجرم الذي ارتكب تلك الجريمة البشعة. وظلّت النسوة داخل حوش بيت سميرة الكبيرة وقد تحجّرت دموع الحزن في عيونهنّ، وهنّ يتهامسن فيما بينهنّ مستغربات من أنّ المجرم لم يمسّها فقد كان عضوها نظيفاً، خالياً من أيّ مادّة تورط المجرم في جريمته. بيد أنّ وشاية ساندرّا التي كانت تقول إنّها رآته يوم أمس داخل غرفة سميرة الكبيرة يلفّ وسطه بمنشفة، جعلتهنّ يعتقدن أنّ المجرم فعل بها ما هو أفضع ثمّ أغلق الفتحة بصباح أمير، كأنّه يريد أن يبعثها إلى العالم الآخر عذراء، مغلقة تماماً.

تفرّق الجميع، وظلّ جادا بائع الزهور جالساً على صخرته لا يتحرّك قيد أنملة كأنّه نُحِت هناك، وإذ به يسمع شخصاً يقول:

-عم جادا، ما هو الحجم الذي تريدونه؟

-حجم ماذا؟، ردّ بائع الزهور.

-حجم الصندوق.

-صندوق ماذا؟

-ألا تسترون نساءكم الميَّتات في صناديق؟

-قذريعتاش من الأموات! اذهب من هنا يا كلب، صرخ فيه بائع الزهور.

جرى مُبتعدًا عن العم جادا، وقد غشيته حيرة عظيمة جعلته يرفع صوته مكرِّرا السؤال: ألا تدفنونهنَّ بصناديق؟

لقد كان اليوغنديُّ بائعَ التوابيت الذي أعرب، يوماً، عن استيائه من كساد تجارته.

بقي بائع الزهور حزيناً وهو يجلس على صخرته غير عابئ
 بالأطفال إذ عبثوا بأزهاره المرصوفة في تناسقٍ بديعٍ بدّد الحزن الذي
 جثم على طول شارع فيس بوك. حتّى الآن لم يهتمّ الناس بمصدر
 أزهار عم جادا. هم لم يروها تنبت في الجنوب، لكن ما كان يروى من
 شائعات في مقهى ساندرام ومنزل المرحومة سميرة وحتّى داخل غرف
 الفنادق العشوائية يقول إنّ تلك الزهور تنبت في عمق حيّ كَبيرة العائم
 في مستنقعات السبخة.

الأزهار التي كان الأطفال يعبثون بها لم تكن كالتي اعتاد الناس
 عليها طيلة سنوات عم جادا في المدينة أو أزهار عبّاد الشمس والفلّ
 الأبيض. لقد كانت زهوراً جميلةً مثل زهرة التيوليب، وقد أعلن عم
 جادا عن وصولها قبل شهر من قيامة الزعيم.

كان الزبائن يحتسون الخمر داخل بار أبراهام ملتفين حول
 طاوولاتٍ خشبٍ بأرجلٍ منحوتة في شكل ضباغٍ تتربّص بفرائس غير
 مرئية. استدارت العيون تحمّلق في جادا، إذ اقتحمت أنوفهم رائحةٌ
 ذكية جعلتهم يصمتون ويتمعنون في القادم. أعلن بائع الزهور بصوته
 الجمهوريّ الواثق أنّ العطر الذي علقت رائحته بأنوفهم الآن هو عطرٌ
 لزهورٍ طبيعيّةٍ استلم منها عوداً صغيراً، وقد وُضعت في ظرفٍ بُنيّ

وُبُعِثَتْ إِلَيْهِ مِنْ وَرَاءِ الْبَحَارِ، وَاسْتَلَمَهَا فِي الْمَطَارِ صَبِيحَةَ الْيَوْمِ. لَقَدْ جَعَلَتْ رَائِحَتَهُ الْقَوِيَّةَ تِلْكَ رَكَّابَ الطَّائِرَةِ يَتَجَمَّعُونَ حَوْلَ السَّيِّدَةِ الَّتِي جَاءَتْ خَصِيصًا لَتُسَلِّمَنِي إِيَّاهَا!، أَكَّدَ عَمَّ جَادَا.

وَفَجْأَةً سَكَنَ كُلُّ مَا يَمَلَأُ فُضَاءَ الْبَارِ مِنْ أَصْوَاتِ الْمَلَاعِقِ وَالشُّوْكَاتِ وَالسَّكَاكِينِ وَقَرَقَرَةُ الْجَعَّةِ فِي الْأَفْوَاهِ عِنْدَمَا وَقَفَ جَادَا وَأَعْلَنَ أَنَّ الزَّهْرَةَ الَّتِي سَتَكُونُ فِي مَتَنَاوِلِ الْجَمِيعِ فِي غَضُونِ بَضْعَةِ أَيَّامٍ هِيَ زَهْرَةُ التِّيُولِبِ، هَلْ سَمِعْتُمْ بِهَا مِنْ قَبْلِ؟ سَأَلَ بِاسْتِعْلَاءٍ. لَمْ يَجِبْ أَحَدٌ، فَأَرْدَفَ يَسْرِدُ حِكَايَةً طَوِيلَةً جَعَلَتْ بَعْضَ الزَّبَائِنِ يَتَذَمَّرُونَ سَرًّا بَيْنَمَا ظَلَّ آخَرُونَ يَسْتَمْعُونَ إِلَيْهِ كَأَنَّهُمْ يَصْغُونَ إِلَى وَعْظٍ فِي صَلَاةٍ يَوْمَ الْأَحَدِ.

كَانَتْ قِصَّةَ شَيْقَةٍ عَجِيبَةٍ لَا أَحَدٌ يَعْرِفُ هَلْ كَانَ جَادَا اخْتَلَقَهَا كَيْ يَرْوِّجَ لِبُضَاعَتِهِ، أَمْ أَنَّهَا حِكَايَةُ حَقِيقَةٍ تَكَادُ تَكُونُ أَصْدَقَ مِنَ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ نَفْسِهِ. لَكِنْ مَا لَمْ يَخْتَلَفْ فِيهِ اثْنَانِ هُوَ أَنَّ الْجَمِيعَ أَعْجَبُوا بِالْأَسْطُورَةِ الَّتِي حَكَاهَا جَادَا.

تَقُولُ الْأَسْطُورَةُ إِنَّ شَابًّا فَارَسِيًّا انْكَسَرَ قَلْبُهُ وَهَامَ بِحَبِّ فَتَاةٍ جَمِيلَةٍ لَا يَجْرُؤُ أَحَدٌ عَلَى النَّظَرِ فِي عَيْنَيْهَا. وَفِي يَوْمٍ مَشْؤُومٍ عَشَّشَ الْبُومُ فِي حَيَاةِ الشَّابِّ، وَبَلَغَهُ نَعْيُ مَعْشُوقَتِهِ، فَمَا كَانَ مِنْهُ إِلَّا أَنْ امْتَطَى صَهْوَةَ جَوَادِهِ الْعَرَبِيِّ الْأَصِيلِ، وَهُوَ يَرَى أَنَّ الْحَيَاةَ أَصْبَحَتْ تَافَهَةً بَعْدَ مَحَبَّتِهِ، فَقَفِزَ بِهِ مِنْ أَعْلَى الْجَبَلِ وَسَقَطَ فِي هَاوِيَةٍ سَحِيقَةٍ، وَظَلَّ يَنْزِفُ حَتَّى مَاتَ. وَفِي الْمَوْضِعِ الَّذِي نَزَفَتْ فِيهِ دِمَاؤُهُ نَبَتَتْ زَهْرَةٌ جَمِيلَةٌ بِرَائِحَةٍ ذَكِيَّةٍ سُمِّيَتْ زَهْرَةُ التِّيُولِبِ، أَيُّ زَهْرَةِ الْحَبِّ الْوَفِيِّ.

-وماذا حدث للحصان؟ سأل زبونٌ كان نائماً فاستيقظ.

-غبيّ. أتفكر في الحصان أم في الشاب يا سكّير؟ ردّ أبراهام.

-سكّير، نعم. ومن أين تعيش أيّها الأثيوبيّ القذر إن لم أنفق مالي في السُّكر؟

-اخرس، أمره أحدهم.

كانت الدهشة التي ارتسمت على وجوه المستمعين غريبة ومثيرةً
لنفس جادا، فقد خيم الحزن على الجميع فاستأذن أبراهام بائع الزهور
قائلاً إنّ مثل هذه القصص العاطفيّة لا تصلح روايتها في البار، فلا أحد
يعبأ بغير قصّة يرى المرء شخوصها أمامه أو يعرف أنّهم بشر يعيشون في
هذا الحيّ. خرج جادا على أمل أن تكون زيارته الأولى إلى بار أبراهام
-بعد استلام بضاعته- تقديراً للذين استمعوا إلى قصّته بصمتٍ شديد،
خاصّة الكينيّة التي اعتكفت في غرفتها، ولم تأكل ولم تستحمّ إلّا في
اليوم الثالث حين قال لها أحد الزبائن إنّ قصّة زهرة التوليب قصّة
رومانسيّة خياليّة اختلقها جادا الكذاب.

عبث الأطفال بزهرة الحبّ، التوليب، وجادا ينظر إلى منزل
سميرة الكبيرة كأنّه ينتظر خروجها وهي تضحك ضحكها المثيرة
عندما تراه ثمّ تسأله: هل أتينا بزهرة يمكن أن تنبت على قبري كما
فعلت التوليب في مكان ذلك الشابّ المتهور؟ كثيراً ما سمعها تقول
ذلك فيردّ: الجميلات زهرات لا يحتجن إلى التوليب. ثمّ انفجران
ضحكاً.

-بسيوني!

انتفض جادا ووقف على رجليه والتفت وكاد يركض لكنه كبج
جماح ارتبأكه، وسأل: أتكلّمني؟

-أجل، أنت يا بسيوني، ردّ الرجل وقد اقترب من جادا أكثر.

-اسمي جادا وليس بسيوني، يا سيّدي، تتمم بائع الزهور.

-جادا أو بسيوني، هذا لا يهمّ الآن! المهمّ هو ما أريد قوله لك وأنا
أرى الحزن يلدغ نفسك كالعقرب.

-ولكنّي لا أعرفك يا سيّدي، قاطعه جادا.

-الأصدقاء القدامى يعرف بعضهم بعضا وإن لم يلتقوا ولو مرّة
واحدة.

-كيف نكون أصدقاء، ونحن لم نلتق من قبل؟

-المهمّ، ستعرف لاحقاً يا بسيوني. اسمعني جيّداً، لا تكن منافقاً:
فالمعمّرون مثلك لا يحزنون لموت أحد حتّى وإن كان الميّت ابنةً أو
ابناً وحيداً له. كلّنا، يا بسيوني، نولد ونحن نحمل في دواخلنا وقودَ
احتراقنا منذ أن نصرخ الصرخة الأولى. هناك من يشتعل وقوده
بأسرع ما يمكن، وهناك من يقود سيّارة حياته ببطء فيحترق
وقوده ببطء شديد، وهناك من لا يحترق وقوده على الرغم من
سرعته إلّا عندما يصبح شيخاً هريماً مثلك. بيد أنّنا، في النهاية،
ميّتون جميعاً. فنحن نمضي، برغبةٍ أو بغير رغبة، عبر جسرٍ وعرٍ
اسمه الحياة نحو النهاية الحتميّة؛ لذا، لا أفهم لماذا يحتفل الناس

بميلاد طفلٍ جديد، وهو ميلادٌ لبداية الرحلة نحو الزوال؟ ولا أعرف لماذا يبكي أمثالك ويجزنون طالما أنّهم يعرفون هذه النهاية التي رسمها القدر بعناية فائقة في مكانٍ ما من نفس كلّ واحد منّا. ولا يمكن لأحد مهما بلغ مكره ودهاؤه وذكاؤه أن يقدم محطّته الأخيرة تلك أو يؤخّرها. أنت تعرف ذلك يا بسيوني، فلا تنافق.

كان الرجل يتحدّث وهو مُطرقٌ، ورأسه مغطّى بطاقيّة مرقّطة شبيهة بجلد النمر، فلم يتمكّن جادا من رؤية وجهه. انتبه جادا إلى أبراهام الواقف أمام باب عليّته يختلس النظر إليهما. فحمد الربّ على أنّ هذا الأثيوبيّ الذي تجري النميمة في عروقه، لم يسمع الاسم الذي ناداه به محدّثه.

كان عقل عم جادا يعمل كطاحونة هوائية تدور عكس عقارب الساعة ويعود إلى ماضٍ بعيد كي يتذكّر أين ومتى سمع هذا الصوت آخر مرّة. «الأصدقاء القدامى يعرف بعضهم بعضًا وإن لم يلتقوا ولو مرّة واحدة!» لقد جعلته هذه الجملة يستنتج أنّها ربّما تقابلا عن طريق وسيطٍ آخر أو عبر وسطاء آخرين يمثلون الطرفين. كان صوته، وهو يرنّ في عقله بتلك الجملة، شبيهاً بصوت شخصٍ قابله فيما مضى في إحدى أمسيات اشتعال شوارع العاصمة الخرطوم بالمظاهرات وإطارات السيّارات، حين قطع الشعبُ على نفسه عهداً بخلع رئيسه.

كانت الندوة التي حضرها بائع الزهور آنذاك مشتعلّة، كما الشوارع، بخطاب حماسيّ يلقىه نقيب أطباء السودان. في تلك اللحظة التفتَ شخص إلى جادا واعتذر لأنّه رجع إلى الوراء قليلا وداس على

رجله. كان ذاك الصوت نسخةً مطابقةً تمامًا لصوت محدّثه الذي ظلّ مُطَرِّقًا حتّى بعد أن جاء أبراهام إلى شارع فيس بوك يسأل عم جادا عمّا يحدث. استبعدت ماكينة ذاكرة جادا أن يكون مخاطبُه هو الشخص الذي التقاه صُدْفَةً في أبريل 1986. لأنّ ذلك الشخص حُمِلَ خارج مكان الندوة قبل دقائق من انتهائها. فقد ذهب به شبّان كانوا يتفجّرون حماسًا إلى كورنيش النيل، وأوسعوه ضربًا أفقده وعيه. «أمنيّ يستحقّ الموت»، كانت تلك آخر جملة سمعها جادا من الشبّان والرجل يصرخ بين أيديهم كمن أُصيب بطلق ناريّ في ركبته.

-امضِ من هنا أيّها الأثيوبيّ اللعين، قال جادا لأبراهام حين سأله عمّا يحدث، ألم تُب عن حشر أنفك في أمور الناس؟
انسحب أبراهام، لكنّه لم يمضِ بعيدًا بل وقف عند الركن المقابل للفندق حيث كان البدين يطارد صبيّةً نحيلة قبل سويغات.

-بسيوني، قال الرجل.

-اسمي جادا، أرجوك.

-بنيامين إسحاق بسيوني، ابن بسيوني التاجر اليهوديّ الكبير بسوق أم درمان، وقد تحوّل إلى الإسلام كي يتزوَّج من سودانيّة تُدعى...

-كفى، قاطعه جادا، و أردف: ماذا تريد؟

نظر جادا حوله ثم جرّه من يده وذهب به بعيدًا عن شارع فيس بوك، واختفيا في زقاقٍ يؤدّي إلى بيتٍ يقول عنه سكّانُ الحي إنّ رائحة

ممارساتٍ غير طبيعيّة تفوح منه كلّ ليلة، وإنّ سيّاراتٍ رئاسيّةً فارهة
شُوهدت تُركن هناك رغم ضيق شوارعه المطموسة في الظلام.

-ماذا تريدون من هذه الدولة الوليدة، يا بسيوني؟ سأل الرجل.

-لا شيء، نريد فقط أن نعرف ما هي ديانة معتوهمكم هذا، ردّ بائع
الزهور.

-ألا ترونه يذهب إلى الكنيسة في أيّام الآحاد؟

-ونراه أيضًا يذهب إلى المشعوذين في بقيّة الأيام.

-وهل يحتاج ذلك إلى استيراد الزهور من الصين يا بسيوني؟

-لو اقتضت الضرورة لاستوردنا الصين كلّها، أيّها الزعيم!

-كذا أنتم دومًا. قل لي، ما تقييمكم لحال الدولة الوليدة يا بسيوني؟

-كما ترى، إنّها وكُرّ فسادٍ كبير كمرحاض يُصيب أنوف العالم
باحترقانٍ مريع، حالة يرثى لها!، تتمم بسيوني.

نزع الرجل الطاقية عن رأسه فتجمّد الدم في عروق جادا وأمر
الرجل بأن يغطّي رأسه خشية أن يراه شخصٌ آخر وهمس في أذنه:

-لماذا قتلت سميرة الكبيرة، يا زعيم؟، لا تقل لي إنّك لم...

-أنا لم أقتلها، قاطعه الزعيم، الأحياء وحدهم يعرفون فنون القتل
يا بسيوني، تمامًا كما فعلتم بي!

-أعرف أنّ الموتى لا يقتلون. صمت بسيوني برهةً، ثمّ قال: لكنّك
لست ميتًا يا زعيم. الموتى لا يتحدّثون! أنتَ روحٌ شريرة،

والأرواح الشريرة تتحدّث وتحبّ وتكره وتقتل، تمامًا، كما فعلت ببلاك وبسميرة الكبيرة، ومن يدري من تكون الضحيّة القادمة، غدًا.

- هذه ثرثرة من يريد التغطية على مؤامراته الخبيثة، عارض الزعيم، وأضاف: قل لي، ما الغرض من استغلالكم للراحلة سميرة؟

- لقد كانت سيّدة شريفة لفظتها الحياة في غير زمانها، فصارت ضحيّة من يفكّرون بأعضائهم السفليّة.

- وأنت يا من تفكّر بأعضائك العلويّة، لماذا تتاجر بالزهور وهو عمل خاسر؟، قال الزعيم.

لم ينبس بسيوني بنت شفة، ولم يتحرّك قيد ستمتر واحد. رمى الزعيم بنظرة تهديد ثمّ قال:

- هنالك شيئان في هذا العالم يجب أن يقدّسهما الرجل النبيل: المرأة والوردة! دونهما، يصبح الكون مستنقعًا كبيرًا من القبح.

- دعنا من هذا الكلام المنمّق الجميل الذي لا طائل منه، قال الزعيم، سأسألك سؤالاً واضحاً: لماذا صفيتموني جسدياً؟ ماذا فعلتُ لكم، ماذا؟ قال الزعيم بنبرة شكوى.

نظر بسيوني صوب نهاية الزقاق الضيّق المفضي إلى شارع فيس بوك ليتأكّد من أنّ أيّ مخلوق في هذا الكون لن يسمع ما سينطق به. ثمّ سحب نفساً عميقاً وهو يرى عيني الزعيم كقرصين صغيرين لشمسين في بحر من الدموع الحزينة. وهمهم:

-أنت من صَفَّيت نفسك، سيّدي الزعيم، إذ ائتمنتَ على حياتك من لا يُؤتمن إطلاقاً! الحكومات هناك في غاية القذارة وقد تبيعك بأبخس الأثمان في سوق القذارة الدوليّة. إنهم يتنافسون، كسماسرة العقّارات الكبيرة، فمن يستطيع أن يقنع الزبون بأن يشتري العقار يحصل على نسبةٍ من سعر المبيع. لقد كنت بالنسبة إليهم، أيها الزعيم، كعقّار في شارع وول ستريت في مانهاتن. تنافسوا عليك وتضاربوا ردحاً من الزمن وقبضوا عمولتهم من بيعك قبل سنوات وكانوا رهن إشارة البائع كي يسلموه العقار تابوتاً يطمرونه في أرضك كي لا يغضب شعبك. لقد فعلوا ذلك من قبل، كما تعلم، وفعلوه من بعدك. إنهم يرون ضوءاً خافتاً في نهاية النفق، يظنّونه بصيص أمل، غير مدركين أن ذاك الضوء الخافت ليس سوى شعلة قنبلة تنتظرهم كي تنفجر في وجوههم. هكذا هي السياسة عندهم، أيها الزعيم: لعبة قدرة يارسونها في وضح النهار ثم يذهبون، بعد ذلك، إلى دور العبادة يركعون ويمسحون جباههم على الأرض ويكون ويتضرّعون إلى الخالق كي يغفر لهم ما تقدّم وما تأخر من كلّ موبقة وذنبٍ اقترفوه.

صمّت بسيوني. غاص الزقاق المعتم في هدوء مفزع. كانت المدينة صامتة كأن أهلها غادروها فجأةً إثر تهديدٍ باجتياح العدو لها، أو توقع حدوث زلزال في الساعات القادمة. غمغم الزعيم وشهق بسيوني وهو ينظر إلى زهرة التوليب يتقاذفها هواءً من الشارع الرئيسي ثم يعرج بها إلى الزقاق حتّى استقرّت بين رجلي الزعيم فأخذها واستنشقتها طويلاً.

-دعني أسألك يا زعيم، لماذا لم تتخلص منه أيام الثورة؟
-ممن؟

-من هذا الأخرق الذي ضيّع البلاد والعباد.

-لم يكن ذلك جائزاً، يا بسيوني، أخلاقياً على الأقلّ.

-وهل للثورات أخلاق؟

-لثورات مبادئ، وهي أخلاقها.

-ومن الأخلاق، يا زعيم، التخلص ممن يعيقون مسار مبادئ
الثورة!

-ليس من الحكمة والأخلاق التخلص من غليظ الذهن الذي لا
يضرّك في شيء.

-المأفون الذي أغفلته، سيّدي الزعيم، صار رأس زاوية الكارثة.

-صار.. ولكنّه لم يكن كذلك، قال الزعيم، وأضاف: ألم تستطع
أذرعكم الطويلة التخلص منه فيما بعد، يا بسيوني؟

-ولماذا نهدر سمعتنا على من لا يستحقّ؟

-ألا يستحقّ هذا الشعب المسكين خدمتكم إذن؟

-يستحقّ وأكثر، لكننا لا نريد تلطيخ أيادينا البيضاء بدماء متخثرة.

-أيادٍ بيضاء! لماذا؟

-لا فرق بينك وبينه يا زعيم. إنّهُ مثلك، تماماً، يمشي ويتنقّس
ولكنّه ميّت.

-إن كان ميّتاً، فلماذا لا تدفنه كما دفتموني قبل عشرات السنين؟

-إنَّه غيبيّ، كما قلتَ أنتَ، والأرعن يطمر نفسه، لكي يصير درسًا لكلّ غيبيّ يأتي بعده ولم يتّعظ.

جاء أبراهام وساندرا يركضان وأنفاسهما تتقطّع وتسبقان كلماتهما المبتورة. استوعب جادا الأمرَ حين أشار الأثيوبيّ إلى أنفه وأكملت ساندرا الرسالة. فالتفت بسيوني إلى الزعيم يستأذنه في أن هناك من يعاني حالة إغماء ولا بدّ له أن يستنشق زهرة معيّنة جلبها من تركيا خصيصًا لذلك. كان الطوب الذي يجلس عليه الزعيم خاليًا. نظر جادا إلى أبراهام وسأله ما إذا كان رأى شخصًا يجلس بجانبه فهزّ كتفيه نافيًا، وفردت ساندرا يديها دهشةً. وأضاف أبراهام أنّه رآه يجلس وحيدًا، لأكثر من ساعتين تقريبًا، متكئًا على الحائط، كأنّ حزنه على موت سميرة قد سمّره هناك، لا يلوي على شيء.

نهض بائع الزهور -ولا نعرف هل نطلق عليه اسم جادا أم بسيوني كما كان الزعيم يناديه- وتبع أبراهام وساندرا بخطواتٍ متعثّرة. كان يفكر فيما إذا كان ما دار بينه وبين الزعيم واقعيًا، أم إنّّه كان مونولوجًا شارك فيه روح الزعيم المعذّبة. لطّف نسيم عليلٌ وجهَ ساندرا وحمل من جسدها شذّيّ ضوًّا ملاءمًا أنف جادا، وعاد بصفحات ذاكرته عقودًا إلى الوراء، عندما ترجّل عن السفينة التي كان يعمل فيها طبّاخًا في سبعينيّات القرن المنصرم، في ميناء مومباسا الكينيّة. لقد مرّت أمامه آنذاك فتاة بلونٍ هو خليط من البنّ الأثيوبيّ والكاكاو الإيفواريّ. كانت تلك هي الرائحة الطبعيّة الذكيّة المشبعة بنكهة ملح المحيط الهنديّ، رائحة تكاد تنطق بأنّ التي تمشي أمامه أنثى تعلوها فُروهة طاغية تجعل

شمشون يتملّص من أحضان دليّة ويغادر، طوعاً، مكانه في سفر
القضاة بالكتاب المقدّس، ليرقد على فخذي ساندرا، مستسلماً، وغارقاً
في لهيب حبّها الاستوائيّ الساخن، هنا، في شارع فيس بوك.

زارني في منتصف الليل وأيقظني بصوت هامس وسريع، فقلت لا بدّ أنّ الحلم الذي انقطع بفوضى حركة الجرذان والصراصير قد استأنف مسيرته ولم يتوقّف إلّا مع انفجار زوجتي ليزا ضاحكة ملء شديها، وهي تُعانقني بشدّة يوم أُفْرِج عنيّ من المعتقل. في ذلك اليوم أُسْقِطَ كُلُّ التهم الموجهة ضديّ بترويع الناس بإشاعة قيامة الزعيم والتسبّب في زعزعة الأمن القوميّ.

كان كلّ شيء يبدو كأنّي مضيت إلى مقهى ساندرا أو بار أبراهام أو مكان مألوفٍ وفجأة تحوّلت الأمكنة إلى أشباح ضبابيّة تتحرّك أمام ناظريّ، ومنها انبثق أخي الميت أغسطينو يمدّ يده إليّ. وكلّما مددتُ يدي لأصافحه تراجع إلى الوراء حتّى اختفى وسط الضباب الكثيف، فصرختُ، وأنا أسمعه يُناديني: أجانق أجانق.

كان صوت ضابط الأمن نيمايا، صديق أخي أغسطينو، فاستيقظت وجلست القرفصاء فوق لحافي متعرّقا. ترك الباب خلفه مواربا، فسقط على وجهي ضوءٌ قويٌّ كطلاء أصفر فاقع. كنت قد انتهيت لتوّي من سحق مستعمرات القمل المتحرّكة تحت شعر رأسي المجعّد وبين ثنايا التّبّان الداخليّ المُتسخ، ومن قتل صراصير كبيرة تطير كالجراد وطرّد فئران شرسة بحذائي الذي قضمته.

كرهتُ زيارات نياميا، فقد أُمست تحمل إليّ أخباراً سيئة مثل موت سميرة وملاحقة السلطات لكلّ من يأتي بسرّ الزعيم. لكنّ زيارته كانت، في الحقيقة، تُخفّف عني الأمر بالحديث عن ذكريات الطفولة القديمة. لقد كان يلجأ إليها دومًا وهو يتذكّر صديقه أغسطينو، فيبكي كالطفل.

-لقد قتل الزعيم بلاك لأنّه ضُبط في منزلك، قال نياميا.

خرجت الجملة من فمه كلهبٍ ساخن، وشعرتُ بسعير حرارته يخترق أذني ودهاليز أعضائي ويستقرّ في جدار قلبي. ربّما شاهد نياميا شرارة الموت تتطاير من عينيّ اللامعتين في جوف ظلام المعتقل فتحسّس مسدّسه، ولم أعبأ أنا بذلك. كان يجلس أمامي على كرسيّ جلبه له حارس ووقف آخر خلفي بسلاحه، فشمته في سرّي. قلت له إنّني أعرف الزعيم وأعرف زوجتي ليزا جيّدًا. أعرف أنّ باستطاعتها الصيام عن الرجال مدى الحياة. فطأطأ رأسه خجلًا، وقال: أعرف ذلك، ولكن..

كنت أريد أن أقول لنياميا، وبصوتٍ عالٍ إنّ ليزا رفضت -من أجلي أنا أجانق- ابنَ سلطان قبيلتها الذي كان يملك من المال والماشية والأراضي ما جعله يشتري ذمّ أعمام ليزا الثلاثة وخالاتها الستّ. وبلغت به الصفاقة أن أرسل أربعةً من رجاله ليمنحوني مبلغًا من المال كي أتنازل له فيتزوَّج ليزا! وكدت أقول له إنّ ليزا بصقت في وجهه فطردها والدها من منزله لأنّها جلبت العار إلى العائلة والمجتمع والقبيلة وكلّ القرى المجاورة، فاخفت من المنزل ولم تعد إلّا حين

ظهرت، فجأة، في إحدى المقابر يوم دفن أبيها، فبكت والدتها كثيرًا
كأنها تبكي ابنةً وحيدة رحلت.

كنت أريد أن أقول له وللصنم الواقف خلفه كأبي الهول إن والدها
سلّط على ميري والدته ليزا عقابًا بشعًا، فبنى زنازة بحجم سرير واحد،
في طرف منزله الكبير بالقرية، وسجّنها فيها منذ أن تزوّجت ليزا. ولم ترَ
ميري الضوء طوال السنوات العشر إلا عندما أُخْرِجَتْ لتشهد مراسم
دفن زوجها حين مات بسكتةٍ قلبيةٍ لأنّ ابنته تزوّجت فقيرًا مثلي.

ليت هذا الغبيّ الجالس أمامي يعرف ما كنت أفكر فيه الآن!
نهض نيامًا من كرسيه بثبات، لكنني كنت أشعر برجفة الخجل
تسري في صدره وثّر عرش قلبه. ثم خرج، فتبعه الحرس الأحمق.

ظللت جالسًا هكذا ورأيت ذرات ضوء الفجر تتدفّق بسلاسةٍ،
كمياه نهرٍ عذبٍ عبر ثقبٍ في سقف الزنازة الضيقة. صارت رائحة
المرحاض تثير حساسيّة أنفي منذ أن وقع في مسمعي ذلك الخبر
المستفزّ. غريبة هي كائنات الخالق مثل الصراصير التي تتحمّل تلك
الرائحة منذ بداية الخليقة حتّى الآن دون أن تملّها. بدأ يقتحم أذني أزيز
سيّارات وصرير مفتاح على الباب يبدو أنّ مغلاقه لم يُتعهد بالصيانة أو
يُغيّر منذ حقبة ما قبل الاستقلال.

انفتح الباب واندفع تيّارٌ من الضوء القويّ نحو الداخل تبعه
ثلاثة أشباح متّشحين بأقنعة داكنة ويرتدون ملابس عسكريّة سوداء.
كانوا يحملون جثّةً وألقوا بها على الأرض دون اكتراث. ثمّ أغلق علينا
الباب. ظلّ راقدًا لا يتحرّك ولم أسمع صوت أنفاسه فظننته ميتًا. وبعد

ساعةٍ تقريباً سمعته يتقلب ويتأوه كمن طعنه سكين حادّ في جنبه. ثمّ جلس بصعوبةٍ على إليته وحاول أن ينظر إليّ. ولما كان الضوء المتسلّل يسقط على وجهه بشكل واضح تمكّنت من رؤيته وعرفته. ربّما أرادوا ذلك كي أرى وجهه المأنوس. ضاقت الغرفة برؤيته وشعرت بهواء غبنٍ يتمكّن من عنقي وبقبضة يدي تتحرّج. سألني من أنت، فقلت أهلاً يا زعيم، فردّ قائلاً: كيف أنت يا أجانق؟

كان صدري يتحرّك وأنا أشعر بنار تستعر في داخلي رغم موج الشكّ المتلاطم الذي يدفعني هنا وهناك. اقتربت منه زحفاً، ويبدو أنّه استشعر حرارةً تنبعث من فتحات أنفي الكبير الأفطس. لم أتصوّر كيف بلغ تلك الدرجة من قلة الحياء حتّى يغتصب ليزا زوجتي؟ لا تحاول يا أجانق، صرخ قائلاً، فاصطدم صوته بالحيطان الأربعة العالية وردّد الزنك صداه. كنت قد لطمته وهوى على الأرض حين فُتح الباب برفق، ودخل شخص وجلس بقربي دون أن أسمع وقع خطواته. قام متأوهاً وهو يمسك فكّه بيده ويبصق دمًا على أرضيّة المعتقل الإسمنّية الباردة. نظرت إلى القادم لتوّه فوجدتني تائهًا بين الوجهين اللذين أنظر إليهما: وجه الزعيم ووجه الزعيم أيضًا! حاولت أن أستعيد ذكرياتي بتلك الطريقة التي علّمني إياها تسفاي حتّى لا أترك المعتقل يقضي على آخر ما بقي منها.

«يجب أن تعيد تفاصيل حياتك اليوميّة التي كنت تمارسها حتّى وإن كانت ممّلة، أسماء الأشخاص الذين تعرفهم ابتداءً بأسرتك وأصدقائك وأفراد مجتمعك وأسماء الشوارع التي يقطنونها؛ شجرة المانجو التي تمنحك ثمارها مرّتين في العام وظلّها طول السنة؛ الجدول الصغير

الذي تطفره حين يمتلئ بمياه الأمطار مخافة أن يبتل حذاؤك العسكري الطويل؛ وأول منزل أو كنتين أو مطعم أو مقهى شاي يقابلك وجهها لوجه حين تقفز وتقف لتدعك قعر حذاءك من الطين العالق به. ردد كل ذلك كأنك تقرأه من ورقة مفتوحة في صفحات ذاكرتك، أو تتلو آيات مقدسة في قداس كاثوليكي طويل وممل، ولأنك تتمنى لرئيسك صاحب الكلمة العليا في الكنيسة والدولة والجيش والجامع أن يسكب القدر في جوفه سائل حامض الكبريتيك المركز عوضاً عن الويسكي الذي آدمه، فعليك أن تردد اسمه الثلاثي عشرين مرة في اليوم كي تبقى ذاكرتك متأهبة لسماع خبر اختطافه يوماً ما أو موته برصاصة أحد حراسه لتنطوي صفحة سوداء في تاريخ شعبك. هكذا يمكنك أن تحافظ على ذاكرتك، يا أجاتق، ناصعة وقوية ونشطة لا تهزمها قسوة هذا المعتقل.

الآن تذكّرت وصية صديقي تسفاي.

وأنا جالس بينهما، الزعيم والزعيم، بدأت أردد أشياء معيّنة كي أتأكد من أن ذاكرتي لم تمح وأن اللذين أراهما أمامي الآن هما من أراهما فعلاً. رددت بصوت مكتوم: ليزا، إيمانويل، جيمس، كلارا، شارع فيس بوك، كونتينر جوني، سميرة الكبيرة، ساندرا بائعة الشاي، عم جادا الأعمى وأزاهيره الرائعة الجميلة، سانتينو، أنطوني، تفسير أخي لحلمي قبل أربعين عاماً ونحن في طريقنا إلى المدرسة، حي «أطلع برّه»، الضريح، جامعة جوبا، يوم القيامة وتلك الجملة التي قالها لي الزعيم في ليلة قيامته... رددت كل ذلك لأتأكد تماماً من أن الرجلين الواقفين أمامي هما الزعيم والزعيم.

الآن، تأكدت من أن سنوات المعتقل قد فشلت في محو ذاكرتي

الناصعة. ومن الدهول الذي كان ينظر به أحدهما إلى الآخر، بدا كأنَّها يلتقيان أوّل مرّة. كان الاثنان بالنسبة إليّ، وأحدهما يحدّق في وجه الآخر، كأنَّهما شخص واحدٌ ينظر إلى نفسه في المرآة: العينان الجاحظتان البرّاقتان، الأنف الأפטس المميّز، والصلع الذي بدا كأنَّه مدهون بالسمن وحُبيبات العرق المتناثرة فوقه، حتّى البنطال الأسود والقميص الإفريقيّ المزركش. لقد كانا كتوأمين في فيلم هنديّ افترقا منذ ولادتهما والتقيا، فجأةً، في معتقل يدخله الأوّل كسياسيّ والآخر كقاطع طريق.

-لماذا لكم تني يا أجانق؟

-إنّك تعرف السبب جيّداً، أيّها الزعيم.

-إن كنت تقصد الزعيم، فهو هذا وليس أنا، قال ذلك وهو يشير إلى الزعيم.

ظلّ الزعيم الآخر صامتاً وهو ينظر إلينا.

-أتظنّني غبيّاً؟، قلتُ.

-أنت لست غبيّاً يا أجانق، ولكنّ الزعيم الجالس أمامك هو من اغتصب زوجتك ليزا وقتل بلاك.

برزت ابتسامة ساخرة على شفّتيه ثمّ ماتت حين تنحنح الزعيم الآخر وهمهم. كانت الشمس لاسعة، عرفت ذلك من حرارة الزنك اللاّفحة ووجهيهما المتعرّقين.

-عمّ تتحدّث يا سيّدي؟، سأل الزعيم الذي جاء منذ حين.

-أتظنّ نفسك ذكيّاً يا زعيم؟ صرخ الزعيم الذي لكمته، ثمّ أردف قائلاً: عن الاغتصاب وقتل بلاك، أتحدّث يا زعيم.

تنفّس الزعيم بأسى. وجدت نفسي في متاهة غريبة تبدأ بحياتي حين كنت أصطحب أخي وصديقي الأكبر إلى المدرسة وتمرّ بحادثة دهسه بسيارة، وحادثة دهس أجانق صديق والدي واني الذي سُميت باسمه، وقيامه الزعيم والحديث معه والمعتقل وحياتي في حيّ «أطلع برّه» ومعركة «ميل أربعين» في أيام حرب التحرير. وكلّما ابتهجْتُ لأنّي أوشكْتُ على الخروج من تلك المتاهة، أجدني أبدوها، مرّة أخرى، من أولّها أو من وسطها ثمّ أعود إلى الخلف ثمّ إلى الأمام لأجد نفسي أمام الزعيم والزعيم الآخر داخل المعتقل.

فجأةً، وبحركة غير متوقّعة، قفز الزعيم الذي لكّمته وهبط فوق الزعيم الآخر وأخذ يخنقه.

هذا منزلي ولا أريد أن تُرتكب فيه جريمة. ارتميت بينهما وأبعدت الزعيم الملكوم وقد تسارعت أنفاسه كحصان سباق. جلس في ركنٍ يبحث عن هواء يُسعف رئتيه بينما ظلّ الآخر واقفاً، كصنم، لا يلوي على شيء. كان جسم الثاني بارداً كأنّه خرج من ثلاجة مشرحة. وكانت أنفاسه خافتة أو ربّما كانت مخفية كمن لا رتتين له. يبدو أنّ الجهد البسيط الذي استهلكته في فضّ النزاع قد استنزف طاقتي فقعدت على الأرض. ويبدو أنّ الزعيم الواقف أراد أن يصبّ جام غضبه بطريقة أخرى فانبرى يتحدّث بصورة دراماتيكية وهو يُحرّك يديه وأصابعه، وبؤبؤا عينيه يدوران كأنّه يخاطب جيشاً يتأهب لخوض حرب:

-الموتى يا أيّها الزعيم، ليسوا كبني البشر الذين يحملون في دواخلهم غرائز تحرّكهم وتجعلهم يحبّون هذا ويزدرون ذاك.

الموتى يا أيها الزعيم لا يشعرون بالألم أو الحزن أو السعادة لأنهم يتركون كل ذلك حين يغادرون هذه الدنيا.

-إن كنت تحسب نفسك في عداد الموتى، فلماذا تغتصب وتقتل كما فعلت في منزل أجانق، ومع سميرة الكبيرة، وكما فعلت في أيام حرب التحرير؟، سأل الزعيم الآخر.

تنفس الزعيم نفساً عميقاً. وعُدت أنا إلى متاهتي مرةً أخرى فلم أعد أعرف مَنْ هو منهما؟

تحرك الزعيم خطوةً إلى الأمام وقال:

-لقد قلت لك إن الموتى لا يزهقون الأرواح، لأنهم، ببساطة، ليسوا بشرًا يحملون في نفوسهم بذور شرٍّ تحتاج إلى أن تُسقى بماء الجشع والأنانية وغريزة الانتقام لتصبح أشجارًا ظليلة تُثمر سُماً زعافاً يُبيد الإنسان. هناك اثنان في هذا الكون، يا أجانق، لا يُخطئان أبداً: خالق السموات والأرض، والموتى يا صديقي. والقتل هو أمّ جميع الخطايا. فكيف لميتٍ مثلي أن يرتكب شيئاً مخالفاً لطبيعته؟

وقف برهةً. ودون أن يمنحه فرصة مواصلة حديثه قاطعه الزعيم الملكوم قائلاً:

-هكذا أنتم أيها الموتى، تُجيدون استدرار دموع الناس وإثارة أحزانهم لغيابكم. كل ذلك لم نهتم به لأنه سُنّة من فقد الحياة وامتلاّت نفسه حقداً على الأحياء الذين ينعمون بالدنيا. قل لي،

أيها الزعيم، إن كنت لم تغتصب ليزا وتقتل بلاك وتتسبب في فقدان الرئيس عقله، وتجرد سميرة من لباسها وتنحرفها، فمن أعدم الشاب الاشتراكي نجاشوقاك أيام حرب التحرير، ومن أهمل الرفيق مارتن وقتله، ومن عذب السياسي بنجامين وقتله، ومن اغتال الجندي المغوار كاربينو ومن حارب صمويل وقتله؟ قل لي، إن كان الموتى لا يقتلون، فأنت قتلت كل هؤلاء عندما كنت حيًّا أيها الزعيم وكنت قائدًا لحركة التحرير. هل كنت ميتًا آنذاك، سيدي الزعيم؟

أغمض الزعيم عينيه وتراءى له شهداء حرب التحرير كأشباح مضيئة تتراقص، تحمل في أياديها مشاعل وتنشد تراتيل جنائزية قديمة. كانوا جميع أولئك الذين ذكرهم الزعيم الآخر، يرتدون جلابيب بيضاء ويمشون وسط حقول ورود وزهرات قزحية اللون. رمقني الزعيم بنظرة غامضة وبدا وجهه غريبًا كثيبًا كأنها أيقظت أسئلة الموت في نفسه تلك رغبة في الانسحاب من الحياة مرة أخرى والانزواء في قبر ديناميتي ينسفه إلى الأبد. كانت شفاته المغصنتان ترتعشان كأنهما ترومان التفوه باعترافات مثيرة لقس كاثوليكي متجهم الوجه. ظل الزعيم الآخر جالسًا على الأرض يُحرّك رجله ويلعق شفثيه بتوتر من كسب رهانًا. ولم أكن أنا قد استوعبت ما يحدث حولي.

كان الزنك ينشر فوق رؤوسنا حرارة دافئة، فتخيلت لون السماء في الخارج، لا بد أن يكون برتقاليًا فاقعًا. شككت أول الأمر في أن الزعيم الذي لطمته هو الزعيم الذي عرفته في أيام الحرب، بيد أنه حينما أطلق، بوقاحة، وابل أسئلة تتعلق بمقتل قيادات في حرب التحرير، نزعْتُ

عني ظلال الشكوك الهائمة في سماء نفسي وعلقتُها في رأس الزعيم
الآخر. كلّمنا نطق أحدهما ظننته الآخر الذي أعرفه وأبعدت الشبهة عن
الأول. كان الأمر بالنسبة إليّ معقّداً إلى درجة أنّني سألتها مراراً أكنت
أحلم، أم أنّها فعلاً زعيماً حقيقيّان، أم أنّ هنالك زعيماً حقيقيّاً وآخر
مزيفاً؟

على الرّغم من أنّ شائعة القيامة كانت تختفي كلّما ظهر السيد الرئيس بعد اختفائه المتكرّرة، فإنّ اختفائه الأخير، كان الأسوأ على الإطلاق، فقد جعل السيّدة الأولى تنهمك في تفاصيل البحث المكثّف. وقد أتاح لها ذلك استكشاف أماكن غريبة وبؤراً سكنيّة عشوائيّة داخل العاصمة تخيّلت أنّها لا يمكن أن توجد سوى في أفلام وثائقيّة عن أحياء قصديرية موبوءة بالجريمة تعرضها قنوات ناشيونال جيوغرافيك.

شعرت السيّدة الأولى بحمأة كآبة رسّخها في نفسها منظر الملابس الداخليّة المنشورة في الهواء الطلق بتلك البؤر الغريبة، والعراك الذي نشب فجأة بين أمّ وابنها في الشارع العامّ مثلما رسّخها ضحايا الحرب المعوقون. انبثق هؤلاء أمامها فجأة بأرجلهم وأيديهم المبتورة مسندين أجسادهم النحيلة إلى عكايز طبيّة وأخرى خشبيّة، وهم يسدّون الطرقات متظاهرين ضدّ إهمال وزارة الدفاع. كلّ ذلك لم يثبّط همّة سوزي في البحث عنه في تلك الأماكن التي تتصاعد منها أدخنة خشب يستخدمونه في طبخ وجبات قد تكون كلّ ما لديهم.

ولئن كانت ملابسهم رثة ووجوههم مغبرة من قسوة الحياة ونظراتهم عدائيّة، فإنّ سوزي لم تيأس من سؤال الشبان عن زوجها. تفّ أحدهم على الأرض ففهمت سوزي أنّها إجابة، وحثّها الحارس

على مغادرة هذا المكان. هنا يقطن القاتل المجهول، همس الحارس في أذنها. لم تأبه برده وكأنها لم ترَ بصقة ذلك المأفون. وأخرجت صورة السيّد الرئيس ومدّتها له. ودون أن ينظر إلى الصورة، تناولها الشاب ومزّقها، وهو ينظر في عيني الحارس، فأخرجت سوزي من حقيبتها صورةً أخرى ورمتها على الأرض أمامه ومضت.

كان الأمر في إحدى المرات عصياً، إذ عاد قبل ذهابها إلى صلوات الأحد، فكان لزاماً عليها أن تلغي التواصل مع الربّ في ذلك اليوم لتبقى معه في الحمام طوال النهار. كانت تدعك جلده بالليفة والصابون وتُزيل طبقات باطن قدميه المتشقّقتين بحجر صغير، فنزّت منها خيوط حمراء لم تتوقّف عن النزف رغم رشّها بالمعطر ووضع حُبيبات الملح ومسحها بالهبهان. كانت طبقات الوسخ وقشور باطن رجله كبيرة، ما تطلّب من السبّاك أن يعمل طوال الليل لفتح مجالي المياه المسدودة.

كان يوم الجمعة في غاية الأهميّة عندها. وقفت بالقرب من جامع حيّ ملكال في انتظار أصحاب المغالقي وبائعي الأوراق والظروف والكرّاسات والأقلام الصينيّة في مكتبات حيّ نيم وسماسة السيّارات اليابانيّة الحديثة والمستعملة في حيّ ملكال، وهم عائدون من صلاة يوم الجمعة لترّتهم صورته وعلى وجهه ابتسامة عريضة. ولم تكن تهمل أيضاً بائعي لحوم الضأن المشويّة في أحياء «جبرونة» و«لباس مافي» و«رجال مافي»، وبائعي الخمور اليوغنديّة في حيّ «مونيكوي» و«قوديلي» و«قوديلي 2» وحيّ «الزاندي»، وأصحاب مطاعم الوجبات المحليّة على طول شارع كولولو وعرضه في حيّ «جوبا ناباري». ولما رأى جميع هؤلاء صورته، قالوا مازحين إنّه لا بدّ أن يكون توأم رئيس الجمهوريّة.

كانت السيِّدة الأولى حين يستبدُّ بها اليأس، تذهب بمخيلتها إلى منزل النبيّ أنطوني لينثر عليها ماءً مقدَّساً، ويكتب لها صلوات الصباح والنهار والمساء وصلوات ما قبل النوم، مع أنّها جرّبت ذلك عشرات المرّات.

كانت تخرج مع صياح الديوك ولا تعود إلّا بعد أن تكون النجوم قد احتلّت كبد السماء، وأحاط بالقصر صمتٌ كئيبٌ تتخلّله أصوات خفافيش جائعة، والحراس يصدحون بأغنيات عاطفيّة فاجرة تفضح إغراقهم في شرب الخمر طوال اليوم. في مقابل ذلك كانت الحياة في العاصمة والدولة كلّها تسير بصورةٍ طبيعيّة، حيث نسخة الرئيس المطابقة للأصل. فقد كان يرأس البلاد بكفاءة منقطعة النظر، جعلت أعضاء الحزب يقلقون على مصير الرئيس الأصليّ، وجعلت سوزي تُضاعف جهود بحثها، حتّى حفظت شوارع العاصمة عن ظهر قلبها البائس.

مكثت سوزي على تلك الحال مدّة، فقدت فيها الإحساس بالزمان والمكان والعالم حولها. صار الزمن عندها يتمثّل في ثلاثة أشياء لا غير: الخروج والبحث والعودة. لكنّها عندما خرجت فجراً في رحلة بحثها ذلك اليوم لم تسمع صياح الديك، على الرغم من أنّه فعلها ثلاث مرّات. عندها ترسّخ فيها الإحساس بفقدان الزمان. وكان المكان بالنسبة إليها هو تلك الأماكن التي كرهتها من فرط مرورها بها كأنّها رأت فيها زوجها أو ستره مرتدياً قميصاً أبيض وبنطالاً أسود بأطرافٍ تثنّتها القذارة.

كان الشارع المارّ أمام مستشفى جوبا مزدحمًا، وفجأةً رأته يخرج من المستشفى متأبطًا ذراع سيّدة عجوز متوكّئة على عصا ملتوية. فتحت باب السيّارة بسرعة وقفزت داخلها، ثمّ جرت بين السيّارات فارتفع صرير احتكاك إطارات سيّارتها. هرعت صوبها لكنّهما اختفيا في الإسفلت المرصوف بالتراب أمامها وزجاجات السيّارات تعكس في عينيها أشعة الشمس الساطعة. تلقّت حولها كالمعتوهة. صاحت باسمه فخرج صوتها كبحة وتلاشت في فضاء فمها. لَوَتْ ذيلَ خيبتها مكسورة الخاطر، وذرفت دمعة أسي. رمقها سائقُ بنظرةٍ لم تدرك هل هي نظرة شهوة أم عطف. تفوّه آخر بجملةٍ جعلتها تحدّجه بنظرةٍ بذينة أخرجته فألقى سيجارة من فمه وعادت هي فجلست في مقعدها وتاهت برهة. لم تفهم أكانت قد رأت زوجها حقًا أم إنّ ذاكرتها قد عادت إلى الوراء، بسرعة برقي، وارتطمت بهاضٍ مؤلم تجلّى في شخصه. كانت تهيم، أحيانًا، في أفكارٍ متداخلة فتجد عقلها صافيًا، كفضاء بلا نجوم وبلا سحب أو قمر. لعلّها لم تعرف، أو لم تتعرّف إلى شخص مثله في حياتها.

بعد مشهد شارع المستشفى الذي تركها في حيرةٍ عارمة، اتخذت قرارًا بوضع ملصقات كبيرة تحمل صورة زوجها بضم فيه أسنان، لكنّها سرعان ما استبدلت بها صورًا أخرى بلا أسنان تفاديًا للخلط بينه وبين الرئيس المزيّف. كان منظرها مزريًا، وهي تبصق خلف الصور وتلصقها على الحيطان. عطف عليها جادا بائع الزهور وأخذ منها بعض الصور، وألصقها على حيطان إقامات «أطلع برّه» بشارع فيس بوك. كان جادا مرهقًا حين دخل بار الأثيوبيّ أبراهام في الساعة الثامنة مساءً، وعلّق ثلاث صور على أعمدة الخشب المنتصبة وسط البار.

أثار الأمر غضب أبراهام، وقد كان يهدئ من بكاء رجل جاء من مدينة يامبيو قال إنه صديق التاجر عبد المنعم الشيخ الذي أُعِدِمَ لأنّه تحدّث مع الزعيم في سوق جوبا: «اشرب الجعة كي تنسى يا صديقي، فكلّ نفس ذائقة الموت». ترك أبراهام الرجل ومزّق الصور التي علّقها جادا فقال له: أتمزّق صورة رئيس البلاد؟ اهتمّ ببيع زهراتك اليانعة يا جادا، هذه المرأة معتوهة، ردّ أبراهام، وواصل: هذا شبيه الرئيس يا بائع الورود الأغلف أنت. قلّ لي كم هو دخلك في اليوم من الزهور التي تبيعها يا جادا؟ أراهن أنّها لا تساوي ثمن علبة جعة واحدة! فخرج بائع الزهور بائساً.

عند شروق شمس كلّ يوم جديد، كانت سوزي تجوب شوارع الأحياء النائية والقرى، وتعود إلى المنزل مرهقة وفي داخلها شجرة أمل تنمو وتزهر بثمار عودته. كانت تشعر في قرارة نفسها بحبّ يتعاضم كلّ يوم. أحيانا، وهي تستمتع برشقات شاي الصباح المنعنع، كانت تراه جالسا أمامها على كرسي الخشب الذي أهدها إياه سلطان قبيلته عندما أصبح رئيسا للبلاد، وأصابعه تتنقل بين الإذاعات المختلفة وفمه لا يتوقّف عن سبّ الإعلاميين واتّهامهم بأنّهم ساسة فشلوا في السياسة فامتهنوا مهنة القيل والقال.

وعندما تضطجع على فراشها، وتسري في جسدها برودة الوحدة، كانت تقف وتأتي بأحد قمصانه المعلقة في الدولاب، ثمّ تستلقي على سريرها مجدداً وتظلّ تشمّ عرق إبطه فتمتلئ نفسها بنشوة حبّ ودوخة لذينة محدّرة لا تستفيق منها إلّا بدفء شمس الصباح. في إحدى المرات، عادت إلى المنزل بعد يوم بحث شاقّ لم تأكل فيه ولم تبلّ حلقها قطرة ماء،

خلعت ملابسها وأغرقت الحوض بهاء فاتر، غطست ومكثت هناك ساعة كاملة. ثم قامت ووقفت أمام المرأة تنظر إلى جسدها، فذهلت من آثار حاصرة النهدين في صدرها كأنهما خطّان أبيضان متوازيان. تأملت البقع المنتشرة وفكرت في احتمال فقد زوجها إلى الأبد، واحتمال أن تتزوَّج هي بآخر! طردت الفكرة الأخيرة من رأسها لأنها كانت تؤمن بأنّ الجسد شيء مقدّس، كالمعبد، لا يمسه سوى القدّيس الذي يملكه! كانت ليلة قمراء باردة، نامت فيها نومًا جميلًا عكّر صفوه حضور أخيها ساندي الذي زارها في المنام، ووقف عند عتبة باب غرفة نومها، وهو أمر لم يفعله من قبل. وفي خجل، سحبت الملاءة لتغطّي جسدها الملفوف بقماش نومٍ شفاف، فأومأ إليها بأن تنهض وتتبعه لأنّه يريد أن يريها شيئًا.

كانت الساعة الثامنة مساءً، مضت وراءه في قماش نومٍ قرنفلٍ قصير وشفاف فلم يرهما الحرس الرئاسيّ الذين تركوا أماكنهم في البوّابة الرئيسيّة وتسلّلوا إلى الأحياء القريبة لشراء «العرقى». قطعاً مسافةً على أرجلها من حيّ العمارات، وعندما بلغا شارع الوزارات، كانت هناك بضع سيّارات تسير بسرعة فتضيء أنوارها وجهيهما وهما غير عابئين بها. استغربت سوزي كيف أنّ المارّة يحثّون الخطى دون أن ينظروا إليها مع أنّ قماشها كان يكشف ما هو أعظم.

وصلاً أمام البرلمان فتذكّرت كيف كان الوزراء المنافقون والبرلمانيون المتملّقون يستقبلون زوجها، وكيف كانت السيّارات تركن جانباً مفسحة الطريق لسيّارات الرئيس: انظريا ساندي، صاحبت في أخيها الذي تظاهر

بعدم سماعها، لكنّها واصلت كلامها: كأثمّهم لا يعرفونني... أولاد ستين
كلب!

لم تصدّق السيّدة الأولى عينيها وهي ترى الناس في حيّ كاستوم على
بعد أمتارٍ من الضريح، حيث تنتشر الحانات الصغيرة المصنوعة من القشّ
في كلّ مكان كأثّها الذباب. عادا على الطريق نفسه كأثّهما نسياً شيئاً، وعرجا
على شارع حيّ الثورة. كان ساندي صامتاً وهما يدخلان حانةً ويخرجان
ليدخلأ أخرى يبحثان عن السيّد الرئيس التائه دون أن يشعرا بأنّ الليل
أخذ يهبط في عجل وأنّ الحانات أشعلت أضواءها الخافتة. شعرت
سوزي بأثّها غريبة في تلك المدينة بأسماء أحيائها الغريبة، وهما يجتازان
شارعين يمرّان داخل فناء دار وآخر يمرّ أمام حمّام بداخله رجل وامرأة
يستحمّان ويمزحان بفوضى. انبعثت نظرات من عيونٍ صقريّةٍ اخترقت
جسد سوزي في الظلام أحسّ بها أخوها ساندي فضمّها إليه. كانت ذاهبة
دون أن تدري أو تسأل إلى أين هما ذاهبان أو إلى أين تُساق.

دخلأ زقاقاً معتمّاً وخرجا منه إلى آخر، ثمّ ولجا منزلاً مسيّجاً
بخشب البامبو بالقرب من حانة أبراهام. كان المشرب في أوج صخبه،
وفنان إفريقيّ ثمانينيّ يرتدي بذلة كاملة حمراء برّاقة، وقميصاً أصفر،
وربطة عنق بيضاء، يعزف ويترنّم بأغنية كونغوليّة للفنان القدير تابولي.
إذاك وجد ساندي وشقيقته نفسيهما وسط حلقة رقصٍ ساخنٍ، في
منزلٍ خلف الحانة.

كان الغناء حماسياً ومجموعة من النساء يرقصن حول رجلٍ واحدٍ
يبدو أنّهنّ كنّ جميعاً يشتهيّنه. وقفت سوزي، ولم تع ما يجري ولماذا

جاء بها إلى هذا المنزل المشبوه. أَلْقَتْ نظرةً سريعةً فرأت المنزل عبارة عن غرفة كبيرة ملتصقة بشرفة ومساحة كبيرة أمامها تتوسطها شجرة عرديب يتيمة. من خلال باب الشرفة، رأت امرأة جسيمة بوجه طفولي وعينين دائريتين برّاقتين، جالسة وبيدها سيجارة وحوّلها أشباح تضحك بطريقة غريبة. كانت تلك هي سيّدة المنزل، سميرة الكبيرة التي لُقِّبت بذلك لضخامة روادفها عندما كانت في نضارة شبابها قبل أن ينحرفها الزعيم -بحسب ظنون سانديا وأبراهام- في ظروفٍ غامضة.

من خلال ضوء الغرفة الخافت وأدخنة السجائر المعلقة في الشرفة، لمحت سميرة الكبيرة شخصاً يبدو من انحناءات جسده المتوهّج تحت شعاع القمر أنّه امرأة في الوقت الذي وقفت فيه السيّدة الأولى واضعة يديها على خصرها.

وقفت السيّدة الأولى في ذهول، لا تلوي على شيء. أمسكها ساندي من يدها وجرّها إلى وسط حلقة الرقص المنتعشة حتّى ظنّت أنّها في ملهى ليليّ ينيره القمر. رجل واحد، وعشرات النسوة كنّ يتداولن على الرقص معه ولا يشعر هو بالتعب. كان ثملاً، جميل الوجه، ضاحكاً كالبدور، عاري الصدر يغطّي وسطه بثوبٍ نسائيّ معقود عند الجانب الأيمن من خصره وهو يرقص.

ظنّت السيّدة الأولى أنّه الرجل الوحيد الذي يراقص النسوة وسط أغاني الطرب وزغاريد الغنج وتصفيقاتهنّ المزعجة الجاذبة. في كلّ مرّة تخرج إحداهنّ من حلقة الرقص لتدخل وسطها وتُنقّط عملة ورقية وتقبّله ثمّ تخرج. لم يكن ظنّ سوزي سوى وهم كبير مهّد له أخوها ساندي، وتحوّل إلى مفاجأة خطيرة حين أشعل ولاعة سيجارته فرأت

سيّدة تدخل وسط الحلقة وتفعل ما فعلته الأخرى: التنقيط والتقبيل، وشيء آخر لم تستوعبه! حملت سوزي فيها، ثم دققت النظر أكثر فأدركت أنّها ترتدي رداءً أمامه شيء متنفخ وليست تنورة.

لم تستوعب سوزي هذا المنظر عند الوهلة الأولى، بيد أنّها اكتشفت، عندما أشعل ساندي ولاّعته للمرّة الثانية، أنّ من رآته قبل هنيهة ليس امرأة بل رجل، رجلٌ بشارب ولحية وعضلات بارزة كأنّها مصنوعة من الإسمنت. وتعاظمت دهشتها عندما اكتشفت أنّ كلّ النساء اللواتي كنّ يقبلن وينقطن عملات ورقية على ذلك الراقص لسن نساء بل رجالٌ يرتدي بعضهم أردية، والبعض الآخر تنورات مزركشة تضيق على أفخاذهم وحاصرات نهودٍ مدوّرة مثل تلال رملية، وأنّ الرجل الوحيد بينهم، وهو ذلك الراقص، ليس سوى زوجها المفقود بشحمه ولحمه: السيّد الرئيس.

بصقت مدام سوزانا في وجوههم، وأطلقت العنان للسانها، فانطلقت من فمها كلمات بذينة مشحونة بالشتم وألوان السباب، وهو ما جعل الرقص يتوقّف بغتةً. وتفاجأت بحسناة جميلة وعينين كبيرتين وشفة غليظة تقف أمامها، وتنفّخ دخان سيجارتها في عينيها. أغمضت سوزي عينيها ولم تشعر بصفعةٍ نزلت على خدّها، فدارت حول نفسها وقد اسودّت نظرتها. ثبّتتها سميرة فنهضت ورجلاها ترتجفان ولا تقويان على إسعادها بالوقوف. أمّا زوجها فقد ظلّ يرقص كأنّه لم يسمع ما قالته زوجته التي استفاقت سريعاً من دوخة الصفعة، أو ربّما كان يحاول إكمال بقيّة الأغنيات الجميلة المعلقة في ذاكرته. يازفت إنت! سبقت تلك الجملة صفعة على وجهه استقبلها من زوجته سوزان،

فدار هو دورتين رأى فيها البرق ينشر وميضه في السماء وسقط على الأرض وهو يقول بصوت واهنٍ: يا أبتاه اغفر لها خطاياها لأنّها لا تدرك ما تفعل!

انسلّ أحدهم من حلقة الرقص وقعد على إليته. رفع رأس زوج سوزي برفقٍ ووضعته على فخذه، ثمّ أخذ يمسح التراب من وجهه وشعره الكثّ. رنا إلى الجمهرة حوله، تلا كلماتٍ كأنّها صلاة، ثمّ طبع على جبينه قبلةً طويلة أغضبت السيّدة الأولى فأسرعت إلى مطهى بالقرب من حلقة الرقص وعادت بمُدية طويلة لا تعرف كيف وجدتها رغم حدائتها بالمطبخ والمنزل والراقصين والحيّ وهذا الليل العجيب. وقف أخوها ساندي في حيرة واضعاً يديه فوق رأسه، ورفعت سوزي المُدية وأنزلتها على قلب زوجها بضربة استقرّت فيه حتّى خرجت من ظهره. فرّ الجميع. وبقي السيّد الأوّل راقداً مضرباً بدمائه، بينما وقفت سوزي فوق جسّته، تبكي في وجه الشرطيّ الذي كان يضع الأغلال في يديها وهي تصيح:

- بريئة، بريئة!

- في شنو يا مدام؟

انزعجت سوزي من ذلك الحلم الغريب. جلست وسط سريرها تحمل رأسها بين يديها وجسدها ينضح عرقاً غزيراً ودقات قلبها تضرب بشدّة. أخفقت في إيجاد تفسير لذلك الحلم وهي تشعر بصداع خفيف. رفعت رأسها عندما سمعته يكرّر السؤال نفسه: ماذا يحدث، يا مدام؟ كان هو بنظراته الزائغة، واقفاً عند عتبة الباب، هزياً، شاحباً.

رمقته سوزي بفتور، ولم تسأله عن الشهور التي اختفى فيها ولا عن أيّ مكانٍ كان فيه طيلة هذه الفترة، لكنّها اكتفت بأن شكرته على المجيء بعد غياب أقلقها ولم يهدأ لها بال. استقبلته بلهفة كأنّها تراه أوّل مرّة. وسحبته من يده دون أن تتفوّه بكلمة، فتبعها هو كطفلٍ لا يعلم إلى أين يُساق. كان العرق الملتصق بقميصه سميكاً كأنّها كانت مسامات جلده تُخرج صمغاً عربياً وليس عرقاً... لم تكن رائحة عرقه تلك كالتي كانت السيّدة الأولى تستنشقها فيتخدّر جفناها وتخلد إلى النوم بعد يوم شاقّ من البحث المضني عنه، بل كانت كرائحة رأس سمكة متعفّنة.

ساعتان قضتهما سوزي في غسل جسده بصابون الديتول والليفة وتغطيس شعره المضفّر بالوسخ في الشامبو إلى أن بان جلده. لم تعرف كم شهراً قضى دون استحمام، لكنّها قدّرت العدد عندما رأت سرواله الداخليّ داكن اللون وجلد خصره متقرّحاً وفطريّات بنيّة مبعثرة بين إبطيه وشعر العانة كثيفاً. ولولا أنّها تعرفه حقّ المعرفة لو وضعت يدها على الكتاب المقدّس أو القرآن وحلفت بأبيها وبخالق أبيها أنّ جسد هذا المخلوق لم ينعم بالماء منذ أن لفظه رحم أمه إلى هذا العالم.

وقد أكّد ما جال بخاطرها قائدُ الحرس إذ جاءها، وهو يُغطّي أنفه بقطعة قماشٍ كبيرة، ليستفسر عمّا إذا كان هناك انفجار أو انسداد في مجالي المياه تسبّب في طفح البالوعة! بالوعة في عينك!، ردّت سوزي وهي تدرك أنّ تلك الرائحة لم تخرج إلّا من جسده وملابسه الرثة القذرة.

هناك حقيقة لا بدّ أن أقرّ بها الآن، رغم أنّي لم أذكرها لأحدٍ من قبل، وهي أنّ المعتقل المعتم الذي كان الزعيم يُعكّر فيه مزاجي بزياراته المفاجئة، قد تحوّل إلى جنّةٍ عشقتها كثيرًا بسبب وجود الضابط نياما والقصص التي يبدو أنّه كان يخلقه؛ وهي قصص جعلتني أشعر بغبطةٍ استثنائيةٍ عندما تختفي الفئران لأيام ولا أعرف إلى أين تذهب فأنساها تمامًا، قبل أن تعود لتعيث في غرفتي فوضى عارمة.

أخذ إيماني بقيامة الزعيم، وقد كاد يتزعزع بعد شهور من اعتقالي، يعود إليّ، وعادت إليّ نكهة الحياة، بالأخص حين أستمع إلى نياما فهو حكاةٌ عجيبٌ يسرد لي الحكايات التي تدور في العالم الخارجي، فأشعر بأنّي مازلت هناك أجوب شارع فيس بوك وشارع طمبرة.

حدّق نياما، كعادته، فوق رأسي كأنّه يبحث عن بداية جملةٍ تاهت منه وقال إنّ عبد المنعم الشيخ ود الأمين التاجر الشهير في سوق جوبا- ذاك الذي سألتُه عنه في المرّة السابقة ووعدني بأن يأتيّني بأخباره- تحدّث مع الزعيم أيضًا، فقلت إنّ الزعيم أخبرني بذلك حين زارني في المعتقل. كنت أعرف أنّه هرب من الخرطوم إلى الجنوب قبل عقدين من الزمان، بمساعدة رفيقه عبد الحمود، كذا قال لي عبد المنعم نفسه قبل سنوات عديدة.

سحب الحكاء كرسية ليدنو مني، وقرصت أنا على لحافي أستشعر
دفع الكلمات التي ستخرج من فمه، لتملاً غرفتي الصغيرة الرطبة
وتحوّلها إلى عالم غريب، ثم قال:

- مَا تَعَلَّمَهُ عبد المنعم الشيخ ود الأمين - واسمه الحركي مايكل -
هو أنّ ذكاء رجال الأمن يقابله غياب المسؤول الأمني الحضيف
في الحزب. لقد تعلّم ذلك من رفيقه عبد المحمود - وهو الاسم
الحركي لعباس كرشة - المسؤول الأمني في الحزب الذي دبر
أمر هروبه إلى جنوب السودان بمجرد أن خرج من المعتقل في
نهايات عام 1989 م، «عام اللعنة» على حد عبارة عبد المنعم.
بيد أنّ هذا لا يدعو إلى الاستهانة بذلك الغباء، فقد يؤدّي إلى
اختفاء المرء من الوجود، خاصّةً عندما يفكر في الهروب من تلك
«الكلاب الجرباء» كما كان عباس كرشة يسميهم. لذا لا بدّ أن
تسافر بالعربة إلى جوبا يا مايكل، اليوم قبل الغد! قال عباس.

كانت سماء الخرطوم مرصعةً بنجوم صغيرة تتألّأ كحبيبات
لازوردية في ثوبٍ حالِك السواد حين امتطى عبد المنعم عربة
لوري صُفّرت ماكينتها بصوتٍ مشرّخ كرثةٍ مسلولة. كانت رحلة
مفعمة بخوف لم يغادره إلّا حين بلغ مدينة واو بعد أربعة أيّام من
السفر الطويل والأرق المتواصل. وصل إلى واو في ليلةٍ ماطرة تُلّفها
سحب ثقيلة، وغادرها في الساعة نفسها وفقاً لتعليمات زملاء له
استقبلوه وأعلموه بأنّ «الكلاب الجرباء» أُطلّقت في المدينة لاهثة
تبحث عنه. لقد قلبت كلّ شحنة اللوري وخرّمت إطاراته الأربعة
بنصلٍ حادّ، واعتقلت السائق.

كان ذلك في عام اللعنة. أمّا الآن، في العام الذي لا يعرف أحدٌ ماذا سيسمّيه عبد المنعم أو مايكل الهارب إلى الجمهوريّة الملعونة، فيبدو أنّ حياته بدأت تأخذ المسار نفسه، كأنّ القدر رسمه له في خطٍّ مستقيم لا يحيد عنه أبداً. استغرب عبد المنعم من ذلك الانقلاب المدهش في حياته إذ ألفى نفسه يُعيد الرحلة التي قام بها قبل عقدٍ ونيف من الزمان، ولكن هذه المرّة من الجنوب إلى الشمال صوب الجمهوريّة الملعونة. «ملعونة هي الأخرى»، قال عن الجنوب، ف شعر بأنّه كتب عليه أن يقضي حياته بين فكّي تينك الجمهوريتين اللعنتين. ورغم استيائه لأنّه عاد إلى أرض الوطن ولأنّ أعداءه الذين نفوه ما يزالون في السلطة، فقد كان مبتهجاً وهو ينظر من نافذة الباص الذي أقلّه من الأبيض إلى بيوت الطين في ضواحي مدينة أمدرمان المحتفظة ببراءتها الذكيّة القديمة. فالأمر بالنسبة إليه شبيهٌ بعودة شاعرٍ من المنفى إلى بلدٍ أحبه وهام قلبه بعشقه، شاعر عاد إلى معشوقته التي تركها قسراً، ولا يعرف هل مازالت محتفظة بحبّها له أم أنّ قسوة الحياة أرهقت قلبها فبدّلتها بعاشق آخر...

وما إن وقف عبد المنعم أمام منزل رفيقه عبّاس كرشة المطلّ على شارع الردميّة بالقرب من سوبر ماركت النجمة الساطعة في الحاج يوسف، حتّى شعر بأنّ قلبه يدقّ بعنفٍ كأنّه يُجذّره من الخطوة التي يُقدم عليها. والحق أنّ تلك الدقائق لم تكن تحذيراً له، فالمبنى الذي يقف أمامه الآن ليس المبنى الذي تركه حين هرب إلى مدينة جوبا. التفت عبد المنعم إلى الشارع مرّة أخرى ليتأكّد من أنّه أمام

منزل الرفيق رغم أنّه شاهد لافتة صغيرة ذهبية اللون كُتِبَ عليها بخطّ عربيّ رائع: «الحاج عبّاس كرشة».

كان شارع الردمية في صباح يوم الخميس، حين رآه عبد المنعم للمرّة الأخيرة قبل سنواتٍ ملبّدًا بغبارٍ كثيفٍ غطّى الشوارع الجانبية ومحافها من الوجود، وجعل أعمدة الكهرباء الإسمنتية وأسقف البيوت الزنك كعلب سجائر ملقاة بإهمال، حتّى الكلاب الهزيلة كانت تبدو كرسومات مائية لمدينة أثرية باهتة وهي تحتمي بحيطان الأسوار التي يتبول عليها الناس رغم تحذيرات الغرافيتي المكتوب بخطّ عملاق: «ممنوع التبول».

فجأة، تذكّر عبد المنعم تلك المكالمات التلفونية في ذلك اليوم البعيد عندما نصحه عبّاس كرشة بالعودة إلى أرض الوطن؛ فالأمور تغيّرت، كما قال، وأصبحت الحكومة تعمل لمصلحة الطبقة العاملة. تعجّب عبد المنعم حينذاك ولم يُجادل رفيقه في أمر اهتمام الحكومة هذا، وآثر ألاّ يجرّح شعوره، فحوّل مجرى الحديث بقوله إنّهُ يشعر أنّ حبل سرّته قد دُفِنَ في تلك المدينة الجنوبية الجميلة التي ترقد على ضفاف بحر الجبل، وإنّهُ كلّما ابتعد عنها، شعر بحبل سرّته يشدّه بقوة إلى هناك. فإذا اقترب فصل الخريف وجد رائحة طين المطر تنبعث من منطقة سرّته المنتفخة.

قال ذلك ثمّ أغلق الهاتف وساندرا تضع فنجان قهوته على الطاولة، فأخذ يتأمّلها بعمق، كأنّها تلك المدينة الجنوبية التي حكى عنها لصديقه عبّاس كرشة، قبل قليل. ما لم يعلمه عبد

المنعم المتهم بالحديث إلى الزعيم بعد قيامته هو أنّ رفيقه عباس
كرشة كان قد ودّع الحزب في السنة التي تلت تسلّم السلطة القائمة
مقاليد الحكم، وأطلق اللحية وشذّبها تشديداً أنيقاً كأزاهير بستان،
وزرع في جبهته العريضة زبيبة إيمان سوداء كبيرة مشقوقة تنبجس
منها نُهيرات دمٍ لا أحد يعلم متى حفرها.

انتبه عبد المنعم إلى وجود مفتاح كهربائي أنيق رُسمت عليه صورة
جرسٍ، فضغط عليه برفقٍ وأرهف أذنيه، فلم يسمع صوت
الجرس. قدّر أنّ الجرس قد يكون معطلاً، أو أنّ الكهرباء مقطوعة،
وما إن رفع يده ليطرق الباب ثانيةً حتّى شعر بأنّ هناك من يفتحه
من الداخل.

انفتح الباب فوقعت عيننا عبد المنعم على سيّارات جديدة رابضة
كأنّها في متجر لبيع السيّارات. هل هذا منزل عباس كرشة؟،
تمتم عبد المنعم. خلف الأثيوبيّة التي أفسحت له المجال، لاح من
بعيدٍ شبح رجل أنيق تلمع صلعته فوق جلباب أبيض ناصع وعلى
وجهه المنمّش ابتسامة بشوش تنمّ عن سعادة وبهجة تفوح من
كلّ مسامات جسده. يبدو أنّ خيرات الدنيا قد عقدت العزم على
البقاء هنا، همهم عبد المنعم.

حمد الله على السلامة يا أخي عبد المنعم، قال عباس كرشة مُرحّباً
برفيقه. وفتح ذراعيه العريضتين، وبحبّ جميل ضمّ إليه صديقه
فاختفى بين أحضانه. كان عبد المنعم تائهاً في عوالم غرائبيّة خاصّة
به، يرّد بلسانه والعقل هائثم وهو ينظر إلى النجيلة الخضراء المشدّبة

وأزهار اللوتس والياسمين وأشجار زينة جميلة تحيط بالنجيلة
كالخرز الملوّن حول خصر دقيق أملس.

- لقد سمعنا بموضوع الزعيم، يا عبد المنعم، هتف عباس وهو
يوزّع ابتسامته حين دخلا الصلاة الفسيحة.

-وصلكم الخبر، يا عباس؟، سأل عبد المنعم.

كانت الصلاة عبارة عن قاعة كبيرة تتفرّع منها ثلاث صالات
بأحجام متباينة. جلس عبد المنعم على أقرب كرسيّ في الصلاة
الكبيرة. وعرف من عباس أنّ الجالسين هناك في الصالات هم
أصدقاء ابن أخيه هيثم عبد الوهاب كرشة عريس ابنته لمياء.
اندهش عبد المنعم من الشبان الذين كانوا يتحدّثون الإنجليزيّة
بنبرة تُشبه الصراخ. كانوا يتحدّثون في وقتٍ واحد وبصوتٍ عالٍ،
ويصمتون، ثم يطلقون، فجأةً، ضحكاتٍ عالية ويضرب بعضهم
أيادي بعض.

كان ذلك يوم «حنة العريس».

انقضى اليوم وأغمضت الشمس عينيها في مهجعها الغربيّ وعبد
المنعم يحكي - عن رحلة هروبه من جوبا عبر رومبيك ومدينة
واو ثم شمالاً عبر أبيي والأبيض ثم الخرطوم كلّما وجد فسحة
من وقت عباس الذي كان يتحرّك كنملة دؤوب وهو يستقبل
الضيوف. لم يكن عباس يأبه بتفاصيل هروبه بقدر ما كان الشغف
يأكل قلبه لسماع ما دار بينه وبين الزعيم!

-وماذا قال له عبد المنعم بشأن حوارهِ مع الزعيم؟ سألتُه بلهفة.

-اصبر يا أجانق، فكلّ شيء سيأتي في وقته، ردّ نياما، وواصل بحماسٍ أكبر:

غادر الشّبان الصّالات الثلاث ومضوا إلى ما يشبه ميدان كرة قدم أخضر داخل الحوش نُصبت في أركانه الأربعة شاشات كبيرة بينما ظلّ عبد المنعم وحيدا في الصّالة. مضى واستحمّ بماء دافئ وغير جلبابه بآخر وعاد إلى الصّالة فوجد الحاج عبّاس كرشة قد وضع أمامه زجاجة ويسكي بلاك لأبل. وكان يوزّع قهقهاته مبدّدا سكون الصّالة وهو يصبّ الويسكي في جوفه الكبير ويمتصّ شفّتيه كطفل يتلذذ مذاق لبن أمّه. فاحت رائحة الويسكي وشعر عبد المنعم بنشوة منعشة ذكّرتّه بالقبلة الأولى التي اختلسها من صبيّة حين كان طالبا في مدرسة شندي الثانويّة بنين. صبّ لنفسه كأسا ومرّرها أمام أنفه مستنشقا شذاها وتذوّق قليلا، أغلق فمه، حرّك لسانه متلذّذا طعمها وما إن ابتلعه حتّى شعر بأنّ رعشة القبلة الأولى قد تلاشت بين شفّتيه وشفّتي محبوبته المرتعشة تحت سماء شندي القمرء. صبّ الكأس الثانية ورمى داخلها مكعب ثلج. حرّك الثلج بشوكة وأخذ يتأمّل فقاعات صغيرة تظهر وتكسر ثمّ تذوب كابتسامته التي كانت تظهر عندما يلوح عبّاس كرشة باسمّا، ثمّ تذوب حين يسكب الجرعة في فمه.

جاء ضيوف فأدخلهم عبّاس في صالة أخرى كبيرة وأغلق بابها. ثمّ رجع إلى عبد المنعم وأخذ بيده. كان الفنّان يصدح بصوت جميل حين فُتح باب الصّالة ودخل عبّاس ومعه عبد المنعم وهو

يحمل كأسًا في إحدى يديه وزجاجة دراي جن في الأخرى. لم يفهم عبد المنعم أكانت شياطين الخمر المعتقد قد أخذت تلعب بدماعه وتبث في رأسه أشباحًا لأناسٍ رآهم من قبل في التلفزيون القومي وصفحات الصحف اليومية، أم أنّ الأمر ليس سوى أكذوبة كبرى من أكاذيب عباس كرشة! دنا عبد المنعم من الفنان الشاب المحاط بثلة من الذين رآهم في التلفزيون. ولم يصدق ما رأى، فنظر إلى عباس ليسأله هل هذا الذي يراه أمامه هو ذاته الذي تلا بيان الانقلاب في عام اللعنة الأسود؟ هو ذاته، أجاب عباس كرشة دون أن ينتظر سؤاله.

- ههههه، وهل فعل الرقاص ذلك؟ سألتُه.

- قيل إنّه يفعل أكثر من ذلك، أجباني الحكّاء، وضحكتُ، فواصل قائلاً:

ابتسم الرقاص، قارئ البيان في وجه عبد المنعم فروى ما بين حاجبيه.

كانوا أكثر من عشرة رجال عرفهم عبد المنعم جميعًا. بدأت خيوط الويسكي السائلة تتبخر من رأسه، فخرج يطلب الانتعاش وتنقية مزاجه بهواء صافٍ بعيدًا عن جوّ الصالة الصاخب بالغناء والرقص وروائح الويسكي والفودكا وأدخنة الحشيش الزرقاء المترافضة تحت الأضواء الخافتة.

في الخارج كان رقص الشباب أكثر صخبًا واضطرابًا. هناك ألفى عبد المنعم نفسه داخل حلقة رقص فيها شبّان حليقو الرؤوس

يرتدون فنيلات صغيرة ضيّقة وأردية قصيرة ضاغطة. رأى عبد المنعم شابًا كملاكم بوزن الذبابة يُراقص صبيّة جميلة كان يلتصق بها ويحضنها ثمّ يلثم فمها دون خجل. فابتسم بسخرية وعاد إلى صالة الكبار في الداخل.

فجأة وقف عبد المنعم أمام قارئ بيان الانقلاب في عام اللعنة. نظر في عينيه مليًا، فسأل قارئ البيان عباس كرشة عن هذا الواقف الذي يحدّق فيه بذهول. نعم يا سعادة الرئيس، إنّهُ شاهدنا الذي تحدّث إلى الزعيم. ابتسم وواصل الرقص ووقف عبد المنعم مندهشًا كأنّه في حلم انقطع فجأة. نظر وراءه فرأى أحدهم وتذكّر أنّه رآه في المعتقل يضرب المعتقلين بسيخ وعصا وأنبوب مياه مطّاطي. شعر بلسعات الأنبوب تنزل على ظهره وهو عارٍ تمامًا. كان ذلك في غرفة مظلمة تفوح منها رائحة رطوبة العذاب في مبنى قديم. رمى المعبّد المطّاط على الأرض وأخرج عضوه مُلوّحًا به في وجهه كي يعترف. وقف عبد المنعم وسط حلقة الرقص وأخذ ينظر في وجوههم واحدًا تلو الآخر. كان مفعول الويسكي قد بدأ يتراجع رويدًا رويدًا عندما رأى رجلًا أصلع حزينًا وقف بعيدًا هناك يمجّ سيجارته ويرتدي قميصًا أسود أنيقًا وبنطالا أسود وحذاء أسود. أمامه جلس عسكريّ يدوّن شيئًا ما ويستجوبه. تأكّد عبد المنعم الآن أنّ الأصلع هو عبد الخالق.

-اسمك؟، سأله العسكريّ بعنجهيّة، وهو يحاول إخفاء قشعريرة سرت في معدته.

-عبد الخالق محجوب، خرج اسمه واضحاً من بين دخان سيجارته. سأل العسكريّ مرّةً أخرى، بيد أنّ صوته غاب حين رفع الفنان عقيرته بالغناء وانغمس الجميع في الرقص. كان عبد الخالق هناك يتحدث إلى العسكريّ. ومن خلف عبد الخالق ظهر شابّ وسيم أسمر يرتدي بذلة أنيقة ووقف يهمس في أذنه فابتسم. غضب العسكريّ، وضرب بقبضة يده على مائدة قديمة. سحب عبد الخالق نفساً عميقاً من سيجارته ونفث دخانها الكثيف في وجه العسكريّ فابتسم الشابّ ذو البذلة الرماديّة الأنيقة وهمس مرّة أخرى في أذن عبد الخالق. ابتسم عبد المنعم حين رأى أسنانه البيضاء فعرفه: إنه الرفيق جوزيف، قال بصوت عالٍ. أمعن عبّاس كرشة النظر في عيني عبد المنعم فوجدهما داكنتين مظلمتين ومفتوحتين كبوّابة عسكريّة. كان عبد المنعم قد صاح هذه المرّة حين رآه يدخل ويُحدّث عبد الخالق وجوزيف غير آبهٍ بالعسكريّ الغاضب. لقد كان الشفيّع، وتبعه بعض العمّال والمزارعين يحملون على أكتافهم جوالات ملأى بمحاصيل. «الوعي، ثم الوعي»، هتف عبد المنعم بصوتٍ عالٍ. كان الرّقاص يعربد برقصة العروس ويلوي رقبتَه حين سمع صرخة عبد المنعم وتوقّف عن الرقص. جاء عبّاس كرشة مسرعاً، فسأله الرّقاص عمّا هتف به مُعاقِر الشراب ذاك. فقال عبّاس، بابتسامة متكلفّة، إنّ عقل صديقه قد أرهقه شراب «العراقي»، ويبدو أنّ الويسكي يفعل أفاعيله الإسكتلنديّة الآن. دعك منه، سيّدي الرئيس، قال عبّاس كرشة، ثمّ واصل: إنّهُ شاهدنا الأوّل والأخير في موضوع الزعيم كما تعلم، سيّدي

الرئيس. أجل، سوف نستفيد منه، قال الرئيس.

كانت الساعة تشير إلى الثالثة صباحًا عندما أمتع الفنان الجميع، ورأى عبد المنعم عبد الخالق يُساق في تلك الساعة المبكرة إلى ما يُشبه مسلخًا داخل كهف مُعتم. حياه عبد المنعم فردّ التحية وسأله عن عباس فردّ بأنّ الجوع الكافر أرغمه على الاستسلام والانضمام إلى القطيع. كان عبد الخالق أنيقًا، كعريس في ليلة عرسه وهو يمشي مرفوع الرأس وينظر إلى مستقبلٍ كنفق مظلم، ثم اختفى في ظلمة حالكة كثيفة، بينما وقف عبد المنعم حائرًا لا يعرف إلى أين يتجه أو إلى أين اتجه عبد الخالق. بدأ صوت الفنان كجواد يُخبّ سريعًا وبدأ الراقصون يجرّون أرجلهم بتكاسل في صالة الرقص. ضرب هواء بارد جنبه فاقشعر، سكب في جوفه آخر قطرة ويسكي ونظر إلى وجه الفنان الذي بدا حزينًا. وما إن وضع كأس الويسكي على مائدة خشبية بالقرب من عباس وجلس على المقعد الوثير حتى سمع دويّ آلة عظيمة فعلم أنّه دويّ المقصلة، فصرخ بصوتٍ قويّ: عبد الخالق أُعدم!..

استفاق عباس وتسمّر الفنان في مكانه وحلّق الرئيس وحاشيته في عبد المنعم وقد وقف فجأة ودموع حارة تحرق خديه، دموع رأى بينها الخمسة الذين أُعدموا في جوبا. حضن عباس كرشة عبد المنعم، فدمعت عيناه وجسده يهتز بقوة. واعتذر عباس للضيوف الكرام بعينه فواصل الجميع الرقص، بينما ارتدى مايكل في كرسيّ وثير وهو يهرس عقله هرسًا محاولًا فكّ شفرة تلك الرؤيا الغريبة التي ماتزال واضحة في رأسه وضوح قارئ البيان الذي يتعمّد،

الآن، هنّ مؤخّرتة برقص مشير.

أصوات عسكر يركضون خلف غرفتي، ثمّ طلقات رصاص في الهواء وصرخات، ثمّ أوامر تُصدر من مصدح. صمت نياما الحكّاء، وأصاخ بأذنيه، يرهف السمع. هدأت قعقة السلاح، ونهض نياما يهمس لي بأنّه مغادر، وأنّنا سوف نكمل بقيّة القصّة في المرّة اللاحقة. أومأت برأسي وقلت إنّني سأروي له عن عبد المنعم الشيخ في المرّة القادمة ما حكاها لي الزعيم عندما جاءني في زيارته الأخيرة.

غادرني نياما دون أن يتفوّه بكلمة.

استلقيت على لحافي وظللتُ طوال اللّيل أرنو إلى السقف المظلم وأنا أرى كلّ الأشخاص الذين تحدّث عنهم في حفل «الحنّة» بالخرطوم، كأنّني رأيّتهم من قبل وكأنّني أعرفهم جميعًا. في حقيقة الأمر، تذكّرت أنّ الزعيم قد حدّثني عنهم ولكن ليس بأسلوب نياما الشيق في الحكّي.

قبل أن أخلد إلى النّوم، عرفت أنّي سأحلم، وعندما حلمت بدت كلّ الأشياء التي حكاها لي الزعيم عن عبد المنعم، ورواها لي نياما أيضًا، واضحة كالبلّور في رأسي، ولكنّي حين تنبّهت إلى أنّ ضوء الصباح أخذ يتسرّب من تحت الباب، أدركت أنّي ظللتُ مستيقظًا طوال اللّيل ولم أحلم البتّة.

سوبرانو القيامة

-قلت لي إنك ستروي ما حكاه لك الزعيم عن عبد المنعم، قال نياميا، دون أن يُلقي تحية الصباح.

-رغم أنني لم أنم طوال الليل فإنني سأرويهِ لك كي لا أنساه. لكنني لست حكاًا بارعًا مثلك يا أخي!

-الحكي شيء عميق ومتجذّر في كلّ البشر، يا أجانق. ما تحكيه أنت بأسلوبٍ غير شيق، سيأتي شخص آخر يُلمّعه ويهدّبه بطريقة حكيه الجيدة، فيتلقّف الناس القصّة بمتعة كبيرة كأنهم جزءٌ منها وكأنّها ملكٌ لهم، قال نياميا، ثمّ أضاف وهو يعدّل جلسته: احك، فالوقت يُداهمنا.

كنت أريد أن أحكي له تفاصيل العراق الذي نشب بين الزعيمين داخل زنزانتني، لكنني لم أجد رابطاً بينه وبين قصّة عبد المنعم الشيخ، وقد سردها لي الزعيم بلغة قبيلتي التي يتحدثها بطلاقة، كأنّها حكاية حدثت في قريتي وكأنّي أعرف كل شخوصها:

-بدأ الزعيم حديثه قائلاً: وعبد المنعم مايزال مستلقياً على سريرهِ، داخل الغرفة التي تنفث مكيفاتٌ هوائها عطر خشبِ الصندل، يُقلّب شريط ليلة أمس في رأسه الثقيل ببقايا الويسكي

الإسكتلنديّ المعتق والقليل من الفودكا الروسيّة التي فتكت
بُكْلَيْتِي بوريس يلتسن، داهم عبّاس كرشة الغرفة وأشعل
المصباح وهو يُطلق ضحكةً يعرف عبد المنعم أنّ وراءها أمراً
خطيراً. نهض عبد المنعم وجلس على حافة السرير يمسح جفنيه
ففاجأه عبّاس بقوله: لا بدّ أنّ الصدمة أصابتك عندما رأيت
سيدّ البلاد بالأمس! حدج عبد المنعم صديقه بنظرة تأمل. وقام
يسحب رجله إلى الحّمّام وحنجرة عبّاس تُخرج قهقهةً أخرى
شبيهةً بصرخةٍ قردٍ يُلاعب صغاره. داخل الحّمّام، فتح الدّش
فوق رأسه فانساب الماء الفاتر على جسده فشعر، لأوّل مرّة منذ
أن هرب من الجنوب، بروحه تنسلّ من بدنه وتقف أمام المرأة
الكبيرة المعلّقة على الحائط. في المرأة، كانت الروح تُعيد الشريط
الكامل لما حدث في جوبا عندما غادرها خلصة: كانت ساندرّا
بائعة الشاي واقفةً بالقرب من كُبري شارع طمبرة وشمس
الغروب تلفح وجهها فبدت بشرتها السمراء مسفوعةً، جميلةً،
وهي تتحدّث مع الأثيوبيّ أبراهام. وضعت ساندرّا البقعة
التي كانت تحملها على رأسها وفيها أواني الشاي، على الأرض.
كانت عائدة من الضريح فانضمّ إليهما جادا وقد بدت عليه آثار
الإعياء، فمازحته سميرة الكبيرة بأنّ المال الكثير قد يعلّل الإنسان،
في إشارة إلى عائدات بيع الزهور في الضريح. حزنّت روح عبد
المنعم أمام مرآة الحّمّام، عندما سمعت سميرة الكبيرة تقول
إنّها سمعت أنّ عبد المنعم من ضمن الذين تحدّثوا مع الزعيم
في سوق جوبا وإنّ أكثر من عشرة يحملون اسم عبد المنعم تمّ

إيقافهم اليوم وإعدادهم جميعاً، بإغراقهم في مياه بحر الجبل.
عادت الروح إلى بدن عبد المنعم وهو يجفف رأسه بالبشكير،
وصوت عباس وهو يتحدث بالتليفون، يأتيه عاليًا تتخلله
ضحكة، ثم صمت، فسُعالٌ هيّجته كثرة التدخين.

عاد عبد المنعم، ووضع عباس فنجان القهوة الفارغ على المائدة،
فأطلق الأول العنان للسانه كي يردّ على سؤال كان صديقه قد
ألقيه قبل ذهابه إلى الحمام:

-صُدمت لأنّي رأيتك مع الرقاص بالأمس.

-عيب يا عبد المنعم أن تصف رئيسنا بهذا الوصف، ردّ عباس
بنبرة تشوبها ذبذبات غضب.

-إذن قل لي، ماذا كان يفعل مَنْ يهزّ جسده أفضل من فيفي عبده؟
قال عبد المنعم وهو يرفع يديه بصورةٍ مسرحيّة، وأردف سائلاً:
أيلعب الشطرنج؟

-هذا فرح يا عبد المنعم، ويجب ألاّ نؤاخذ من يُعبّر عن سعادته
بزفاف ابنتنا على طريقتة الخاصّة، حتّى لو كان...

-حتّى لو كان إسماعيل الأزهري!

-عبد المنعم...

-لقد انقلبت حياتك رأساً على عقب يا عبد المحمود.

-أنا لم أعد عبد المحمود يا عبد المنعم.

-آسف لقد نسيت، فأنت الحاجّ التقّيّ عباس كرشة، الرجل الذي

انحرف عن خطّ الحزب فاهتدى إلى الصراط المستقيم، وأمسى
يعتمر ويحجّ إلى بيت الله الحرام سنويًا، أكثر من أهل مكّة!
-لا داعي إلى السخرية يا عبد المنعم.

-شتان ما بين السخرية والحقيقة يا عباس...

كان صوت القهوة التي يصبّها عبد المنعم في الفنجان الأبيض
الصغير مزعجًا لأذني عباس كرشة وهو يفرك يديه بعصبية من
أصاب أصابعه برد شتاء ولا يعرف كيف يبدأ حديثه الذي جاء
من أجله، وعبد المنعم ينظر إليه شزرًا مزرًا.

سعل عباس أكثر من مرّة، لكي ينظّف حلقه ويزيل تردّده ويفتح
الحديث مع صديقه الذي لاحظ سيّء القلق المرسوم على وجهه.
لم يرعب وجه عباس كرشة الجنائزي المنقبض عبد المنعم البتّة، لأنّه
يعرف جيّدًا أنّ صديقه ما إن يحتاج إلى شيء حتّى يتحوّل وجهه إلى
وجه مسكين شاحب. خرجت الكلمات من فم عباس كطوربيدٍ
انطلق من غوّاصة السمكة الذهبية السوفيتية، فشر بها الآخر
تخترق أذنيه الكبيرتين كأذني حمار عندما قال:

-السيد الرئيس يريدك في أمرٍ مهمّ يا عبد المنعم.

وضع عبد المنعم الفنجان على المنضدة برفقٍ، وتفحص عيني
صديقه بدقّة. تلاشت كلّ الأصوات في الخارج وخفت صوتُ
البغاء الفلبينيّ المسجون في قفص ثم صمت تمامًا عندما زجره
عباس بصوتٍ عالٍ.

- هذا الرقاص لا يُشرفني يا عباس، قال عبد المنعم.

- دع التهكم جانبًا، يا عزيزي، الأمر يخصّ الأُمم القومِيّ السودانيّ
يا أخي.

- وهل تمّ تعييني مديرًا للأُمم القومِيّ يا مرتدّ؟
- أنت السودانيّ الوحيد الذي تحدّث مع الزعيم بعد قيامته، قال
عبّاس بصوت مُتودّد.

شعر عبد المنعم بشيءٍ يمشي تحت جلده فصمت برهةً. وكان
عبّاس مثل ثورٍ نزع حبله من الودّ فأطلق العنان للسانه:

- الوطن شيءٌ، والحزب شيءٌ آخر يا عبد المنعم. الوطنيّة شيءٌ
والإيديولوجيا شيءٌ قد نختلف في شأنه يا رفيقي...

- نحن لسنا رفقاء يا عبّاس كرشّة، قاطعه عبد المنعم بحلّة، بيننا
بحر لا شطآن له، أضاف.

- لا يُهمّ، ردّ عبّاس، ما يُهمّ هو أنّ ترابك وأرضك ووطنك في حاجة
إليك. يجب أن نفرّق بين الوطنيّة والخلافات الإيديولوجيّة.

كّوم عبد المنعم جلبابه بين رجليه وغمغم عبّاس وحمحم وصديقه
يحاول النفاذ إلى رأسه ليعرف ما يُفكّر فيه. فاستطرد عبّاس قائلاً:

- عندما يتقدّم بنا العمر، يا عزيزي عبد المنعم، يجب أن تتقدّم
نظراتنا إلى الأشياء وتصير عميقة. أنا أتفق معك في أنّ الإنسان
لا بدّ أن يكون مبدئيًّا في حياته، وأتفق معك أيضًا في أنّ الذي
يعيش بلا مبدإ في حياته يكون كمن يضرب في أرض الله الواسعة
بغير هدى ولا هدف؛ إنّهُ كالطير الأعمى الذي سُجن في قفصٍ
لسنواتٍ طويلة ثمّ أُطلق سراحه فطار فرحًا ولكنّه لا يعرف إلى

أين يتجه. بيد أن المبدأ الفردي الذي يؤمن به الإنسان يجب ألا يكون على حساب الوطن وإلا أصبح الأمر أنانيّة ليس أكثر. الوطن فوق كل الأفراد وكل الأفكار وكل المبادئ. الوطن هو كل شيء وفي سبيله يجب أن نبذل كل شيء حتّى ولو كان التنازل عن مبادئنا التي آمنّا بها منذ أن وعت مداركنا. لعلك تنظر إليّ كمن ينظر إلى شخص باع مبادئ حزبه من أجل مصلحة ذاتية، قد تكون محقّا في ذلك يا رفيق، وأنا أحترم رأيك وأقدّره. وقد تكون مخطئًا وأكون على حق. وهنا، يجب أن تحترم رأيي وتقدره ويجب ألاّ تسخر مني. أجل، كنت تعرفني جيّدًا في سنوات انتمائي إلى الحزب حين كنت تقول لي إنّك تريد أن تكون مثلي وتشرّب، على الأقلّ، ربع الأفكار والمبادئ التي كنت أنشرها في الزملاء وكلّي اغتباط وبهجة. ولكنّي، بعد أن هربت أنت إلى جنوب السودان وبقيت أنا هنا يا صديقي، شنت السلطة الحاكمة، ضدّ شخصي الأ عزل، حربًا ضروسًا شبيهةً بحرب داحس والغبراء: كانت ترقيات زملائي الأقلّ منّي رتبةً تتمّ على مرأى منّي وأنا صامتٌ، صامدٌ لم أترك وظيفتي. كانت ماكينات عقولهم الشيطانيّة تعمل ليل نهار لتسحق عظام بدني النحيل أو تجعلني أهاجر من البلاد كما فعل الكثيرون من زملاء الحزب. وقد فكّرت كثيرًا في ذلك، لكنّي كنت أشعر أنّ ثمة في مكانٍ ما بداخلي شخصًا آخر لا أعرفه، كان يُشبهني، ويُجادل أفكارِي، ويحثّني على ألاّ أغادر أهلي وأصدقائي وجيراني. حصلت على عقد عملٍ في الخليج وأكملتُ كلّ الإجراءات وودّعتُ الأسرة

والأهل والأصدقاء والجيران وذهبت إلى المطار فجراً فوجدته هناك في انتظاري، واقفاً متكئاً على درابزين حديد، يدخن سيجارته مرتدياً بذلةً شتويةً سميكّة، فقد كان الشتاء قاسياً في ذلك العام. وكان ببذلته تلك شبيهاً بجاسوس سوفيتي. عندما رأيته أَسحب حقيتي، أطفأ سيجارته وجاءني وأوقفني فعرفته للتوّ. كان هو الشخص نفسه الذي يقبع داخلي، ويُنازع أفكاري، وينصّحني بالأمر أترك أصحابي وأهلي وأطفال الشوارع البائسة والنساء الأرامل والأشجار الجافّة التي لا يسقيها أحد لأنّها جميعاً تمثّل الوطن. نعم، أوقفني كرجل آمن، مدّ يده إليّ فأعطيته جواز سفري وسلّمته حقيتي، وبعد ساعاتٍ وجدت نفسي جالساً في غرفة نومّي، وزوجتي أُمينة تالطم وجهها وتشقّ شعر رأسها وتمزّق ثيابها، وحوّلها الأطفال يصرخون. قلت لهم إنّني غيّرت رأيي لأنّ الوطن أحبّ إليّ من المال. نعم غيّرت رأيي يا عبد المنعم، هل تصدّق؟ فقدت عملي في وزارة المالّة لكنني كنت سعيداً لأنّ السلطات لن تُلاحقني مرّةً أخرى... لكنني أدركت، بعد فترةٍ وأنا أعمل في السوق، أنّ هذه السعادة كانت أكبر خدعة خدعت بها نفسي. فكُلّ خطوة أخطوها في السوق كانت تليها خطواتٌ تُضيق عليّ، وتغلق في وجهي نوافذ الأرباح التي كنت أستنشق عبرها نسائم السعادة والحرية؛ السعادة في جني أموال بعرق جبينِي، والحرية في القدرة على توزيع منشورات الحزب بأريحيةٍ وبعيداً عن عيون الكلاب الجرباء. أخرج في الساعات الأولى من الصباح، وأعود في المساء

محملاً بأكياسٍ مليئةٍ باللحم والسمك والخضراوات والفاكهة،
وتستقبلني زوجتي الوفية أمانةً بابتسامة تُزيل عني تعب اليوم
وإرهاق شمس الصيف. كان كل شيء يسير على أجمل ما يكون،
إلى أن غضبت السماء وصعقني رعدُها في وسط رأسي تماماً:
تم القبض عليّ بمنشورٍ للحزب زعم رجل الأمن أنه وجدته
داخل قميصٍ مستعمل اشتراه مني. تخيل يا عبد المنعم، لقد
كان ذاك الأمني شاباً جنوبياً وسيماً وأنيقاً يتحدث عن جون
قرنق والحركة الشعبية ولواء السودان الجديد والتجمع الوطني
والظلم والقهر. كان نموذجاً للجنوبي الواعي المثقف وكنت أنا
نموذجاً للرفيق الغبي الذي لا يأخذ الجنوبيين على محمل الحذر،
فوثقت فيه! نعم، وثقت فيه، لأنني كنت أراه جوزيفاً صغيراً.

أطرق عباس كرشة وظلّ عبد المنعم جالساً، كله آذان صاغية،
يمعن فيه النظر دون أن يطرف له جفن. شهق عباس عميقاً وزفر
بحسرة عميقة، وشعر بأن فوق رأسه رافعة غير مرئية ترفع عن
عاتقه حملاً ثقيلاً فواصل حديثه:

- لم تكسرنى سجون شالا وبورتسودان وبيوت الأشباح المنتشرة
في الخرطوم وبحري وأمدردمان وجبل أولياء والخرطوم 2. لم
يكسرنى التعذيب والاغتصاب الذي مورس عليّ أكثر من مرة
من قبل أكثر من رجل طالما أنه شيء فُرض عليّ دون رضائي،
أعرف كثيرين تم تهشيمهم نفسياً بمجرد اغتصابهم وعانوا
حالات هستيرية عصية أدت إلى انتحارهم. أمّا أنا فلم أنكسر
ولن أنكسر أبداً. أتعلم يا رفيق مايكل، إنّ الذي حطمني وترك

فِي جَرَحًا عَمِيقًا أَعْمَقَ مِنْ اغْتِصَابِي هُوَ الْحِزْبُ ذَاتَهُ؛ الْحِزْبُ
الَّذِي عَمَلْتُ وَضَحِّيتُ مِنْ أَجْلِهِ وَأَفْنَيْتُ فِيهِ أَجْمَلَ سِنَوَاتِ شَبَابِي
وَرَجُولَتِي، الْحِزْبُ الَّذِي كُنْتُ أَرَاهُ كَأَسْرَتِي، كَأَهْلِي وَحَيَاتِي،
كَمَائِي وَهَوَائِي، الْحِزْبُ الَّذِي يَتَنَفَّسُنِي وَأَتَنَفَّسُهُ وَلَا يَسْتَطِيعُ كُلُّ
مَنَّا الْعَيْشَ بَعِيدًا عَنِ الْآخَرِ. كُنْتُ أَحْيَانًا لَا أَرَى الضُّوءَ لِأَكْثَرِ
مِنْ سِتَّةِ شَهُورٍ وَأَنَا قَابِعٌ فِي ظِلَامِ السَّجُونِ الدَّامِسَةِ. وَلَمْ يَكُنْ
هُنَاكَ مَنْ يَجْرُو عَلَى الْوُقُوفِ مَعَ أُسْرَتِي يَا صَدِيقِي. بَنَتِي سَمِيَّةُ
كَانَتْ فِي الْعَاشِرَةِ مِنْ عَمَرِهَا، وَابْنِي عَبْدُ الْخَالِقِ كَانَ فِي الثَّامِنَةِ.
كَانَتْ أَمِينَةً، كَمَا هِيَ دَائِمًا، امْرَأَةٌ جَمِيلَةٌ وَرَزِينَةٌ وَمَتَعَلِّمَةٌ تَعْرِفُ
مَعْنَى أَنْ تَكُونَ الْإِنْسَانَةَ زَوْجَةً مُنَاضِلٍ حِزْبِيٍّ. حَاضِلَتِ الْوُصُولَ
إِلَى زَمَلَانِنَا فِي الْحِزْبِ كَيْ يَسَاعِدُوهَا فِي مَعْرِفَةِ مَكَانِي. كَانُوا
جَمِيعًا يَقُولُونَ إِنِّي بِخَيْرٍ، وَإِنِّي فِي سَجْنِ كُوبِرٍ وَسَأُخْرِجُ قَرِيبًا،
رَغْمَ أَنِّي لَمْ أَرِ سَجْنَ كُوبِرٍ. لَمْ تَتْرَكْ بَابَ مَنْزِلِ عَضْوِ لَجْنَةِ مَرْكَزِيَّةِ
إِلَّا طَرَقْتَهُ لَتَطْلُبَ مِنْهُ جُنَيْهَاتٍ تَافَهَةً لَتُعَالِجَ بِهَا ابْنَتِي وَتَطْعَمَ
ابْنِي. وَكَانَتْ تَعُودُ بِخُفْيٍ حُكْنِينَ وَمَعْسُولِ الْكَلَامِ مِنْ قَبِيلِ أَنَّ
زَوْجَكَ عَبْدَ الْمُحَمَّدِ مُنَاضِلَ جَسُورٍ وَسَيُخْرِجُ بَطْلًا مَحْمُولًا عَلَى
الْأَعْنَاقِ. كَانَ الْأَمْرُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى زَوْجَتِي غَرِيبًا وَهِيَ تَسْمَعُهُمْ،
وَذَهَلَتْ عِنْدَمَا فَهَمَتْ مِنْ كَلَامِهِمْ أَنَّهُ لَا بَدَّ لِلْمَرْءِ أَنْ يُسَجْنَ
وَيُعَذَّبَ وَيُغْتَصَبَ كَيْ يَصِيرَ بَطْلًا. أَحَدُ الزَّمَلَاءِ، وَقَدْ بَدَأَ لَطِيفًا
وَطِيبًا، كَانَ يَأْتِي لَزِيَارَتِهَا فِي نِهَايَةِ كُلِّ أُسْبُوعٍ وَهُوَ مُحْمَلٌ بِأَشْيَاءَ
تَحْتَاجُ إِلَيْهَا أُسْرَتِي. كَانَتْ زَوْجَتِي تَشْعُرُ بِرَبِيَّةٍ مِنْ نَظَرَاتِهِ وَيَبْدُو
أَنَّهُ شَعَرَ بِذَلِكَ فَأَخَذَ يَأْتِي بِزَوْجَتِهِ لَتَبَثَّ الطَّمَأْنِينَةَ فِي نَفْسِ أَمِينَةٍ.

ثم انقطعاً فترةً وبدأ يأتي بمفرده وظلّت أمينة مطمئنة، إذ كان يخبرها بأنّي بخير على الرغم ممّا كنت أعانيه من آلام بواسير جرّاء الاغتصاب الذي تعرّضت له. كانت أمسيّة مشؤومة بالنسبة إلى أمينة، كما كانت بالنسبة إليّ، في اليوم نفسه داخل سجن شالا حين كنتُ راقداً على بطني، وداهم الرفيق (ك) أمينة في غرفة نومها بينما كانت تغيّر ملابسها...

في تلك اللحظة، أشاح عبد المنعم بوجهه مُحاولاً أن يخفي دمعته نزلت على خده، وكان عباس يزدرد، بعسر، دموعاً مالحة امتلأ بها حلقه وختم قائلاً: هذا ما حدث يا عبد المنعم!، قال بصوت متحشرج، ثم أردف: لذا كان يجب أن أُغيّر حياتي، كان يجب عليّ أن أعرف أنّ المبادئ قد تجعل أُسْرَتَكَ ووطنَكَ الصغيرَ البريء تدفع ثمن ما تؤمن به أنت، لا ما تؤمن به هي. أليس ظلماً أن نجعلهم يتحمّلون ما لا يعتقدون فيه؟ أليس هذا ظلماً يا عبد المنعم؟

كان الصمت ثقيلاً، بارداً كلوحة ثلج وُضعت على رأسيهما، فكسرها عباس محتثماً كلامه: الرئيس يريد مقابلتك يا عبد المنعم. -والأمر يتعلق بقيامة الزعيم، أضاف عباس بصوتٍ حازم.

-ماذا؟ قال عبد المنعم وهو يعدّل جلسته.

-لقد سمعَني يا عبد المنعم. الوطن في حاجة إليك.

قال عباس ذلك، وخرج من الغرفة فاصطدم بأمينة التي كانت واقفة في الخارج لدى الباب الموصد وعيناها جاحظتان ثابتتان كأنّهما كُرتا طاولة.

بقى عبد المنعم متجمّداً في مكانه ولم يتحرّك قيد أنملة، ولم يدرك أنّه بقي هكذا، جالساً لثماني ساعاتٍ متتالية، إلّا عندما سمع الببغاء يصوّت سبع مرّات معلّناً الساعة السابعة مساءً ثمّ نطق بصوته الأسيويّ المضحك: السابعة مساءً، السابعة مساءً، سبع مرّات.

مضى أسبوعان لم يرَ فيهما عبد المنعم صديقه عبّاس إلّا في أوقاتٍ متفرّقة على طاولة الغداء، فيتجاذبان أطراف أحاديث مبتورة متكلّفة كأنّهما يختلسانها اختلاسا، حول أمور كان عبّاس حريصاً على ألاّ تمسّ اقتراحه لقاء عبد المنعم بالرئيس. كان يعرف ردّ صديقه مايكل الذي يعتقد أنّ مبادئ الحزب تجري في عروقه. فهو لا يقبل حقيقة أنّ الرفيق ستالين ليس إلّا لصاً نصب كميناً، هو ورفقاؤه، لقافلة الحرس الإمبراطوريّ التي كانت تحمل مبلغ 250.000 روبل، أي ما يناهز 3 مليون دولار، ونهبه وسلّمه الرفيق لينين: إنّ مال الإمبراطور الذي سرقه من الشعب فكان لا بدّ أن يعود إلى الشعب، وهذا لا يمكن اعتباره سرقة، يا مايك!، استنكر عبّاس.

- المال العامّ يعود بالقانون، وليس بالنهب المسلّح يا رفيق، اعترض عبد المنعم.

- الغاية تبرّر الوسيلة، ردّ عبّاس.

- الغاية لا تبرّر حقيقة أنّ الوسيلة التي استُخدمت كانت عبارة عن نهبٍ مسلّحٍ ذهب ضحيته أفراد أبرياء من الحرس الإمبراطوريّ.

- المال المنهوب استلمه لينين ووظّفه في بناء حزب الشعب.

- وماذا تسمّي من يستلم المال المسروق، يا أبا القانون؟
- من زمنٍ طويل وأنا أشكّ في ولائك للحزب، يا مايكل!
- صحيح، لأنّي لا أهضم أدبيّات الحزب كما تهضمها أنت دون تفكير مضامينها.

نقاش بيزنطيّ يجعل الرفيقين دوّمًا على طرفي نقيض تذكره عبّاس وهما جالسان في الصالة يجتسنان الشاي بعد أن تناولا طعام الغداء. لم يرهق عبد المنعم ذهنه كثيرًا في المقترح الذي قدّمه له صديقه، فردّ فعله كان واضحًا من نظرات الاستنكار التي كان يُلقى بها إلى عبّاس كلّما شعر بأنّه مازال ينتظر ردّه بشأن لقاء الرئيس. بيد أنّ ما شغل تفكيره، بالتحديد، خلال الأسابيع السابقة كان محاولته فكّ طلاس العلاقة بين قيامة الزعيم في عاصمة جنوب السودان ولقائه بالرئيس.

كان عبّاس يعرف كيف يقرأ طريقة تفكير رفيقه مايكل، فأدرك أنّ الإجابة هي الرّفص، كما كانت نظرات مايكل تقول.

على الرغم من أنّ عبد المنعم لم يكن من محبّي مشاهدة التلفزيون فإنّه تردّد في الأيام الأخيرة على متابعة أخبار جنوب السودان. لذا، فكّر عبّاس، وهما يجتسنان شاي ما بعد الغداء، في أنّ عبد المنعم وقع ضحيّة تأثير الخدعة التكنولوجيّة التي كان بطلها ابنه عبد الخالق.

كان كلّ شيء قد بدأ ككابوس ألفى فيه عبد المنعم نفسه داخل متاهة في سردابٍ كبيرٍ بنفقٍ يربط جنوب السودان بالسودان.

حدث ذلك بالأمس عندما استلقى على سريرهِ وضغط على الريموت كنترول فرأى على شاشة التلفزيون شيئاً لم يألُفه من قبل، شيئاً يعرفه تماماً لكنه يراه لأول مرة في تاريخ عمره الخمسين. فقد ظهر على الشاشة بجلبابه الأبيض يلبس عمامة كبيرة بيضاء ملفوف بعضها فوق بعض. ولو تسنّى لجميع معارفه أن يروا تلك الصورة لنطقوا دون تردد وبثقة عمياء وصوت عالٍ: هذا هو التاجر عبد المنعم الشيخ!

نهض عبد المنعم وجلس على حافة السرير، ينظر إلى الشاشة. حكومة جنوب السودان والسودان تتفقان على تبادل المجرمين بين الدولتين وعلى رأسهم التاجر عبد المنعم الشيخ إذ تتهمه دولة الجنوب بتهديد الأمن القومي بين البلدين بلقاءه الزعيم بعد قيامه المزعوم، قال المذيع بصوت واضح سمعه عبد المنعم، فانتفض. بعد إزاحة صورة عبد المنعم من منتصف الشاشة، ظهر مسؤول حكومي يرتدي لباساً إفريقيّاً. وقال بصوت مبحوح إن وزارته قد اتفقت مع نظيرتها في السودان على تسليم التاجر عبد المنعم الشيخ أو محاكمته في السودان وفقاً لقوانين الشريعة الإسلامية لأنّه رجل مسلم ومع ذلك آمن بقيامه الزعيم، وهذا مُنافٍ تماماً للشريعة الإسلامية، ختم المسؤول.

جلس ضابط شرطة برتبة يبدو أنّها عالية على مقعدٍ بالقرب من المسؤول الحكومي، ورفع صورة لشخص عرفه عبد المنعم على الفور من الندبة السوداء فوق عينه اليسرى: الرقيب أجانق! صرخ عبد المنعم وتلقّت حوله كي يتأكّد أنّه وحيد في الغرفة. قال

العسكريّ إنّ المحرّض أجانق المعتقل الآن هو من أدلى بمعلوماتٍ أكيدة عن لقاء التاجر السوداني عبد المنعم الشيخ بالزعيم، فتذكّر عبد المنعم أنّ آخر مرّة التقى فيه أجانق كانت قبل قيامة الزعيم بستّة أشهر في محلّ ساندرا، بائعة الشاي.

وما إن وضع كأس الشاي على المنضدة وفغرفاه ينظر إلى عباس، حتّى أدرك الأخير أنّ ما ظنّه من عدم قبول عبد المنعم لأيّ شيء يضع يده في يد السلطة الحاكمة كان بعيدًا كلّ البعد عن الحقيقة التي نطق بها عبد المنعم بصوت واضح: وما الحلّ يا عباس؟

-عمّ تتحدّث يا عبد المنعم؟

-ألم تسمع الأخبار؟ إنّهم يريدون أن يُحاكموني وفقًا للشريعة الإسلامية

-من؟ ولماذا؟

-رقاصكم باخوس.

-ولماذا؟

-موضوع يتعلّق بقيامة الزعيم.

أسند عباس ظهره إلى الأريكة، مُخفّيًا حبوره الغامر، مزينًا وجهه بطبقة حزنٍ رقيقة، زائفة. وألقى عبد المنعم نفسه وسط بحيرة وُحْلٍ كبيرة تُحيط بها تماشيح تنتظر خروجه إلى البرّ لتتلذذ بلحمه الطيّب. لو علم أنّ عباس كرشة الجالس أمامه الآن كان ينظر إليه كفأر حقير وقع في مصيدة صنعها القدر لنهض وبصق ثمّ صفعه على وجهه صفعةً لن ينساها عمره كلّهُ. فكّر عبد المنعم في العودة

إلى الجنوب حيث لا شريعة إسلامية هناك، لكنه أبعدَ الفكرة عن رأسه عندما علم بإعدام عشرة آخرين ممن كانوا يشبهونه في مدينة واو. «إنَّ ما يوجد هناك أكثر وحشية من قوانين سبتمبر التي ظلت كشوكة حوتٍ في حلق الوطن»، قال مايكل هامسا.

شقَّ الببغاء هدوء الساعة الرابعة مساءً بصرخةٍ قوية، فخرج عباس ليجد ثلاثة رجال شرطة، رابعهم كلب بوليسي من فصيلة «البرجي ألمان» ضخمة الجثة، يلحق الهواء بلسانه الأحمر المتدلي. اشترأب عبد المنعم بعنقه عبر النافذة فرأى عباس يتحدث إليهم بصوت خافت ويشير بيده اليمنى إلى الصالون حيث يقبع صديقه. عاد عباس بوجهٍ شاحب فقلق الآخر وتسارعت نبضات قلبه.

لقد كان رجال الشرطة الثلاثة وكلبهم «البرجي ألمان»، يبحثون عن كلب سودانيٍّ مهجَّن بالدوبرمان قيل إنه كان صديقاً للبرجي ثم اختفى فأصيب الآخر باضطرابٍ في النوم، وأضرب عن العمل، ما أدى إلى ازدهار سوق المخدرات في حيِّ العمارات بالخصوص. هذا اكتئاب! أجاب عباس الجندي الذي كان يقود الكلب بحزام أسود لامع.

—أعرف أنهم يبحثون عني!، قال عبد المنعم.

لكنني قلتُ لهم ألا يسمحوا لأرجلهم الغبراء وكلبهم النجس بأن تطأ أرض منزلي، كذب عباس، وسحب عبد المنعم نفساً عميقاً، بينما ظلَّ الآخر يفكر في ما حكاه صديقه من أنَّ الحكومة تُريد تطبيق شرع الله عليه. لنر ماذا سيحدث غداً، قال عباس، تاركاً صاحبه غارقاً في بحرٍ من الحيرة العميقة، وخرج من الغرفة.

كان ابنه عبد الخالق واقفًا بالقرب من قفص البيغاء يُعلِّمه نطق كلمات إنجليزية. أفاق عباس من شروده عندما سأله ابنه، هامسًا، هل كانت الخدعة التكنولوجية ناجعة مع عبد المنعم. كان والد عبد الخالق قد نسي أن ابنه سمعه وهو يحدث زوجته أمينة عن كيفية إقناع صديقه عبد المنعم بلقاء الرئيس، فاستخدم مهاراته التكنولوجية الشيطانية في تسجيل أخبار من تليفزيون جنوب السودان وتغيير الكلام ودبلجته لتأتي، تمامًا، كما سمعها عبد المنعم الشيخ.

- هل تقصد، يا ابني عبد الخالق، أن كل ما سمعه عمك عبد المنعم في الأخبار لم يكن حقيقيًا؟

- ليس حقيقيًا وليس كذبًا يا أبي!

- ماذا تعني؟

- ما لا تفهمه أنت ولا يفهمه عم عبد المنعم في عالم التكنولوجيا هو أن ما تراه أمامك قد يكون حقيقة وقد لا يكون!

- وضح أكثر..

- طالما أنها حقيقة بالنسبة إلى عم عبد المنعم فهي، حينئذ، حقيقة ولا بد أن تتعامل معها على هذا الأساس.

وضع عباس يده على رأس ابنه عبد الخالق وأبحر إلى سنوات خلّت عندما كان طفلًا ينحت من الطين كلابًا وقططًا وأغنامًا تمضغ العشب تحرسها كلاب شرسة...

حلق عبد المنعم شعر رأسه ولحيته الكثّة وشذب شاربه في محلّ

حلاقة في شارع 15 في حيّ العمارات كأنّه يستعدّ ليوم عرسه .
ارتدى جلبابه الجديد وغطّى رأسه بعمامةٍ لفّها بفوضى من لم يعتد
عليها وجلس على كرسيّ معاش وأشعل سيجارة وهو ينتظر
عبّاس كرشة ليوصله إلى ذلك المنزل الذي لا يعرف عنه أكثر من
العنوان .

خَفَضَت السيّارة من سرعتها وتهادت في شارع التراب . كانت
هناك خيمة وحيدة بجانب الطريق واقفة على حافة بستان كأنّها
صورةٌ قديمة تعلّقت بحافّة الذاكرة، توقّف عندها عبّاس وترجّل
عن السيّارة ثمّ اختفى وعاد وقال لعبد المنعم إنّهُ هو العنوان نفسه،
فحدّجه باستغراب . نزل عبد المنعم وولج الراكوبة الصغيرة
حيث تجلس امرأة جميلة تُغلي قهوة ملأت رائحتها المكان . سمع
أزيز سيّارات قادمة بسرعة فرفعت السيّدة رأسها وأعلنت: إنّهم
قادمون .

سَوّى جلبابه واسترق النظر إلى السيّدة وهي تنهض وتذهب إلى
نهاية الخيمة، فتحت باباً يُفضي إلى صالة أخرى مجهزة بالأرائك
وطاولة مصنوعة من خشب التيك فأضاءت اللمبات الساطعة
وجهها فبدت جميلة سمراء . ثمّ جاءت وأخذت عبد المنعم من يده
وقادته ومعدته ترتعش خوفاً . كانت صامته وكاد يدوّخه عطرها
القويّ . اختفت أصوات السيّارات في الفضاء، عبرا صالةً ليدخلا
أخرى بأثاث مختلف وألوان مختلفة . وكلّما مضيا إلى العمق خفت
الأضواء إلى أن بلغا درجٍ سلّمٍ يفضي إلى غرفةٍ علويّة خالية إلّا

من سريرٍ كبيرٍ دائريٍّ شبيه بحوض سباحة. كان الجدار عبارة عن جدارية كبيرة لامرأة تمتطي فرساً، وخلفها أطفال، تحارب آلاف الرجال. مقعد وحيد شبيه بكرسيٍّ اعترافٌ وُضِع في ركنٍ بجانب أبا جورة مطليٍّ بالذهب أجلسه عليه السيدة وطبعت على خده قُبلة خفيفة واختفت في أحد المنافذ الموجودة في الجدار ثم عادت ترتدي لباساً طويلاً بلا كَمَمين، وأحضرت معها زجاجة فودكا ماركة غورباتشوف؛ الخائن الذي باعنا للغرب، قال عبد المنعم في سره.

- قبل أن تجتمع بهم لا بد من الإجابة عن بعض الأسئلة، لا بد من الإجابة بسرعة وإلا فقدت حياتك يا عبد المنعم، قالت السيدة دون أن تنظر إليه.

- ماهي الأسئلة، سيدي؟

- هل تعرف الرقيب سانتينو؟

- أعرفه حق المعرفة.

- ماذا تعرف عنه؟

- أحد شهود القيامة.

- وماذا أيضاً؟

- صار غنياً وأصبح مزواجاً.

- هل تعرف أنه كان في شندي قبل ثلاثين عاماً؟

- كنت أنا في الجنوب يا سيدي.

- وهل تقع شندي في الجنوب؟

- أقصد...

- فهمتُ، قالت، ثم أمرت: هيا بنا، لنذهب، حان الوقت.

خرجنا من غرفة الجدارية عبر جدارٍ انفتح في مكان رُسمت عليه صورة الرئيس بزيه العسكري الأنيق، وصعدا سلماً معدنياً حلزونيّاً موضوعاً على أطرافه مزهرّيات كبيرة حمراء وتسلّق حائطه نباتات استوائية متشعبة فوقها صور لرؤساء أفارقة كانوا جميعهم ممن قاموا بانقلابات في بلدانهم أو خلعتهم الانتفاضات الشعبية. كانت عيونهم تتحرّك مع حركته الحلزونية على السلم، فحذّرت السيدة رزاز بالاً ينظر إليهم، لأنهم مازالوا أحياء يرزقون فاقشعرّ بدنه. قهقهات تأتي وتختفي ورائحة رطوبة تملأ المكان وهدوء رهيب كسرتة السيدة حين قالت: اسمي رزاز. جميل اسمك، ردّ عبد المنعم بصوت خافت، وأخذ يرّد الاسم في سرّه. اسمي عبد المنعم، قال. أعرف، ردّت بحزم. انفتح بابٌ في نهاية السلم فوجدنا نفسيهما داخل غرفة فسيحة خالية سوى من طاولة كبيرة ولوحة لم يكتمل رسمها ورائحة البوهيات الملونة تملأ المكان.

كان طلاء الحائط عبارة عن فسيفساء لألوان إفريقية زاهية ممزوجة بألوان مياه المحيط الأطلنطي على شواطئ الكاريبي، وأشجار أمازونية عملاقة تصنعها رياح عاتية. فتحت رزاز باباً مصنوعاً من الصفيح، فولجا صالة كبيرة جلس فيها خمسة رجال وبينهم الرقاص الذي رآه عبد المنعم في منزل صديقه عباس. أشار

إلى عبد المنعم بأن يجلس على كرسي بجانبه وسأله عن عباس. لم يأت معي، أجب. ذكي، قال. فتذكر عبد المنعم أن عباس كرشة أخبره بأنهم لا يثقون فيه عندما دعاه إلى أن يدخل معه: هؤلاء لا يثقون في الماركسيين المتحولين، قال عباس، وأردف: يعلمون أننا لسنا مثلهم نتغوط على طبقٍ أطعمنا! صافح الرقاص عبد المنعم وأجلسه بجانبه. وحين لطمت وجهه رائحة نتنة فاحت من فم الرقاص تساءل عبد المنعم، فجأة، ألا يستاك الرؤساء مثل بقية البشر مرتين في اليوم، على الأقل، أم إن الأمر لا يهمهم مادام الناس يستنشقون، بسعادة بالغة، روائح الأمونيا الفائحة من أفكارهم؟ كان الأربعة الآخرون منشغلين بتدوين أشياء على قراطيس مختلفة الأشكال والأحجام. أنهينا يا رئيس، نطقوا في وقت واحد. أشعل أحدهم سيجارة طويلة ففاحت رائحة الحشيش حتى أثارت شعب عبد المنعم الهوائية فوضع يده على فمه يسعل. شيوعي ولا تدخن البنقو!، قال الرئيس ضاحكًا.

-لندخل في الموضوع، قال الرئيس، وهو يمسح أطراف فمه بمنديل ورق.

-لا نريد منه شيئًا سوى التأمين على كل ما نقوله في الجرائد والتلفزيون، قال أحدهم وكان ذا شارب مفتول.

-هذا هو كل ما في الأمر، يا عبد المنعم، قال الرئيس.

-سمعا وطاعة سيدي الرئيس، قال بصوت مرتعش، ولم يعرف هل سمعه الرئيس أم لا.

انشغلوا عن عبد المنعم بمواضيع سياسيّة شائكة، ودخان الحشيش يخنقه وهو يرى نفسه على الصفحات الأولى من الجرائد يتحدث عن قيامة الزعيم. جاءت رزاز، وأومات إليه فنهض وتبعها مُطأطأ الرأس. ظلّت صامتةً وضحكات الرجال الخمسة تأتي صاحبة كائنها أشباح تطارده ورزاز، كلما ابتعدا عنهم. لم يعد عبد المنعم يسمع وقع خطواتها، فحسب أنها تمشي حافية، وتطأ الأرض بخفّة. كان يعرف أنّها صعدا ثلاثة طوابق تقريباً، لذا لا بدّ لهما من أن يهبطا ثلاثة سلام على الأقلّ ليلغا مستوى الأرض. كانت الحيطان التي يمشيان بينها بلا صور أو لوحات أو نباتات متسلّقة. وكان الممشى عبارة عن نفقٍ مضاء بأنوار خافتة تكفي فقط لرؤية فستان رزاز حتّى يتمكّن من أن يتبعها. وقفت رزاز فوقف هو وأشارت إليه بأن يتقدّم فانفتح الباب وخرج وهو ينظر خلفه. ألقى عبد المنعم نفسه واقفاً عند شارع ترابيّ، أمامه ترعة تشرب منها أبقار، ويلعب فيها أطفال عراة. إنّهُ ليس الشارع الذي أتينا منه، قال عبد المنعم. رأى سيّارة عبّاس قادمة من بعيد كأنّها علبة كبرت تطاردها عاصفة ترابيّة توحى بنهاية العالم. توقّفت السيّارة ورأى عبد المنعم الشيخ أسنان عبّاس كرشة البيضاء، وهو يتسم.

- أين نحن يا عبّاس، ألم يكن البيت الذي أتينا إليه في حيّ كرتون كسلا؟

- نعم، ردّ عبّاس.

- وما الذي أتى بنا إلى شارع ود مدني الآن؟

-علمي علمك، قال مستغرباً.

-أتعرف ماذا سيكتبون في الجرائد غداً؟

-هؤلاء الأوغاد يصعب التكهّن بحيالهم الشيطانية، يا عبد المنعم.
ثم أردف قائلاً: قيل لي أن أعطيك هذا.

مدّ عباس كرشة يده بظرفٍ إلى عبد المنعم.

نعم، كان لينين يعلم أن المال الذي يأتي به ستالين مالٌ مسروق، لكنّه كان يستخدمه في خدمة الحزب... هل يحاسبنا الله إن سرقنا المال وأنفقناه على الفقراء؟... الكتاب المقدّس يقول: لا تسرق. نقطة.
لا زيادة ولا نقصان. لا تبرير للسرقة. مائة ألف من الدولارات لي أنا عبد المنعم الشيخ التاجر الذي شقي سنوات عمره في الجنوب ولم يجنِ ربع هذا المبلغ الذي حصل عليه الآن في رمشة عين... ماذا سيكتبون في جرائدهم عني وعن الزعيم يا ترى؟ ما أجمل قيامتك أيها الزعيم!

كان عبد المنعم يفكّر.

-عبد المنعم لقد وصلنا، صاح عباس كرشة.

كانا داخل المنزل ولم يعرف عبد المنعم كيف ومتى وصلا. نزل والظرف مخنوق برائحة عرق إبطه. شعر بأنّه يمشي على الأرض ولا يمشي، كان الهواء يرفعه قليلاً عن الأرض ويدفعه بلطفٍ وأنفاسه تتسرّب بطيئةً دافئة. دخل غرفته وارتمى على السرير بجلبابه وصندله الثبّي. وضع الظرف بجانبه، وأخذ يتأمل السقف وأجنحة المروحة تدور بسرعة، وتصدر صوتاً كخفيف أوراق الشجر.

كان عبد المنعم موقناً أنّ خدر النعاس الذي أخذ يسري تحت جفنيه بهدوء سيؤدّي به في الساعات القادمة إلى نوم تنبأ بأنه سيكون الأمتع على الإطلاق. وكان الحلم الذي عرف أنّه سيحلمه هو أنّ ما ظلّ موصداً من أبوابٍ في حياته بأقفال حديدية صدئة ومن نوافذ ظلّت مغلقة بخيوط العناكب أخذ يتفتح كأزهار الربيع ليملأ نفسه بنسائم محملة بعبق الحبّ وجمال الطبيعة وهدوء النفس. إنّهُ الحلم الذي حلمه عندما فشلت صفقة شراء الدولار من البنك المركزي في جوبا.

هكذا هي الأحلام، تأتيك خلصةً، بعد أن تكون قد نسيت نافذة أحلامك مفتوحة، لتتسلّل وتحقق لك ما تريد ثم تغادر وأنت لا تدري.

كان الحلم الذي حلمه عبد المنعم في ذلك اليوم، وهو يحضن الظرف الكاكي، جميلاً هادئاً لم يعكّر صفوه سوى ظهور السيدة رزاز وهي ترتدي ثوباً أبيض، كأنّها العذراء هبطت على الأرض في حركة عمودية تحمل في يدها نصلاً طويلاً وتبحث عن الرقيب سانتينو.

شعرتُ بإرهاقٍ مضمّنٍ كأنّي كنت أركض مدّة ساعةٍ أو نحوها، وتنهدتُ عميقاً.

-ثمّ ماذا؟، سألني نيايا.

- تلك هي الحكاية التي حكاها لي الزعيم، قلت.

ظلّ الحكاء صامتاً، مشدوهاً لا يلوي على شيء فهمهمتُ لأتأكّد

من أنّه لم ينم. أصدر زفرةً غامضةً ثمّ قهقهةً قصيرةً وتجهّم فجأةً. هزّ رأسه مستغرباً فقلت: هذه هي القصّة التي حكاها لي الزعيم، فانفجر ضاحكاً.

- ما الذي يُضحكك؟، سألته محرّجاً.

- أنت حكّاء، مثل أخيك أغسطينو.

- لا تُجاملني، قلت.

- أنا لا أجامل. أرى أنّ حلم أغسطينو سيتحقّق الآن.

- وما هو حلمه؟

- عندما كنت أنا والمرحوم أغسطينو في مدرسة خور مدير، ويبدو أنّك لم تكن قد دخلت المدرسة في ذلك الوقت يا أجانق، كان أخوك أكثر التلاميذ سعادةً وهو يُقلّب صفحات كتب المطالعة الجديدة التي توزّع علينا. كانت القصص تستهويه إلى أبعد الحدود، حتّى إنّك لتجده، بعد انتهاء درس المطالعة والقراءة، محاطاً بتلاميذ الفصول الأخرى وهو واقفٌ يحكي بالتفصيل الدقيق وبإيحاءات مُثيرة القصّة التي سمعها من المعلّم وقرأها في الكتاب. كان يسألني دومًا: هل هؤلاء الذين يكتبون مثل هذه القصص أناسٌ تعلّموا مثلنا في مدرسة خور مدير الابتدائيّة ثمّ تخرّجوا ومضوا إلى المتوسّطة وإلى الثانويّة، وسافروا بعد ذلك بعيداً لحشور رؤوسهم بالقصص والحكايات ليكتبوها لنا في كتب المطالعة؟ وعندما أحرك كتفيّ تعبيراً عن عدم معرفة الإجابة

عن أسئلته المعقدة، كان يردّ قائلاً: لن أهاجر مثلهم، سأكتب قصصي هنا، وأحكيها هنا مثلما أحكي قصصهم لتلاميذ الصفّ الأوّل والثاني والثالث وللأولاد في الحيّ ليلاً. كان مُحبّاً للقصص شغوفاً بها ومهووساً حتّى إنّهُ كان يغيّر شخوص الحكايات ويجعل مكانها أشخاصاً نعرفهم في حياتنا. كان صبيّاً ذكياً يعرف أنّ مستقبله هناك، بين الرموز والكلمات والجمل التي تصنع قصصاً في نهاية المطاف، وكان ذلك طموحه.

ختم نيايا حديثه وعينه الحمراء وان غارقتان في دموع من الحسرة وهو مطرق الرأس برهة قصيرة. ثمّ رفعه مصوباً إليّ نظرة تحدّ قائلاً:

- يجب أن نُخلد اسمه بأن نكتب كتاباً نهديه إليه.

- كتاب؟ أنت تعرف أنّ مستواي التعليميّ هو الابتدائيّ، قلت صاحكاً.

- لا يهّمك، أنت تحكي وأنا أكتب.

- ومن أين أجد الموضوع لأحكيه لك؟

- لديك أهمّ موضوع في التاريخ، يا صديقي أجانق.

- وما هو، يا نيايا؟

- موضوع قيامة الزعيم.

- وماذا نسَمّي الكتاب؟

- لا عليك في الاسم، فكّر في الأمر. انتهت ساعات عملي، إلى اللقاء، قال نيايا ومضى.

ما إن أوصد الباب خلفه حتّى بدأت القصّة تتشكّل في رأسي. ورأيتني ذاك الطفل الذي تحجّرت الدموع في مقلتيه وهو يرى تلك الشاحنة آتية، رأيت حلم القيامة الذي تردّدت في حكايته لأغسطينو قبل يومين ونحن ذاهبون إلى المدرسة، ورنين الجرس المدرسيّ الصباحيّ يصوّت في أزقة ذاكرتي، ويد كرافعة تتشّلني من ردائي وترفعني وتلقي بي بعيداً، وانتهى كلّ شيء في ثوانٍ معدودات. كان أخي أغسطينو الذي أحبّته أكثر من أمي وأبي يرقد وعيناه مفتوحتان على اتّساعهما كأنّهما تلوّحان بالوداع الأخير. لم أذرف ولو دمعاً واحدة، فهي أوّل مرّة ألقى فيها الموت وجهاً لوجه. وكانت النسوة الذاهبات إلى السوق بتنوراتهنّ الملوّنة المتطايرة في الهواء يولولن ويعفّرن رؤوسهنّ بالتراب فجاء بكاؤهنّ قوياً، آتياً من مسافة أكثر من أربعة عقود، لأسمعه الآن داخل معتقلي بوضوحٍ شديد، كأنّه آتٍ من الغرفة المجاورة.

لم يخطر ببال أحد أنّ ذلك العسكريّ المختفي الذي ادّعى أنّه تحدّث مع الزعيم سيصبح من المشاهير وتتناول أخباره الصحف المتخصصة في نشر الفضائح بشرق إفريقيا.

بفضل تلك الصحيفة الصفراء، واسمها «الشطة الحمراء»، وكانت ساندرا تُطلق عليها ساخرةً صحيفة «الأخبار القذرة»، انقلبت حياتنا رأساً على عقب، وأصبح الجميع -قُرّاءً وأمّيين- يقفون لساعاتٍ طويلة عند كشك ساندرا الذي تحوّل من مجرد مقهى كئيب إلى أهمّ مركز لبيع الصحيفة في العاصمة قاطبة.

نقلت الصحيفة في اليوم الأوّل خبراً مفاده أنّها أجرت حواراً مطوّلاً دام سبعة أسابيع متتالية، مع الرقيب أجانق الذي قال، حسب مقتطفات من الحوار كانت تُنشر كلّ يوم لمدة ثلاثة أشهر قبل نشره كاملاً، إنّ الزعيم سيُلقي بعلي بابا والأربعين لصّاً خلف القضبان. وإنّ لديه معلومات مثيرة عن الأموال التي سُرقت من القصر الرئاسيّ ومكتب الرئيس، والعقود التجاريّة التي تُمضى ليلاً على أضواء سيّارات حكوميّة تحت جبل كجور، وثروات البترول التي يودّع جزءٌ منها داخل خزانة ضخمة في القصر بدلا من البنك المركزيّ، وقال الزعيم إنّ مثول الرئيس شاهداً أمام المحكمة، بعد أن فقد أهليّته، شرطٌ أساسيٌّ لتبرئته

حتى يتمكن من قضاء بقية حياته في أحضان سوزي، وينعم بمراسم جنازية سرية كي لا يتذكر الناس أيام حكمه الأسود في تاريخ البشرية.

هكذا كان الناس يقفون في صفوف طويلة ممتدة على طول شارع نمولي مروراً بفندق أوباما وصولاً إلى حيّ قومبو وكبري جوبا الحديديّ في انتظار الصحيفة التي تنشر يومياً مقتطفات من الحوار: «قريباً، اللقاء المثير!» أو «الحوار الذي يُفجّر القرن الإفريقيّ وينزع الرئيس موسولينى المصاب بالبواسير من السلطة»، «قريباً: تنبؤات الزعيم على لسان شاهده الوحيد».

كان الناس يتخاطفون الصحيفة قبل أن تقف الباصات القادمة من كمبالا في محطّتها الأخيرة.

لم يدرك أجانق ما يحدث في العالم الخارجي، لكنّه شعر، فجأةً، بأنّ الحراسة شدّدت عليه في المعتقل، فأصبح من الصعوبة بمكان تبادل أحاديث مع صديقه ضابط الأمن نياما الحكّاء وربّما الإنصات إليه وهو يحكي فصلاً من فصول الكتاب الذي ينويان كتابته. كان العالم الخاصّ الذي افتقده أجانق في شوارع فيس بوك وطمبرة وحيّ الثورة قد تحوّل إلى عالم غريب لا يتعامل فيه البشر - رغم تفشّي الأمية فيهم كوباء خطير - إلا بالكلمة المكتوبة. ففي لمحة بصر، توقّفت ساندرا عن الاستيقاظ فجراً وإشعال مواقد الشاي متعلّلةً بأنّ ثقافتها الواسعة التي اكتسبتها في الفترة الأخيرة خلال تعاملها الجيّد مع الكلمة المقروءة لا تسمح لها بالجلوس قرب الموقد وهي تقرأ الجرائد باللغة الإنجليزيّة خوفاً من أن تلتهمها النار. ولم تكن تدرك أنّها تمسك الصحيفة مقلوبةً.

وللحصول على النسخ اليومية من الصحيفة من «مركز ساندرنا للنشر والتوزيع»، بحسب الياطرة الكبيرة الموضوعة فوق الكشك، اضطرّ الجميع إلى التعامل مع ساندرنا باحترام شديد جعلها تضع سعرًا جديدًا للصحيفة في كلّ يوم! وعندما سألها عمّ جادا مرّة عن سرّ تلك الزيادة المتصاعدة يوميًا على الرّغم من استقرار سعر الدولار في زقاق بنك أيفوري في سوق جوبا، وقفت ويدها في خصرها، وهي تهزّ وسطها، وصرخت في وجهه قائلة: أسأل بورصة نيويورك!

كان المنظر الذي عهده الناس في تلك الأيام، ببار أبراهام الأثيوبي بالخصوص، هو جلوس زبائنه في هدوء تامّ ورؤوسهم مدفونة بين صفحات تلك الجريدة بحثًا عن أيّ كلمة نطق بها أجانق قد تكون فاتتهم، ممّا جعل النادلة الكينية الهادئة تصف البار بأنّه أصبح مكتبة ضخمة تُحتسى فيها الخمور.

أصيب الناس بحمّى قلقٍ شديد حين بقي أسبوعان على موعد نشر الحوار كاملاً، وعانت الحكومة من الأرق، فأدمن وزراؤها ونواب البرلمان شرب الخمور المستوردة، وفي اليوم الذي خرجوا فيه إلى الشوارع لشراء الصحيفة، غير مهتمّين بحظر التجوال المفروض في البلاد، اختفت «الشطة الحمراء» من الأسواق نهائياً، واختفى كلّ أثر تركته لتقول إنّها كانت هنا في يومٍ من الأيام، فهبطت خيبة ثقيلة على صدور المواطنين جعلتهم ينبشون عميقاً في ذاكراتهم للتأكّد ممّا إذا كانت هناك صحيفة تدعى «الشطة الحمراء» نشرت قصّة حوار أجرته مع الرقيب أجانق المختفي.

عادت ساندرا إلى تجارة الشاي بهمة ونشاط، وانهمكت في تنظيف المكان من بقايا حبال مهترئة كانت تعلّق عليها الصّحف، غير عابئة بالمستفسرين عن توقّف نشر الصحيفة. وعندما أصرت ليزا وأبراهام وعم جادا وجمع غفير من سكّان الحيّ وطلّاب الجامعة على مُساءلتها عن هذا الانقطاع المفاجئ، رغم الأرباح الطائلة التي كانت تحقّقها، ردّت باستهزاء وهي تُغلي الشاي في البرّاد الكبير قائلة: البشر في هذه المدينة غير مثقّفين، لا يهتمّهم سوى الأكل والشراب والمضاجعة.

ظلّ الناس في حيرة من أمر هذا الاختفاء المفاجئ للسلطة الحمراء. بيد أنّ بعضاً من رجال الأمن الذين لا يتورّعون أبداً عن التفوّه بأسرار العمل في البارات والبيوت المشبوهة قالوا إنّ الحكومة أوقفت تلك الصحيفة لأنّها نشرت مقالا زعم فيه كاتبه أنّ حاكم البلاد الفعليّ ليس هو الجالس على كرسيّ السلطة... الرئيس الفعليّ مات منذ سنوات، وما القابض على السلطة سوى روحه التي يلبسها شيطان أخرس. وختم كاتب المقال قائلاً: التفاصيل في ثنايا الحوار.

اختفت الجريدة فعليّاً من أيدي أولئك الباعة الجوالين في الأسواق ومكاتب الوزارات، ومن الفنادق غير المطابقة للمواصفات والمنتشرة في كلّ زقاق من أزقة المدينة. لكنّها ظلّت، في الوقت نفسه، تُباع خلسةً بأسعار خرافيّة جعلت بعض من اغتنوا في الضريح منذ أن أصبح مزاراً يُعيدون طباعة الأعداد القديمة ويبيعونها في السوق السوداء دون أن ينتبه القراء إلى أنّهم طالعوا المقتطفات المعادة أكثر من مرّة.

جاء أسبوع نشر الحوار، ولم يكن الناس قد فقدوا الأمل في قراءته. ولا تُحاذ الحيلة والحذر، وقبل يومٍ من نشر الحوار الزلزال، أصدرت

الحكومة مرسومًا يقضي بمنح الشعب عطلة عيد الكريسماس في يوم 15 مارس، يوم بداية نشر الحوار. وقد برّرت ذلك بأن شهر ديسمبر القادم لن يكون مناسبًا للاحتفال بمولد المخلص عمانوئيل ابن يوسف النجّار. فقد تنبأت مؤسّسة الأرصاد الجوية والظواهر الطبيعيّة التي تمّ تأسيسها حديثًا بوقوع زلزال عنيف قد يستمرّ لمُدّة ثلاثين يومًا ابتداء من 15 ديسمبر.

أغضب الإعلان الخبرَ الأعلى خورخيو ماريو بوجيليو المعروف بالبابا فرانسيس، بابا الفاتيكان الذي كان يُصلي صلاة الأحد في كاتدرائيّة روما، فبعث خطابًا تنديديًا شديد اللهجة، معتبرًا ذلك تعدّيًا سافرًا - من قِبَل حكومة جوبا- وإهانة للمسيح والمسيحيّة والكنيسة الكاثوليكية.

وبعد ساعةٍ واحدة ألغت الحكومة، برئاسة الرئيس الشبيه، المرسومَ الحكوميّ وأرسلت خطابَ اعتذارٍ إلى الخبر الأعظم، مُعزيةً ما جاء في المرسوم إلى خطأٍ فنيّ ارتكبه الرجل الستينيّ مدير التلفزيون القوميّ. وقد عزا هذا المدير من جهته الخطأ الذي سمّاه «السّمّ الزعاف» إلى مُذيع كان جالسًا كالطاووس يقرأ بتلعثم فاضح إعلانَ عطلة إجازة أعياد الكريسماس في شهر مارس. دخلت إدارة التلفزيون القوميّ في متاهةٍ إلقاء اللّوم من موظّف إلى آخر، حتّى استقرّ على عامل النظافة. وقد كادت العلاقة بين الكنيسة الكاثوليكيّة والدولة تتوتّر لولا أنّ الحكومة قدّمت اعتذارًا رسميًا مختومًا بنسر الجمهوريّة فيه ثماني صفحاتٍ سياسيّة وأربع صفحات دينيّة وثلاث عسكريّة ختمها رئيس أركان الجيش بأنّه على استعداد كاملٍ لإرسال إحدى الكتائب التاريخيّة في حرب التحرير

لحراسة بابا الفاتيكان! واعتذرت لكلّ مسيحيّ البلاد الذين اعتكفوا في الكنائس وأعلنوا الصوم أربعين يومًا، إن لم تراجع عن قرارها، ولا سيّما أعضاء كنيسة القيامة بعدما رفض نيّهم أنطوني -صانع المعجزات في شرق إفريقيا وشمالها، كما كان يُلقّب نفسه- هُراء الحكومة مطالبًا إيّاها بكتابة اعتذار خاصّ لكنيسته بمعزل عن الكنائس الأخرى.

اتّخذت الحكومة قرارًا صارمًا قضى بأن يُفصل عن العمل كلّ من كانت له علاقة بهذا الإعلان. وقد تلا القرار لوكي عامل النظافة الذي ظهر على الشاشة سعيدًا وهو يعتذر للجمهور الكريم، وبدا كأنّه لا يفهم شيئًا ممّا يتحدّث عنه. وأعلن أنّ الصواب في القرار هو: اعتبار يوم غدٍ عيدًا للطوارئ وعلى الجميع الاستمتاع بإجازاتهم داخل منازلهم.

في اليوم التالي، كانت الإذاعة والتلفزيون يُبثّان أناشيد ثوريّة حماسيّة تعود إلى حقبة الحرب فلم يعرف الناس أكان الحوار قد نُشر أم لم ينشر! الوحيد الذي كان يعرف هو الرقيب أجانق. أمّا الحكومة فعلى الرغم من إدراكها أنّ أجانق معتقل في غرفة مظلمة لا يعرف هو نفسه كم من الوقت ضاع فيها، ومع أنّ رئيس الدولة ذهب مرّاتٍ عديدة في منتصف الليل ليتأكّد بنفسه من أنّ الشاهد الوحيد على القيامة حيّ يُرزق، ورغم أنّها كانت على علم بأنّ «الشطة الحمراء» إنّما نشرت ذلك الخبر الكاذب بُغية زيادة مبيعاتها، فقد صدّقت الخبر وأصدرت تلك المراسيم الرئاسيّة مخافة أن تكون تلك الشخصيّة التي فقدت هويّتها طيلة فترة إقامتها في الزنزانة قد تحوّلت إلى شخصيّة أخرى.

ولعلّ الحكومة بدأت تفقد ذاكرتها لانشغالها المفرط بشائعات ظهور الزعيم التي وردت في تقارير جهاز الأمن القوميّ. وقد جاء في

تلك التقارير أنّه أصبح من الصعوبة بمكان إحصاء عدد مرّات ظهوره. فالملفّات المحتوية على التقارير المختصّة بظهوره كانت مكدّسة داخل ثلاث عشرة غرفة عطنة تزكم رائحة رطوبتها أنوفَ فريق الإحصاء الأجنبيّ الذي جاء خصّيصًا لإجراء بحث في هذا الموضوع. وقد بيّنت أنّ عددها يفوق عدد مرّات ظهور العذراء مريم منذ أن بدأت المسيحيّة في الانتشار حول العالم.

وبعد أن أمضى أعضاء فريق الإحصاء الأجنبيّ أربعمائة وأربعة وأربعين يومًا، وجدوا أنّ كمّيّات تلك الملفّات ملأت ثلاث عشرة غرفة، كما صرّح بذلك وزير الإعلام القوميّ. وقد سبق لهذا الوزير أن أصدر قرارًا صارمًا بوجوب عدم تناول شائعة القيامة في الصّحف المحليّة وإغلاق كلّ صحيفة تناوّلها حتّى ولو كانت على شكل رسومات كاريكاتوريّة.

في نهار يوم قائظ، خرج فريق الإحصاء الأجنبيّ من تلك الغرف المظلمة وعقد مؤتمرًا صحفيًّا في صالةٍ قديمة. جلس رئيس الفريق على كرسيّ وراء منضدة كبيرة وأعلن بصوتٍ مخنوق تتخلّله رعشة بكاء أنّ كلّ هذه الأوراق التي تحتوي على تقارير لم تكن تحتوي على أيّ تقرير! كان الانطباع الذي تركه أعضاء فريق الإحصاء الأجنبيّ الجالسون على يمين الرئيس وشماله لدى الصحفيّين والحضور هو أنّ تقريرهم ينمّ عن شيء خفيّ تأبى اللجنة الإفصاح عنه، خاصّةً عندما بدا لهم أنّ العطسات كانت تخرج من أنف رئيس الفريق بطريقة غريبة مُتكلّفة وساذجة ولا علاقة لها برائحة الغرف المظلمة.

وإذ كان رئيس الوفد الأجنبيّ على وشك تلاوة تلك الحقيقة الخفيّة، جاءه أحدهم يرتدي بزّة عسكريّة ويحمل في جنبه مسدّساً إسرائيليّاً، همس في أذنه، ثمّ خرج من القاعة بهدوءٍ دون أن ينظر إلى أيّ واحدٍ من الجالسين. لم ينجح الهواء المتشجّج المنبعث من جهاز السامسونج في إيقاف العرق الذي بلّل قميص رئيس الوفد. حاول أن يتماسك بتوزيع ابتسامات غيبيّة على الحضور، لكن يبدو أنّ فعل الهمس في أذنه كان أقوى بكثير من عزمه على أن يبدو أمام الجميع أقلّ توتّراً. نظر إلى المستندات المفروشة أمامه، وخلع نظّارته ودعك عينيه ببنانه وارتابها مرّة أخرى، ثمّ أخذ يتلو بقيّة تقريره كمن يتلو سيرة ميّت في بيت عزاء. كان يرتجله بلسان إنجليزيّ ذرّب. وتجنّب النظر إلى عيون الجالسين أمامه، وكانوا غير مستوعبين ما يقول وهو يتنقّل من موضوع إلى آخر بسرعة رهيبّة. صمت برهةً، تأمّل وجوه الحاضرين وألقى حجراً في بركة الهدوء الذي يلفّهم عندما قال: لقد اطّلعتنا على كلّ التقارير التي كُتبت بنزاهة وشفافيّة وصدق منقطع النظير... وإنّ الذين كتبوها بشر على درجة عالية من التعليم والثقافة والكفاءة... وبعد قراءة متأنّيّة ودقيقة وبتريث شديد، وجدت اللجنة أنّ الزعيم لم يظهر ولن يظهر، وأنّ الشائعات التي تتحدّث عن ظهوره ما هي إلّا تخاريف ووساوس صدرت عن بعض المحاربين القُدّامى الذين يعانون من أعراض الاضطرابات النفسيّة التي تكون بعد الصدمة.

مضت أيام وليالٍ شعرت فيها ببدء العدّ التنازليّ لوجودي في هذا الكون، ولم أعرف خلالها شيئاً سوى هذه الزنزانة العفنة ومجموعة جنود قد يصل عددهم إلى ما يكون فصيلاً، كانوا يتناوبون على حراستي، فلم يعد نيمايا يزورني ويسمح لي بالتسلّل ليلاً والذهاب إلى منزلي. همس في أذني جنديّ ينتمي إلى قبيلتي كان يحرسني في ليلة خريفية هطل فيها المطر غزيراً، وأخبرني بأنّ حال الدنيا في الخارج مقلوب رأساً على عقب بسببي. ضحكتُ، وظلّ هو مشدوهاً ولم يصدّق عندما أخبرته بأنّي لا أدرك أيّ شيء من الحوار المزعوم.

اليوم، ومع بزوغ الفجر، شعرتُ بحركة غير عادية داخل الزنزانة وفوق السقف وأمام الباب، ومضوا مسرعين، فساد الهدوء وعلمت أنّهم ذهبوا إلى غير رجعة.

عندما جاء نيمايا أخيراً، وجدني نائماً، فأيقظني واعتذر عن غيابه طوال هذه المدة، فقلت إنّني أعرف ما فعلته تلك الصحيفة الصفراء، وأنا أجهل أنّ مثل هذه التسمية ذات علاقة بالحمى الصفراء.

تفاصيل أخرى أضافها نيمايا بطريقته الشيقة في الحكى، وضحكتُ عندما علمت بأمر اللّجنة الأجنبية التي ضحكت على ذقن الحكومة

عندما قالت إنّ قيامة الزعيم مجرّد شائعة خلقتها أنا وبعض الجنود المصابين باضطراب نفسيّ بعد الصدمة.

- هل تقصد أنّ لجنة الإحصاء كذبت، يا نيبايا؟ سألت الحكّاء.

- لقد كان رئيسهم يرتعش وهو يتلو حيّثات القرار، أجب.

ثمّ سحب كرسيه قريباً ووضع ساقاً على ساق، فسعدتُ لأنّي أدركتُ أنّه سيقصّ عليّ حكايةً. جلست القرفصاء على لحافي وقلت له إنّ ظهري يؤلمني، فزفر وقال: السنوات قست عليك يا صديقي، تحمّل قليلاً.

- كم سنة قضيتها هنا؟ سألته.

- لا أعرف. ألم ترّ الشيب الذي صبغ شعرك، يا صديقي؟، قال.

- ومن أين لي بمرآة كي أرى الشيب في رأسي؟، قلت ضاحكاً.

- لا يهمّ أن ترى وجهك في المرآة لتدرك ما فعلته بك السنون!

- صحيح. لقد قست عليّ السنون وأمضيتُ نصف عمري خلف القضبان.

- ستخرج قريباً، يا أجانق، وتنسى كلّ شيء، وتنطلق نحو الحياة بحماس الشباب وعنفوانه وتعوّض ليزاً عن كلّ ما فاتها.

- أتحدّث عن الشباب؟ يبدو أنّك أصبت بالعمى فلم تعد ترى التجاعيد التي أحسّها في وجهي.

- ليس مهمّاً، يا صديقي، أن يرسم العمر خطوط المسار الطويل على وجهك، أو يُصبغ شعرك بالشيب. إنّما المهمّ والضروريّ

هو كم تشعر بعمرِكَ الآن؟ إن كنت في السَّتين، مثلي، وتشعر بأنَّكَ شابٌّ مفعمٌ بالحماس والحيويَّة والطموح، فأنت بلا شكَّ ستكون قادرًا على النجاح والعطاء أكثر في هذا العالم. أمَّا إذا كنت في العشرين وتشعر بأنَّكَ يائسٌ ومحبَط ومنكسر وأنَّ هذا العالم لا يستحقُّ أن يُعاش لحظةً، فسوف تكون، بلا شكَّ، مثل الشيخ الذي أثقلته الحياة، ولم يعد يستطيع أن يقدم أكثر ممَّا قدَّمه في سنوات عمره. تفاعل يا صديقي.

- سأتفاعل يا نبيّايا.

- دعك من كلِّ هذا يا أجانق. اليوم أدركت الحكومة أنَّ لجنة الإحصاء الأجنبيَّ التي استلمت مليونين ونصف المليون دولار، كأتعاب سنتين من العمل المضني قبل سنوات، كذبت عليها بإعلان عدم قيامه الزعيم. أعرف ذلك، قلت. نعم أنت تعرف ذلك، لكنَّ الأدهى هو ظهور الزعيم ورؤية كلِّ الناس إيَّاه وليس أجانق وعبد المنعم وبقية المدَّعين أمثال سانتينو والنبيَّ أنطوني.

- ماذا حدث؟، سألته، معدلاً جلستي، فأجابني قائلاً:

- حدث ذلك قبل أربع ساعاتٍ من الآن عندما رأيته، في الساعة الثامنة صباحًا، يعبر الشارع الذي يقع خلف الوزارات. كان التلاميذ ذاهبين إلى المدارس والباصات على اختلاف أحجامها تعبر الشوارع دون احترام إشارات المرور، والدراجات الناريَّة تمضي في الاتجاه العكسيِّ في سباق قاتل، وفجأةً يوقف موكب الرئيس المعتوه القادم من رحلة العلاج في الخارج كلَّ شيء!

فتزدحم حركة المرور. كان يخطو خطواتٍ واسعةً كأنّه على موعدٍ مهمٍّ، متّجهاً إلى مدرسةٍ خاصّةٍ سُمّيت باسمه. خلّته أوّل الأمر - أقسم ربّ الكون يا أخي أجانق - أحدَ الذين يشبهونه! بيد أنّي أبعدتُ الفكرة عن رأسي خلّو البلاد من أشباهه بعد إعدامهم، وحتّى الناجون فقد غيّرُوا ملامح وجوههم القبيحة، وأجروا عمليّات زرع الشعر حتّى لا يواجهوا مصيرهم المحتوم. عرفت أنّه دخل المدرسة عندما رأيت الناس يخلعون الباب الرئيسيّ في محاولةٍ للدخول وهم يتصايحون ويهتفون بجلبةٍ قائلين: الزعيم! الزعيم! آخرون يئسوا فابتعدوا مسافة خمسين مترًا عن السور الإسمنتيّ ثمّ اندفعوا نحوه فتحطّم وأصبحت المدرسة واقفة وسط بحر من البشر. كنت هناك، رأيته بأمّ عيني جالسًا مُحاطًا بجمعٍ غفيرٍ يحدّق فيه. حينها، يا صديقي، تأكّدت أنّ لجنة الإحصاء الأجنبيّ كذبت، وأنّ ظهور الزعيم حقيقةً تحاول السلطات طمسها بأيّ ثمن!

- يعني أنّك صدقت قصّتي عن قيامة الزعيم، قبل عدّة سنوات؟ قاطعته.

- نعم صدّقتك، يا أجانق؟ ردّ نياها.

- طوبى للذين آمنوا ولم يروا.

- دعني أكمل يا صديقي.

- واصل.

- كانت نافورة شارع قوديلي تنثر مياهها الملونة عاليًا متجاوزة السقوف الزنكية لبيوت حي القوديلي بألوانها الحمراء والخضراء والزرقاء. وقد بدا الأطفال - للحشد القادم على طول شارع قوديلي، وهم يمرحون ويضحكون ويركضون حول النافورة بأشعتها المنعكسة في وجوههم- كأنهم عربات كرتونية صغيرة تجري فوق قضبان حديدية معلقة في الهواء، وبدأت النافورة نفسها كأنها مدينة ملاه غُرست في عاصمة أدمن سكّانها الظلام الدامس. لم نعبأ بأولئك الأطفال، فما كان يدور داخل تلك المدرسة، على الرغم من عدم علمنا به، كان أهم بكثير من كل تلك الأشياء، خاصّة عندما رأيته بأمّ عيني يتحدّث إلى التلاميذ.

تخيّل، يا أجاتق، وهذا أمر مؤسف للغاية، أنّه كان يسأل التلاميذ عن شخصيّات تاريخيّة شهيرة خاضت الحرب الأولى والثانية في جنوب السودان، وعن مدنٍ ظلّت محفورة في ذاكرة المستعمر، لكنّهم ظلّوا ساكنين في أماكنهم، كأنّهم لم يسمعوا ما كان يقول. فسأل المدرّس الذي كان برفقتهم عن الشخصيّات الموجودة في كتب تاريخنا. وما إن نطق ذلك المدرّس حتّى علم الزعيم أنّ كارثة ما حلّت بأولئك التلاميذ الأبرياء، وأنّ أجيالاً سوف تأتي بعد عقود وهي تتمرّغ في تراب الجهل. وبخّ الزعيم نفسه لأنّه سأل هذا المدرّس الأنيق، وقد ردّ على سؤال الزعيم بإنجليزيّة لندنيّة فخمة قائلاً: نحن ندرّس تاريخ يوغندا.

أصيب الزعيم بدوار وكاد يسقط على وجهه لولا أنّ ذلك المعلّم البدين أنقذه وهو على بعد شبرٍ من أن يُهشّم عظام وجهه بالأرض. غاب عن وعيه دقائق، فبدأ الناس يتلون ترايل حزينة شبيهة بأغاني

تشيع جنازة. رأى الزعيم خلال تلك الدقائق كتاب تاريخ لم يؤلف بعد: كتابا يتحدث عن تاريخ شعوب جنوب السودان وزعمائها الذين ناضلوا سنواتٍ في الأحراش لتخرج هذه البلاد من براثن المستعمر؛ كان كتاباً يغطّي عصور ما قبل اتّفاقيّة السلام الشامل وما بعدها. وقبل أن يستفيق من غفوته القصيرة التي لم يعرف هو أو حتّى نحن المحيطين به أكانت غفوة أم هذيان رجل بُعث إلى الحياة رغم أنفه، أطلق ضحكة طويلةً ساخرةً أضحكت التلاميذ عندما تذكّر أنّه ليس سوى شبح إنسان ميّت يرتعد منه زملاؤه القدامى.

أشار الزعيم بيده إلى الجمهرة وكانت تهمهم استياءً من المعلّم الذي اختفى بين أيادي عشرات الرجال إذ رفعوه، حين جدّف بإجابته تلك، وأغرقوه في بركة النافورة الطينيّة المليئة بالطحلب والضفادع والحشرات الميّتة. حلّ صمت مطبق بالمكان فلم تكن تُسمع إلاّ أنفاس الزعيم وطققة الزنك بفعل حرارة الشمس الساطعة، وهممة القادمين من الأحياء البعيدة. فهقه الزعيم وهو يضرب يداً بيّده رأسه مستنكراً، ثم انفجر ضاحكاً بأصواتٍ مختلفةٍ تتراوح بين بكاء وتأوّهات وضحكات مرّةً أخرى. أحضرت النسوة مناديل ورقّ، وتطوّعن لتجفيف دموعه، فبكى بصوتٍ مخيف وهو يسحب سوائل أنفه بتشنجٍ غريب. تدخلنا لإقناعه بأنّ قلوب النساء ستنفطر لمثل هذا البكاء الحارّ. رقّ قلبه وهداً بكاءً واعتلى كرسيّاً كان يجلس عليه المعلّم. فتح الزعيم فمه ليبتّ خطابه، أو هكذا ظنّ الناس، ففاجأه رجلٌ رثّ الثياب، أشعث الشعر، تكسو وجهه سحابة من الإعياء والتعب كأنّه هرب من الجحيم، وقاطعه.

كان الرجل هو ماركو زوج ساندرأ.

-أيّ ساندرأ تقصد؟

-ساندرأ بائعة الشاي في شارع طمبرة، يا أجانق. هل نسيتهأ؟

-كيف لي أن أنساها؟ ساندرأ بالنسبة إلى «أطلع برّ»، مثل صنم نيوورك.

-تمثال الحرية في نيوورك، وليس صنم نيوورك.

-بالضبط، قلت، ثم أضفت: الوقت يسرقنا، أكمل يا صديقي.

-تحوّلت مدرسة الزعيم، يا أجانق، إلى مزارٍ لا يقلّ كثافة عن الضريح. وقف ماركو بين يدي الزعيم فحيّاه وحضنه طويلاً، ووجد أبراهام الواقف على مقربة منهما نفسه في ذهولٍ مريع أفاق منه بزغرودة شقّت فضاء المدرسة كتصفيرة إنذار سيّارة إطفاء أطلقتها ساندرأ، وبذل عم جادا بائع الزهور جهداً كبيراً ليتسلّق جدران سقف أحد المحلات التجارية الملاصقة للمدرسة كي تتسنى له رؤية الزعيم من بعيد، وهكذا لا يقترب منه فيناديه باسمه الذي يجهله الناس: بنيامين إسحاق بسيوني.

حكى ماركو للزعيم عن زيارته الأولى إلى المدرسة التي تحمل

اسمه:

-قفزت ساندرأ وغنت بإنجليزية لم أفهمها وتصنعت حركات شبيهة بالتانغو الأرجنتيني، عندما أخبرتها بافتتاح مدرسة باسمك، ومضت مسرعة إلى السوق وأنت بملابس جديدة

لأطفالي الثلاثة كي يظهروا في المدرسة وهم في حُلَى جديدة. كان صباحًا خريفياً جميلاً عندما أجلسنا المسجّل، وهو شاب يبدو أنّه ترعرع في بلاد البيض ويتحدّث الإنجليزّيّة بأنفه وبسرعة فائقة. نظرتُ في عيني ساندرا لعلّها تُسعننا بكلمات الأغنية، فسألته باللغة العربيّة فأجابها بعربيّةٍ ملطّخة ببؤس الغربة. كان أجانق، سيّدي الزعيم، قد سبقنا إلى هناك ورأيتُه منسحبًا، منكمشًا كدجاجة بلّ لها المطر، فلم يردّ تحيّة يدي المرفوعة. كان أطفالي ينظرون من خلال نافذة مكتب المسجّل إلى أطفالٍ يبدو من وجوههم أنّ الجوع لم يذق طعم أمعائهم منذ أن جاؤوا إلى هذا العالم... الابتسامة التي رأيتهَا على ثغر ساندرا في ذلك اليوم، والمسجّل يتحدّث ويسحب من الدرج رزمة أوراقٍ، كانت هي الابتسامة نفسها التي رأيتهَا عندما تقدّمتُ لزواجها بعد أن دفنّا رفاقك الذين ماتوا معك في الطائرة عند قدمي الجبل. أعرف أنّك تتساءل الآن، لماذا دُفِنُوا هناك؟ أنا لا أعرف الإجابة، لكن لعلّه التهميش الذي يطال الموتى أيضًا، أيها الزعيم!..

كان ماركو يروي والزعيم يصغي ومئات العيون في رؤوس الناس تتنقّل بينهما، في صمتٍ. لم تهزّ الزعيم سوى آلاف الدولارات التي قال ماركو إنّ المسجّل طلبها منه لتسجيل أبنائه:

-لقد كنتُ جنديًا في كتّبة الزعيم! ردّ ماركو على المسجّل.

-كتّبة الزعيم أو فصّيل الرئيس هذا ليس مُهمًّا يا أخي... المهمّ هو الدولار! قال المسجّل لماركو، وهو يُحرّك أصابعه كأنّه يحسب عملة ورقية. نفث صدور الناس تنهيدات عميقة وألقوا نظرةً على باب

المكتب كأنَّ المسجِّل الشابَّ مختبئ خلفه. انزلت حُبَّيات عرقٍ من صلعة الزعيم ورسمت خطوطها العرجاء على وجهه، فتذكَّر ماركو أيام كان شابًّا يلقي الدانة في ماسورة المدفع ويركض بعيدًا سادًّا أذنيه بيديه لتسقط الدانة في معسكر جيش العدو. لم يعرف ماركو كم دانةً أطلقها في ذلك اليوم المنقوش في ذاكرة النضال، ولكنه حين رمى الدانة الأخيرة وناداه الزعيم باسمه بعد ساعةٍ من سقوط المدينة، كان هناك صوت يرنُّ في رأسه. وحينها بدأ الجنود يرقصون ويتصايحون ويطلقون أعيرة الانتصار في الهواء، كان ماركو يجلس وحيدًا، حزينًا تحت شجرةٍ لأنَّه فقد في طريقه شيئًا. لقد كان يطرب لزقزقة العصافير، وموسيقى البلابل الصغيرة، والأصوات الجميلة التي تُخرجها حناجر صبايا القبيلة في رقصة موسم الحصاد، عندما كان طفلاً يافعا في قريته.

- ماذا حدث لماركو؟ قاطع أجانق.

- فقدَ سَمْعَه، ردَّ الحكَّاء.

- أقصد ماذا حدث له مع ذاك المسجِّل القميء؟

- لم يحدث شيء. نهض المسجِّل من كرسيه ومضى نحو الباب ثم أشار إلى ماركو وساندرا وأطفالهما الثلاثة بالرحيل. كانت المسافة التي قطعها ماركو من مقعده إلى الباب، وهو يجرُّ رجله، طويلة وشاقّة للغاية. لقد رأى فيها سنوات من عمره ضيَّعها وفقد فيها سمعه. وكان آخر ما سمعه، ولعلَّه لم يسمعه لثقل سمعه، هو صفقة الباب حين أغلقه المسجِّل وراءهم.

- وماذا كان ردّ فعل الزعيم؟ سأل أجانق.

- استشاط غضبًا وأمر بأن يأتوا بمن استخدم اسمه في استنزاف الناس.

- ثمّ ماذا؟

- جيء بذلك الذي قال إنّ المدرسة ملك للسيدة.

- جبان، لماذا لم يذكر اسم السيدة؟

- قال إنّ السيدة في مصيف على المحيط الهادي.

- ثمّ ماذا؟

- إحداهنّ تطوّعت وذكرت الاسم، فساد المكان هدوء مرعب.

- وماذا كان ردّ فعل الزعيم؟

- أغمي عليه ولم يفق إلّا بعد أن صاح الناس هللويا ثلاث مرّات.

- ألم يمُت مرّةً أخرى ليريجنا معه؟

- إنّهُ مايزال حيًّا يُرزق، يا أجانق. يبدو أنّ لهذا الإنسان أرواحًا

تفوق أرواح القطّ السبع!

- ثمّ ماذا؟

اخترق النبيّ أنطوني وأتباعه الحشدَ ووضع يده فوق رأس الزعيم وأخذ يُصليّ لساعاتٍ إلى أن هبط الظلام وارتعش الزعيم كالمحموم، ثمّ اختفى وخاطبنا النبيّ قائلاً: إنّ الزعيم قد عقد العزم على الانتحار والعودة إلى قبره لأنّ الحياة أصبحت لا تُطاق. وعندما سأله الناس،

ونفوسهم مشحونة بالخيبة، أجاب النبيّ بأنّه سينتحر قريباً وأنّه سيبعثه من بين الأموات في اليوم الثالث.

دلفت المدينة في قتامة ظلّمة غير مسبوقه أفزعت الناس، لولا بعض الأضواء الخافتة المتلاثلة كنُجُيَّاتٍ مُعلّقات فوق أسقف البيوت، فانفضّوا، بعجلة، تاركين خلفهم كومة كبيرة من أكياس طعام وقنينات مياه فارغة ومناديل ورقية مبلولة بدموع الزعيم، وكلّهم أملٌ في رؤية ذاك الذي سيصلب نفسه لأنّه سئم الحياة مرّةً أخرى - كما وعد - ثمّ قيامته من بين الأموات على يد المبجل أنطوني نيّ كنيسة القيامة - كما أعلن النبيّ بلسانه - ليثبت للعالم أنّ زمن المعجزات لم يولّ بعد.

- هل تعتقد أنّه كان جاداً في الإعلان عن انتحاره ذاك؟ قاطعتُ نيمايا.

- لا أعلم، لكنّه كان يبدو شاحباً، مُستاءً كروح تتوق إلى قبرها، أجاب نيمايا.

- غريب هذا العالم!

- ماذا تعني؟

- القصّة التي حكيتها للتوّ، تبدو خياليّة. لا أعرف ماذا حدث لي، يا صديقي. لقد أصبحتُ أشكّ في كلّ شيء حولي: أشكّ في زنزانتني وفي نفسي وأسرتي وحتىّ في حديثي مع الزعيم عندما قام قبل سنوات، أصبحتُ أشكّ في أنّها لم تكن قصّة حقيقيّة. صرتُ أشكّ حتّى في أنّي تعرّفتُ إلى الزعيم في حياتي! لذلك أشكّ في ما

قصصته عليّ من عزمه على الانتحار. لا أعرف لماذا داهمني هذا الشعور، ولماذا صارت كلّ القصص التي نرويها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بأخي وصديقك أغسطينو. تخيّل يا نيمايا، كان أخي مثلك يحكي لي قصّة جديدة في كلّ ليلة ولا أعرف من أين كان يأتي بها. كنت أظنّ، أحياناً، أنّ في رأسه كتاباً كبيراً للحكايات يُخرج منه كلّ ليلة قصّة. تخيّل، يوم دهسته الشاحنة، ودُفِن وتلا القسّ صلاةً على روحه الطاهرة، كنت مختلط المشاعر، وأنا أبكي وأتصوّر أخي سيموت جوعاً داخل الصندوق الذي رمينا عليه الطين وغُطّي من بعده بالتراب. كنت حزيناَ لأنّه مات بمخزن القصص في رأسه الصغير. في تلك الليلة، جلستُ وحيداً وأنا أنظر إلى طبق العشاء ومقعد أخي وقد ظلّ خالياً، كأنّه ذهب ليغسل يده ثمّ يعود لنأكل معاً. الآن، اكتشفت كيف كان أخي يُحبُّ قصصه الشيّقة. منه تعلّمت بداية رواية كلّ قصّة ناجحة. تكمن الكلمة الأولى...

-وفي البدء كانت الكلمة، قاطعني نيمايا. ثمّ خرج، وأغلق باب الزنزانة برفق.

لم أدرك كم وقتاً مضى على آخر لقاء لي مع نياما الحكاء الذي جاءني اليوم مبكراً وادّعى أنّه لا يعرف ما حدث لي داخل المعتقل طيلة فترة غيابه، أو لعلّه لم يدّع وكان بالفعل لا يعرف.

«لا تثق بأمنيّ ولو كان توأمك»، تذكّرت تلك الجملة التي نطقها عم جادا في نهار صيف بعيدٍ عندما كنّا نحتسي القهوة على قارعة شارع فيس بوك في مقهى حقير.

بدا نياما مندهشاً عندما أعلمته بأنّ زملاءه من رجال الأمن أشبعوني، خلال الفترة التي اختفى فيها، عذاباً كائني لم أكن زميلاً لهم وكأني كنت أعمل في مؤسّسةٍ أخرى غير مؤسّستهم. لم يأبه نياما بما كنت أقول. فقد بدا عليه الإعياء الشديد المصاحب لتقدّم العمر ونحول مَنْ أرهقه التفكير في السنوات التي مضت دون إنجاز يُذكر. اقشعرّ بدني وأنا أتفرّس في وجهه عندما عدت بذاكرتي إلى الوراء، فقفزت صورته وهو شابٌّ في الثلاثين عندما زارني في المعتقل أوّل مرّة، وسلّمت بأني ربّما قضيت ربع قرنٍ في هذا المعتقل.

-جئت لأوفي بوعدِي يا صديقي العزيز، ستخرج اليوم لترى العالم، قال نياما.

-وماهي آخر الأخبار؟ سألته.

-عندما تعود، يا أجانق، سنحكي عن عبد المنعم الشيخ، وأشياء أخرى وبشرٍ آخرين.

يبدو أن العالم لم يتحرّك قيد أنملةٍ عندما خرجت في تلك الظهيرة على متن سيّارة نيمايا، وعلى مرأى من الجميع، غير مهرب. أين تُريد أن تذهب؟ سألني.

-إلى منزلي. أريد أن أرى زوجتي وأبنائي، قلت.

-إنّهم جميعًا في يوغندا يا صديقي، ليس لديك أهل هنا، قال، وحرّف نظره عني.

-خُذني إلى كنيسة القيامة إذن.

في كنيسة القيامة، تيقّنتُ من الشيء الذي أتيت من أجله، ولم أكن قد تأكّدت منه عندما حضرت صلوات معجزة القيامة قبل سنواتٍ حين هربني نيمايا.

وجدت الكنيسة مكتظةً بالمؤمنين. وعندما رأيته قلتُ في نفسي حتّى لو خلق الله مليون شبيهٍ له، فلن يكون هذا النبيّ الواقف هناك يعظ الناس إلّا العريف أنطوني بقاري فرانسيسكو الذي كان يُدخّن الحشيش بشراهة، ويستمتع وهو يجلس على الضريح والعاصمة غارقة في ليل مُعتم. كان هو العريف الذي قُتل في إحدى معارك حرب التحرير ودُفن، ثمّ بزغ كنجمةٍ مرّةً أخرى في سماء «غرب الاستوائية» جنديًا مغوارًا يخوض معركةً تلو أخرى.

حاولت هذه المرّة أن أقرب منه بيد أنّي خشيت أن يكون النبيّ قد عرف أنّ سلطات الأمن غيّرت اسمي، وقد يكون هو على علم بذلك ونسي اسمي القديم أجانق واني.

حدث كلّ شيء في غياب زيارات نياما، وقد عرفتُ لاحقا أنّه ضابط كبير في الأمن. عرفت ذلك حين زارني في المعتقل خمسة رجال أمن مفتولو العضلات وأخذوا يعلمونني، دون سابق إنذار، كلمة غريبة قالوا إنّها اسمي الجديد، وكانت شرطا تعجيزيا للإفراج عني. بذلتُ جهدا مضنيا في نطق تلك الكلمة التي عرفت لاحقا أنّها لاتينية مركّبة، خُلِقَتْ من عدم، صُعِبَتْ حتّى على عالم تسميات إيطاليّ، والكلمة هي: جيرالدوكوسانقانيتامو!

قضيت شهورا فاشلة في تهجية الاسم، فكان الخيار الذي جاء به رجال الأمن هو أن أكون أنا «جيرالدوكوسانقانيتامو»، ولا يهمّ نطق الاسم مادامت كتابته ممكنة!

كان هناك ميّت يصليّ عليه النبيّ أنطوني، رأيتُ الناس يُهلّلون كأنّه يوم الدينونة، ولم أعرف أكان الميت قد بُعث فعلا أم إنّ ما رأيته ليس سوى هلوسات واضطرابات نفسيّة ناتجة عن التعذيب أو عن فقدان الهوية. تسلّلت بين مؤمنين بدوا مخمورين بالروح القدس، ودنوت من النبيّ أنطوني فحدجني وتفحصني، فسألته عمّا إذا كان هو العريف أنطوني بقاري فرانسيسكو. وقبل أن يُجيبني، أدخلت يدي في جيب قميصي وأخرجت ورقة كتب عليها اسمي: جيرالدوكوسانقانيتامو.

هالني منظره وهو يُجهد ذاكرته بإغماض عينيه وتضييق ما بينهما، ويُتمتم بما يبدو آيات مقدّسة. كان المؤمنون يتفافزون

كالقروء وآيادهم مرفوعة في الهواء، فصرخ النبي بصوتٍ قويٍّ: الرقيب أجانق! أخذت الورقة المطوية من يده وفتحتها، فرأيتُ اسمي الجديد. تذكرتُ أنّي كنتُ أعرف شخصًا بهذا الاسم الذي نطقه النبي وقد كان يشبهني تمامًا، أو لعله كان توأمي الوحيد في الكون. إنّهُ شخص رأيتُهُ في حياتي أو ربّما داخل ذاتي، ولكنّه خرج ولم يعد، وأوصافه رماديّة باهتة: شخص قابلته في المعتقل بعد انتشار نبأ الزعيم، ولم أعلم هل مات تعذيبًا أم خرج من هناك بذاكرة علية لا تتحمّل معلومات إضافية ولا تتذكّر المعلومات السابقة! لم يكن عقلي يشعّ بأكثر من ومضاتٍ خافتة تجعلني أتذكّر صور أشياء ورفات أحداث تتوهّج ثم تغتمّ وتختفي نهائيًا، وأسماء متناثرة الحروف يقبض بعضها على بعض ويهرب بعضها الآخر كأنّها تحوِّك دسيّسة ضدّ ذاتها في صفحات قاموسٍ غير مختصر.

عندما نطق النبيّ أنطوني اسمي للمرّة الثانية، بعد أن ابتسر صلاته، شعرتُ بأنّ منطقةً ما في مؤخّرة رأسي تسطع وتدور في فراغٍ لانهائيّ، فراغ يركض في فضائه شخصٌ يشبهني يحاول أن يهرب من ذلك الاسم. تذكرتُ أنّي لست الرقيب أجانق وإنّما الرفيق أجانق القابع في مكان قصيّ من نفسي المحطّمة. وتذكرتُ، أيضًا، أنّي عندما كنتُ في المعتقل، في فترة غياب نيامي وانقطاع الزعيم عن زيارتي إذ كان في الخرطوم يوبّخ التاجر عبد المنعم الشيخ لظهوره في التلفزيون القوميّ وهو ينسب أشياء إلى الزعيم، مثل توحيد الدولتين، جاءني ضابط يبدو أنّه مسؤول التعذيب وأخرج شيئًا وأشهره في وجهي قائلاً: إن سمعناك تتحدّث عن الزعيم مرّةً أخرى، سأحشر هذا في المكان المناسب منك!

كان النبي واقفاً وأنا أتذكر ذلك الموقف، وفجأة ركضتُ، أنا جيرالدو كوسانقاني تامو واختفيت في أضاير ذاكرةٍ فقدت جزءاً كبيراً منها في المعتقل، تاركاً خلفي النبي فاغراً فاه دون أن ينبس بكلمة.

لم يتغير شارع طمبرة، وكذا شارع فيس بوك وإسفلته. وعندما رأيت باب منزلي تذكرت اسمي أجانق وفتحت الباب، دون أن أطرقه، لأدخل دار الرقيب أجانق الذي غادرته في اليوم الثاني من قيامة الزعيم قبل سنواتٍ لا أعلم عددها. رأيت امرأة جالسةً تُرضع طفلةً وثلاثة آخرين يلعبون بالطين بالقرب منها، ناديتها باسمها ليزا. أنا كارلا ابنة ليزا، أجابتنني. ابتسمتُ، فرمقنني بنظرةٍ مقية وهي تتفحصني من رأسي إلى أخمص قدمي. خرجت ليزا بشعرٍ أبيض منكوش، ولكنها ماتزال مُحْتَفَظَةً بجمالها وقوامها المشوق وسألتنني عما أريد، ثم أشاحت بوجهها عني دون أن تنتظر ردّي. حاولت أن ألطف أجواء المنزل القائمة بأن ناديتها باسمها كاملا، ولم يكن ثمّة أحد غيري يناديها به: إليزابيث، قلت، أنا أجانق واني زوجك الوفي! لعلّي نسيت اسمها، ولكن هل تكون هي قد نسيّت اسمي، أم أنّ السلطات أمرتها باستخدام ذلك الاسم الطويل كعربة القطار. ليزا، يا ليزا، همستُ بالصوت والإيقاع اللذين استخدمتهما في ليلة دُخَلتُنا قبل سنوات. هبّ رجل، لم أره في البداية، كان جالساً بعيداً على كرسيّ بلاستيك، ودون أيّ مقدمات صفع وجه جيرالدو كوسانقاني تامو. كانت صفقة جعلتني أنطق باسمي كاملا دون وعي: الرقيب أجانق واني زوج ليزا.

انطفأت عينايا لحظةً وفتحتها بعد لأيٍ، فعرفته بالزيّ نفسه الذي كان يرتديه في ليلة جلوسه على الضريح. حاولت أن أستفسره عما إذا

كان قد بُعثَ إلى الحياة ليرسلني إلى السجن ويظفر هو بجميلتي ليزا، فتعثر لساني بين أسناني وصعدت رائحة الدم إلى مخي. كانت الأرض قد توقفت عن الدوران حينما هبطت على وجهي صفة عيفة كأني ضُربتُ بجذع شجرة، لحقتها لكمّة في فكّي الأسفل. وعندما خلع قميصه، تأكّدت أنّه الزعيم نفسه. كانت كارلا جالسة تنظر إليّ بشفقة، والدموع تترقرق في عينيها وعيون أبنائها، والزعيم يحبرني ويرمي بي خارج المنزل.

أخذت ما يشبه القيلولة راقداً في الجدول القريب من بار أبراهام الأثيوبي وأنا أسمع أصوات ثلاثة أشخاص يتحدثون.

- هذا الراقد هناك في الجدول، يقول إنه أجانق زوج ليزا، قال. فعرفت أنّه أبراهام بصوته الرنيم.

- هذا غبي! ألم يعلم أنّ أجانق قد مات في السجن قبل سنوات، قالت بصوت خرج ببطء شديد، ففكرت في أنّه صوت ساندراس.

- ما أعلمه، أنّ أجانق لم يمّت ولكنّ الحكومة غيّرت اسمه إلى جيرالدو - كوسانقانيتامو، قال صوت أجشّ.

- هذا الاسم يشبه أسماء الزهرات المزيّفة التي تستوردها من الصين، يا جادا، قال صوت رنيم فأدركت أنّ من استطاع أن ينطق اسمي هو بائع الورود عم جادا.

ثمّ مضوا جميعاً.

كانت القيلولة التي ظفرت بها عند الجدول جميلةً ولذيذةً كوجبة شهية بعد ساعاتٍ من الجوع. شعرتُ بذاكرتي تنشط وتوقظ تفاصيل

حياتي فتمرّ أمامي تتخلّلها موسيقى أثويّة آتية من جهة حانة أبراهام؛
وتفاصيل متشعّبة ودقيقة مثل: قيامة الزعيم وحديثه معي في تلك الليلة؛
احتسائي الخمر مع سانتينو؛ تدخينه الحشيش مع العريف أنطوني بعد
أن يعود من بيوت دعارة كاستوم وهو يغني مغتبطاً؛ ليلة دُخلتي مع
ليزا التي أقسمتُ فيها بالألّا يُفرّقنا إلّا الموت؛ تعذيب المعتقل والمعارك
التي شاركت فيها؛ أخي الميت أغسطينو وصديقه نيايا وذهابنا إلى
المدرسة كلّ صباح والحكايات التي كان يؤلّفها؛ أبنائي إيمانويل وكارلا
وجيمس وهم يرمقونني بحنوّ وشفقة. ثمّ جاءني الزعيم مرّةً أخرى
يبكي، حزيناً وقد أوماً إليّ برأسه كي أتبعه إلى بحر الجبل فمضيت
وراءه حتّى أجهدني التعب فخلدت إلى النوم وأنا أسمع مارّة يقتربون
منيّ. فتّشوا جيوبي وخلعوا قميصي ووضعوه في كيس، ثمّ بصقوا عليّ
وشتمونني بأقذع الكلمات، ومضوا وأحدهم يقول: هذا سكيرٌ مُعَدَم.

شعرتُ بنسيم بارد يلفح جسدي النحيل، وأشعّة شمس دافئة
تنسلّ بين أوراق أشجار النيم وتنزل على وجهي. رفعتُ رأسي فرأيت
مياه بحر الجبل تتراقص بهدوء كالسراب. وكنت أنا الرقيب أجانق واني
أو جيرالدوكوسانقانيتامو ما أزال مستلقياً هنا على الشاطئ لا أعرف
كم ساعة أو يوماً نمُتُ، والذباب يتهافت على زبدٍ باهر البياض تراكم
في أركان فمي، ليس لأنّي فقدتُ الذاكرة مرّةً أخرى كما فقدتها مرّاتٍ
عديدة، بل لأنّي، ببساطة، حينما جاء العسكر ولفّوا جسدي الهزيل
بعَلَمِ الدولة، وعزفوا النشيد العسكريّ ثمّ النشيد الوطنيّ، وأطلقوا
عشر طلقات رصاص في الهواء، وارتجّت صدور النسوة في حيّ «أطلع
برّه» بنشيج عالٍ، وأغلقت ساندرا راكوبة مقهى شايبا، وطرّد أبراهام

السكاري من باره وأوصده بخشب تيك ضخّم، ونثر عم جادا أزاهير
الموت البيضاء في شارع فيس بوك وعلى طول شارع طمبرة، كانت
روحي قد فاضت إلى بارئها، صاعدة إلى مكانٍ ما في الكون الفسيح.

يبدو أنّ كلّ خليةٍ في جسدي كانت تنبض بألمٍ رهيب عندما استيقظت في غرفةٍ مُعتمةٍ إلّا من شمعةٍ كانت شعلتها تتمايل ببطء ذكّرتني بلهب الشمعدانات الكبيرة خلف مسبح كاتدرائيةٍ واو في أعياد ميلاد ابن يوسف النجار. بجانب السرير الوحيد الذي كنت مستقلقيًا عليه، كانت هناك طاولة شاي صغيرة وُضع عليها كتاب ضخّم بلا غلاف. ملأت أنفي رائحةً ثقيلة، فقلت لا بدّ أنّ الجدران قد طُليت حديثًا. كانت هناك حقيبة ملابس متوسطة الحجم متّكئة خلف الباب بإهمال، وفوقها وُضعت ملابس يبدو أنّها مغسولة حديثًا. تناهى إلى أذني صراخ أطفال وغناء سرعان ما توارى. حاولتُ أن أشغل عقلي بعدم التفكير في الألم المبرّح الذي يسري كتيّار ماء ساخن بين ضلوعي، فتناولت بروازًا في داخله صورة بالأبيض والأسود يبدو أنّها تعود إلى سنواتٍ عديدة. ثلاثة صبيان، أطولهم حلّ أزرار قميصه وعقد نهايته واضعًا يديه على خصره وهو ينظر بتحدٍّ صبيانيٍّ إلى الكاميرا. كان ذلك هو نيايا قبل أن يصبح حكّاء. كنت أنا أقصرهم، أقف في الوسط برداءٍ قصيرٍ وقميصٍ مخطّط، وعلى يميني وقف أخي أغسطينو وعلى ثغره الابتسامة التي لم تفارق وجهه آنذاك إلّا مرتين، حين كان يخلد إلى النوم وفي ذلك الصباح الذي دهسته شاحنة الموت فهاتت معه ابتسامته.

سمعت نياميا يتحدث مع امرأة في الخارج، واخترقت أنفى رائحة طعام شهية تلوّت لها أمعائي.

لا أتذكر المرّة الأخيرة التي عضّت فيها أسناني لحمّة لذيذة كهذه! فالأكل الوحيد الذي حفظته عن ظهر قلب، منذ دخولي المعتقل، كان وجبة الفاصوليا المسّماة «جنجارو» أو عدسًا أصفر مليئًا بالحصى. ربّما أدرك نياميا ذلك، فجاءني بحساء ساخن تتوسّطه قطعة لحم صافية التهمتها بسرعة. كانا ألدّ لحميّة وألدّ حساءٍ تذوّقتهما في حياتي، فطلبت المزيد وأنا أتصبّب عرقًا.

الآن، شعرتُ بأنّ لديّ طاقة فنهضت وجلست على طرف السرير فاتّسع فم نياميا عن ابتسامة غبطة، وهو يرفع إبهامه رضاء. حاولت أن أبتسم في وجهه فشعرت بوخزة إبرة بين فكّيّ، فاكتفيت بهزّ رأسي.

-أين أنا، وماذا حدث لي يا نياميا؟

-أنت في مكان آمن. هذه غرفتي التي لا يعرفها إلاّ الله والسيدة التي تخدمني، أجنبي نياميا.

-وماذا حدث لي؟

- لقد كذبتُ عندما قلتُ لك إنّ أسرتك في يوغندا كي لا تذهب إلى منزلك وتواجه المتاعب، يا أجانق.

-وماذا حدث لأسرتي، لماذا أنكرتني ليزا؟ وماذا يفعل الزعيم هناك؟ سألتُ بغضب.

-ليس دخول السجن في هذه البلاد مثل الخروج منه. أشياء كثيرة تتغيّر في غيابنا، لا نعرفها إلاّ عندما نخرج ونراها بأعيننا.

-كن واضحًا، يا نياميا.

-أنت تعرف أكثر منّي يا أجانق!

-أعرف ماذا؟

-تعرف أنّك لم تعد أجانق الشاهد الوحيد على قيامة الزعيم.

-هذا أفضل لي، بعد أن جلبت لي شهادتي سنوات من السجن والمتاعب.

-واسمك لم يعد أجانق واني، أيضًا.

-وما علاقة أسرتي بذلك، يا نياميا؟

-هي لم تعد أسرتك، بل أسرة أجانق الذي مات في السجن بحسب شهادة الوفاة الصادرة عن الدولة.

تطلّعتُ في وجه نياميا ورأيت عينيه تدوران في محجريهما كعيني
سَنجاب جائع. قلت له إن كانت الدولة تنكرني فأنت تعرفني جيّدًا
منذ نعومة أظفاري. كنت أعرف أنّه مجرد صامولة في ترس كبير يسمّى
حكومة، وهي بدورها تدور في عجلة ضخمة تُسمّى دولة، وتُسيّرُها
عصابة من المعتوهين. ألفيتني في حيرة من أمري وأدركت أنّ هناك مؤامرة
حيكت ضديّ بإرغام زوجتي ليزا على التوقيع على شهادة استلام جثّتي،
وأنّ زملائي لقّوا جثمانِي بعلم الوطن وعزفوا النشيد الوطني وأطلقوا
عشر الطلقات في الهواء ثمّ واروني الثرى. وتعهّدت ليزا بأنّها لن تأتي
بسيرتي على لسانها حتّى وإن غربت الشمس في المشرق. وكان على الزعيم
- الدّجال الذي جاءت به الحكومة - أن يتزوّجها وتعهّد هو بالألّا يُزعج

العالم بقياماته المزيّقة، فصدّقه الناس وانتهى أمر القيامة. مات أمر الزعيم وخسرتُ أنا، أجانق، كلّ شيء.

قال لي نياما إنّ ما يُقلق الحكومة ولا يجعلها تُصدّق أكذوبتها المختلقة بتزويج الزعيم الدجال من ليزا، هو أن يُصدّق المعوزون أنّ الهدف الأوّل والأخير للزعيم من فقدانه حياة البشر هو عدم تصديق سيّد البلاد الأوّل الذي تواترت زيارته له بصورة شبه يوميّة، بشهادة السيّدة الأولى والحراس الذين كانوا يرونه يجلس مع رئيس البلاد، ويمطره توبيخاً بينما يظلّ الآخر صامتاً، كتلميذ غبيّ.

-هل يعني ذلك أنّ الزعيم سيظهر مرّة أخرى؟، سألتُ نياما.

-يعلم الله.

تذكّرتُ آخر زيارات الزعيم لي في المعتقل بعد خصومته مع الزعيم الآخر، وفيها أخبرني بأنّه قد يزور السودان للاطمئنان على بعض الأمور التي تركها مُعلّقة. لم أقل لنياما إنّّه كان مُنزعجاً من عبد المنعم الشيخ لأنّه كذب باسمه، خشية أن يظنّ أنّي مازلت على اتّصال به. بيد أنّي اقترحت عليه أن يتّصل بعبد المنعم الشيخ في الخرطوم، فقد تكون لديه معلومات عن الزعيم، فأوما نياما بالإيجاب.

أدخل يده في حقيبة جلدٍ صغيرة، وأخرج جهاز تسجيل بحجم راحة اليد، وتناول شريط تسجيل نفخ عنه الغبار ورفعته نحو الشمعة المشتعلة ببطء ليتأكّد من أنّه سينطلق من البداية، ثمّ وضعه داخل الجهاز وقال: اتصلت بعبد المنعم الشيخ قبل فترة، واستشرته في موضوع كتابنا فتحمسّ قائلاً إنّّه لا بدّ من توثيق هذا الحدث التاريخيّ، قيامة الزعيم.

تناولت قنينة ماء وأخذت أمتص ماءها بمتعة غريبة حين بدأ صوت التاجر عبد المنعم الشيخ، الهارب من النار إلى الجحيم، ينساب بحيوية بالغة ذكرتني بصوت مذياع البي بي سي أيوب صديق الذي كان ينبعث كل صباح من مذياع والدي، قبل عشرات السنين:

-أيقظني صوت مؤذن صلاة الفجر فطلت مستلقياً على السرير أتقصي أمراً في الظلام بذهنٍ مبعثر. تقلبت على جانبي الأيمن وسمعت خشخشة ورقة فأدركت أنني نمت على الظرف الذي ظل مغلقاً منذ أن استلمته من عباس كرشة يوم أمس. غمغم البغاء الماليزي فأسكتته صوت عباس الذي بدأ صلواته الفجرية. نهضت، وأشعلت مصباح الغرفة، وجلست على كرسيّ بالقرب من الباب أتأمل الأشياء..

كان الماء بارداً لم تشعر به نفسي الغارقة في تفاصيل يوم تمنت أن يكون مخالفاً لحلمي المقلق. خرجت من الحمام فصنعني أشعة شمس قوية عبر نافذة كانت الخادمة قد فتحتها ونظفت الغرفة وجاءت بقهوة الصباح التي تردّ عقل المجنون، كما كان عم جادا بائع الزهور يقول. لقد افتقدته كثيراً، وكذلك كل مجانين شارع طمبرة وفيس بوك، ولا سيما الأثيوبي أبراهام الذي يحب المال أكثر من والديه وأكثر من نفسه. كان عباس كرشة جالساً على الكرسيّ القريب من الباب فألقيت عليه تحية الصباح لكنه لم يعبأ بي. فتحت التلفاز وتناولت الظرف وفتحته فانفجرت أسارير عباس وهو يمسح يداً بيده. كانت عشر حزم من الدولار الأمريكي يبدو أن

يدي هي الثانية التي تمسها في العالم، وإن وُجد شخص آخر، فلعلّه الرقاص.

رمقت الأوراق النقدية بنظرة حادة، بينما كان عباس يُداعب لحيته الطويلة. أعدتها إلى مكانها، ثم شعرت بدوخة فرأيت عباس جالساً يضحك مع الرئيس وأعوانه. صمتوا وأخذوا يهمسون عندما رأوني قادماً نحوهم متأبطاً الظرف الكاكي. وقفتُ وسطهم فاشترأبوا بأعناقهم نحوي من تحت عمام كبيرة بيضاء. فتحتُ الظرف ببطء وأنا أبتسم. كان دخان السجائر يتصاعد على مهل في سماء الغرفة كأنه يدور حول نفسه هناك منذ قرون عديدة. تحولت أسناني المبتسمة إلى أنياب مصاص دماء فتراجع الجميع إلى مقاعدهم إلا عباس، فقد ظلَّ يُلطّف الجوّ بابتسامة غبشاء. ودون سابق إنذار، رأى الجميع يدي تدخل الظرف وتقبض على الأوراق النقدية، فتمزّقها وترمى فوق رؤوسهم جميعاً، وأنا أصرخ في وجوههم المذهولة. كانت صرخاتي عالية، فأخذ الببغاء ينعق كالبوم. رأيت عباس كُرشة واقفاً أمامي، محتاراً وهو ينظر إلى الدولارات الممزقة المتطايرة في الهواء.

-أتبيعني بثمانٍ بخسٍ يا عباس؟ أتبيعني؟ صرختُ.

تجمّد عباس في مكانه وعيناه تتابعان، بحزنٍ، أوراق الدولار الواقعة على الكرسيّ والسرير والأرض، ثم خرج من الغرفة محتقن الوجه، لم ينبس بحرفٍ، فارتيمتُ على السرير بقوةٍ وشهقتُ طويلاً مخرجاً من رئتيّ هواءً ثقيلاً مسموماً كان يؤلم صدري. الآن فقط،

تذكرت ما قالته لي رزاز وهي تدس في يدي ورقة صغيرة كتبت عليها رقم هاتفها: هؤلاء أوغاد، فاحذر أن تتعامل معهم! تناولت الهاتف واتصلت برزاز فردت من أول رنة. كان صوتها رقيقاً ناعساً، عكس ما كان عليه يوم أمس.

- هؤلاء أرادوا شرائي يا رزاز.

- قلت لك إنيهم أوغاد يا عبد المنعم، ردت، ثم غمغت قائلة: منذ أن رأيتك يوم أمس عرفت أنك إنسان شريف.

- لا أحد يستطيع شرائي يا رزاز.

- هؤلاء جعلوا إبليس يغادر البلاد مشياً على الأقدام، يا عبد المنعم.

- ماذا تقصدين؟

- أفلسوه ولم يكن معه ثمن التذكرة ليغادر البلاد.

- أي لغز هذا يا رزاز؟

- أريد أن أراك مساء اليوم يا عبد المنعم.

- بالتأكيد. أين؟

كان العنوان الذي أعطتني إياه غير عنوان يوم أمس. توقف بي التاكسي عند الساعة السابعة مساءً في 3 شارع الطيب صالح، فيلا السيدة رزاز حسن جار النبي. كانت أنوار حديقة الفيلا الأمامية خافتة كأنها ثمار معلقة في الأشجار الكثيفة. انفتح لي باب الفيلا، ورحب بي صوت أجش عبر ميكروفون صغير ملصق بجانبه.

فتقدّمتُ ومشيتُ ما يناهز الأربعين خطوةً، فطالعني الصوتُ
وجّهًا لوجه. مدّ لي يده وصافحته وتبعته دون أن ينطق بحرفٍ.
على جوانب الممشى، كانت هنالك تماثيل لأطفال عراة تغطّيهم
أجنحة كبيرة يعزف كلّ منهم على آلة موسيقيّة يحملها على كتفه.
تمثال آخر لرجل يرتدي زياً عسكرياً برتبة عميد ركن كان واقفاً
في وضع الانتباه، بوجه متجهّم، مُنقبض. فقال لي الرجل دون أن
يلتفت إليّ: السيّد حسن جار النبيّ.

قطعنا الحديقة وصعدنا الدرج إلى باب الفيلا المصنوع من خشب
المهوقني المطليّ باللّماع، فقال الرجل كأنّه قرأ أفكاري: لا نستعمل
الكيميائيّات في تلميعه، فقط الشاي البارد لأنّه يحتوي على أوكسيد
الكربون. انفتح الباب تلقائيّاً ووقف الرجل على الجانب منحنيّاً
ويده تشير إليّ بأن أدخل، فدخلت.

وجدتني أمشي وسط صالةٍ مُضاءةٍ بأنوار حمراء خافتة، على
سجّادة إيرانيّة ناعمة متعدّدة الألوان. وعلى أطراف الممشى، تقف
ستّة أعمدة رخاميّة طويلة في نهاياتها العليا رؤوس أسود تنظر إلى
الأرض بشراسة. وحين كنت أصعد، سمعت صوت رزاز فرأيتها
واقفة في الدور الأوّل عند نهاية السّلم. كانت يدها أكثر ليونة حين
صافحتني وتبعته في ممرّ ضيق تفوح من جنباته، أو ربّما من فستانها
اللّماع الملتصق بجسدها، رائحة صندل قويّة هيّجت مشاعري.

كانت الفيلا صامتةً حين دلفنا إلى صالة في نصف حجم الأولى
تفتح عليها ستّة أبواب يبدو أنّها لُغِرف. فتحت رزاز باب إحداها
وأومأت إليّ بأن أتفضّل فدخلتها ومضت هي، تاركة الباب

مواربًا. تحسست هاتفي وفكرت في أن أتصل بعباس لكنني عدلت عن الفكرة، وطفقت أنظر إلى اللوحات المنحوتة على جدران الغرفة: فتاة عارية تغطي وسطها بخرقه قصيرة ضاغطة؛ جدارية لامرأة تخرج من لهيب نار كبير سلخ جلدها، وتحت اللوحة كتب بخط كوفي: فتاة النار؛ صورة أخرى لرجل أسمر نحيف يعتمر قبة عسكرية صغيرة ويمتطي حصانًا عربيًا ينظر باحتقار إلى ضابط إنجليزي. فقالت رزاز التي لم أشعر بعودتها: أعجبتك هذه اللوحة؟ إنها للبطل علي عبد اللطيف.

وضعت رزاز كأسني نبذ على الطاولة وحملت واحدة قربتها من فمي. ترددت، فقالت: أنا لست وغداً مثلهم. ثم تنهدت عميقاً، وتناولت الكأس من يدها فقالت:

-قتلوا أبي في تلك الحرب القذرة باسم الجهاد انتقاماً منه. لقد حكّت لي جدتي ذلك. لم أر والدي إلا في صورة أخي لؤي الذي قالت جدتي إنه شديد الشبه به. قضى والدي خمس سنوات في حرب الجنوب وعندما عاد بُعث به مرة أخرى لأن والدتي سعاد رفضت أن تتزوج من ابن عمها الذي صار وزيراً للدفاع آنذاك. لم تشفع توسلات والدتي على الرغم من أنها طرقت كل أبواب الدولة كي لا يذهب والدي. كان عقيداً حين ذهب وتمت ترقيته وهو في الغابة وقتل ودُفن أو ربما أكلته الضباع، وقيل إنه استشهد والشهيد لا يُبكي! ثم أُلغيت الفتوى بعد ذلك وقيل: كل من استشهد هناك فهو جيفة. ألم أقل لك إنهم أوغاد...

سكبت الكأس الثالثة في جوفي وأنا أرى علي عبد اللطيف على الجدران يستشيط غضباً في وجه الضابط الإنجليزي المذعور. كانت رواية رزاز لقصة عائلتها شائعة ومثيرة وهي تحكيها بصوت عالٍ كأنها تتحدث مع شخص بعيد ثم تخفضه وعيناها تجحطان عندما يكون المشهد مخيفاً ومؤثراً. كانت الزجاجة الثالثة - وهي تختم قصة موت والدها الذي قتله شابٌ جنوبي - تحتوي على آخر كأس فشربتها وصمتت. كان الضوء أكثر خفوتاً حينما نهضت رزاز من الكرسي المقابل وعيناها تترقرقان بالدموع وجلست بالقرب مني، ثم اتكأت على كتفي. كنت حائراً وأنا أنظر إليها وهي تبكي ورائحة النبيذ تبسط سلطانها على أجواء الغرفة. هدأ بكاؤها وكانت أنفاسها بطيئة هادئة وهي تخرج من أنفها، وقد أحسست بها ساخنة على صدري. ثم زحفت أصابع نحيلة ورقيقة حشياً إلى عضوي واختفت هناك.

كان الجو بارداً حين سمعتُ صوته فوق رأسي ففتحت عيني ورأيت ضوء لمبة النيون آتياً من الحديقة. كنت راقداً وحيداً على سريرٍ وثيرٍ ومغطى ببطانيةٍ بنفسجيةٍ ناعمة.

-انهض يا زفت!، أمرني الواقف فوق رأسي.

كان يرتدي فنيلة تظهر عضلات صدرٍ بارزة وذراعين ضخمين كأنهما كتلتان حجرّيتان. مدّ يده وقبض على عنقي ورفعني إلى مستوى وجهه فبدا سروالي الأبيض الكبير كحفاظة كبيرة الحجم. من فوق كتفه مسحت الغرفة بعيني فلم أر رزاز. كانت الستائر

الحمراء المحيطة بكل مكان ممزقة. هبطت لكمّة عنيفة بقبضة يده اليسرى على أضلعي فسمعت صوتًا شبيهًا بقطعة الأصابع، ووقعت على الأرض. كان الحذاء الذي يرتديه مثل دبابة وأنا أراه آتيا إلى فمي ويدهس أسناني الأمامية. دار رأسي حول نفسه وما إن ثبتته حتى أنزل عليه ركلة قويّة فشمنت رائحة الدم. يبدو أنّ هذا الوحش لا يسمع صراخي الذي ملأ الكون فكان يُنزل عليّ ضرباتٍ أشدّ قوّة من ذي قبل، على بطني ورأسي وظهري وكلّ أنحاء جسدي وهو يقول: ترفض التعامل معنا وتمارس معها في الوقت نفسه؟ لم أعد أشعر بأيّ ألم رغم ضرباته التي أبت أن تتوقّف لأكثر من عشر دقائق. بصقتُ على الأرض فسمعتُ صوتَ شيءٍ يتدحرج على البلاط البارد، كانت تلك أسناني الأمامية مُلَطّخة بالدم.

لم أدرك بعدها ما حدث لي.

استيقظتُ على نغمة تنبيه ففتحت عينيّ بعسر ورأيتُ جهاز كمبيوتر صغيرًا موضوعًا على حمال واقف بالقرب من سريري موصل بأنبوب رفيع ينتهي بإبرةٍ مغروسة في رسغي. كنت نائمًا على ظهري وشعرت بألم حادّ في نهاية العمود الفقريّ، حاولتُ أن أتقلب قليلًا فأمرتني سيّدةٌ بدينة ترتدي بالطو أبيض وقالت: لا تفعل. فضلوّك كلّها مكسورة، يبدو أنّ عجلات قطار ما فرمتك يا سيّدي. وكان وجهها قبيحًا متجّهما.

-ماذا حدث لي؟ سألتها.

-ربّما دهستك سفينة، لا أعلم!

- أنا لا أُمزح يا سيّدي.

- وهل تراني أُمزح معك؟

- هل ضلوعي كلّها مُكسّرة؟

- ضلوعك؟ قالت باستغراب، السؤال الأصحّ هو: أيّ عظم من عظامك لم يتكسّر بعد؟ أنا لا أعرف كيف ماتزال حيًّا إلى الآن! قالت بصفاقة.

- آسف إن أزعجتكِ بأسئلتِي الكثيرة.

- لا داعي للأسف. نحن نجيب الجميع هنا، حتّى الأموات!

- منذ متى جيء بي إلى هنا؟

- منذ أن ماتت، بالصّدمة، الممرّضة التي خُصّصت للاعتناء بك عندما شاهدتك. قبل أسبوعين تقريبًا، قالت ساخرة.

خرجت الممرّضة ودخل عبّاس كئيّبًا، شاحب الوجه، وقف فوق رأسي ومدّ يده مصافحًا وبالأخرى مسح دمعة يتيمة تدرجت على وجنته. صافحته وأشحت بنظري عنه فسألني أين كنت وماذا حدث؟ من الصعب أن يدرك المرء ساعة مغادرته هذه الدنيا، ولكنّه إن كان محظوظًا وعرف ذلك، فيجب ألاّ يتحدّث إلّا بالحقّيقة. تذكّرت قول والدي فأجبت عبّاس: كنت مع رزاز. رفع عبّاس حاجبيه وقال:

- رزاز سافرت في اليوم الذي قابلتها فيه أنت وقابلت الرئيس في منزل كرتون كسلا.

-هذا ليس وقتًا للمزاح، يا عباس.

-وأنا من أوصّلها إلى المطار بسيّارتي يا عبد المنعم، قال، ثمّ سألني:
وأين قابلتها؟

-في منزلها في حيّ المنشية 3 شارع الطيّب صالح.

-يا سيّدي، رزاز منذ أن عرفتّها لم تُغادر حيّ الموردة في أمدرمان.
-أنت جادّ يا عباس؟

رمقني بنظرةٍ مريبةٍ كأنّها تقول إنّك سكّيرٌ مأفونٌ وكذاب. شعور
غريب انتابني ونحن في السيّارة ذاهبين إلى المنزل. كانت الآلام
المبرحة التي أشعر بها أقلّ وطأة من مجرّد التفكير في سفر رزاز إلى
دبي رغم أنّي قابلتها في اليوم الثاني في الفيلا 3 ونمت بجانبها.

في غرفتي كانت هناك صحف كثيرة موضوعة على الطاولة
تحت لمبة القراءة. استلقيت على السرير وأخذت صحيفةً واحدة
وصدمتني الصفحة الأولى بعنوانها العريض باللون الأحمر:
«عبد المنعم الشيخ في حوار شامل عن حوارهِ مع الزعيم».

كان الحوار على صفحتي 9 و10 تتوسّطه صورة كبيرة لي لم أتذكّر
أين التّقطت لي ومتى.

كانت هنالك أكثر من عشرة أسئلة مكوّنة من جملٍ قصيرةٍ مثل: أين
قابلت الزعيم؟ ماهي تنبؤاته الاقتصادية والسياسية؟ هل سيأتي
بالكُنفدرالية؟ لمن الصورة الصغيرة الأخرى الموضوعة في أركان
الصفحات الأربع؟ ظهرتُ بمظهر الخبير الذي يتحدّث برفع يديه

وفتح عينيه ليُظهر الثقة الكبيرة في نفسه. للوهلة الأولى، صدّقتُ أنني أنا الذي كنت أُرَدّ على الأسئلة لتتطابق مع الصورة، خاصّةً عندما مضيتُ إلى الحّمّام ووقفت أمام المرأة، حاملاً الصحيفة في يدي وأنا أنظر إلى وجهي لأقارنه بالصورة التي في الجريدة. كنت فعلاً في الصحيفة ولكنني لم أكن ذاك الذي أجرى الحوار. عدتُ إلى الغرفة. أُلقيتُ الصحيفة، وتصفّحت أخرى كانت تحتوي على حوار عنوانه: «حوار توحيد الدولتين». قال لي عبّاس، لاحقاً، إنّ هذا الحوار هو أقوى ما نُشر في الدولتين منذ موت الزعيم وقيامته، وقد تعهّد الزعيم بأنّه سيعمل جاهداً على أن يكون التعاون بين الدولتين قوياً. وإذا اقتضى الأمر فإنّه لا بدّ من تطبيق الكنفدرالية. بالأمس خرجت مظاهرات في الخرطوم تطالب دولة الجنوب بأن توقف بحثها عن الزعيم وألاًّ تطارده، قال عبّاس كرشة. وقال أيضاً إنّ الدولتين عبارة عن عضمة ولحمة إن انفصلت إحداهما عن الأخرى تضرّرت كليهما.

كلّ الجرائد كانت تحمل صورتي، وكنت أتحدّث فيها.

جاء عبّاس كرشة وابتسامة عريضة تُزيّن وجهه الذي بدأت خلاياه تنكمش رغم تمسيده بسائل البيض كلّ ليلة، وفتح التلفاز وجلس. كنت أنا هنالك جالساً أمام مذيعة ترتدي ثوباً أسود شفافاً مزركشاً بأزهار ذهبية كبيرة. كنتُ أرتدي بذلة زرقاء وقميصاً ناصع البياض وربطة عنق حمراء مرقّطة بدوائر بيضاء. أغلقت فمي بكفّي كي لا تخرج ضحكتي فيسمعني عبّاس الجالس يصغي إلى الحوار بانتباهٍ شديد، كأنّ الجالس داخل تلك الشاشة البلورية

هو بالفعل أنا. المذهل هو أنّ ذاك التاجر عبد المنعم الشيخ كان يتحدث بتفاصيل دقيقة عن الرقيب أجانق المعتقل هناك لأنّه أوّل من تحدّث مع الزعيم على وجه البسيطة بعد قيامته مباشرةً.

معرفتي بأجانق واني قديمة قدم الضريح الذي كان عبارة عن فسحة كبيرة تسرح فيها الأغنام والأبقار بحريّة كأنّها مرعى يتوسّطها قبرٌ يتيّم وسط الأعشاب. كنّا، في تلك الأيام، جالسين أنا وأجانق وسانتينو وأنطوني وأبراهام الأثيوبيّ عندما كان يعمل سائقًا في تنكر مياه، وقبل أن يصبح، بمعجزةٍ ما، صاحب بار وعيادة. كان أجانق، عندما يلعب الخمر بعقله، يتحدث عن أحلام غريبة يحكيها لي بصوتٍ هامسٍ كي لا يسمعه سانتينو وأنطوني اللّذين لا يسمعان شيئًا إلّا نسباه إلى نفسيهما. كان جادا بائع الزهور يجلس بعيدًا لحساسيّته المفرطة إزاء رائحة الخمر النفاذة؛ ودائمًا ما يعلّق بقوله إنّ معاناة أجانق هذا شبيهة بمعاناة الأنبياء في العهد القديم. وهل معاناتهم تختلف عن معاناة أنبياء العهد الجديد؟ كان أنطوني يتشكّك في كلامه. لذا، فعندما سمعت بقيامة الزعيم وذهب الناس إلى الضريح، كنت في دكاني بسوق جوبا وكلّي ثقة في أنّني سأقابله عاجلاً أم آجلاً. كنت أدرك أنّ بيننا تقاطعات سياسيّة مهمّة وأنّ اللقاء الذي سيتمّ بيننا سيكون لمصلحة البلدين، كما أكّد هو ذلك عندما التقينا ذات اليوم.

-وهل أكّد كلّ ما قرأناه في حواراتك؟ قاطعتني المديعة.

لاحظت أنّه، لولا وجهها الجميل وثوبها المزركش والحناء السوداء المنقوشة على يديها، لما كان لها أن تصير مديعةً وهي بهذا الصوت الخشن.

-على كل شيء!، أكدت.

-وماذا قال للذين يتظاهرون هنا ضدّ ارتفاع أسعار الخبز؟

-تمامًا كما قال عيسى -عليه السلام- : ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان.

ابتسمت المديعة وتناولت ماءً لأبلّل حلقي وقد جفّ فجأة عندما نطقتُ باسم عيسى -عليه السلام- وكانت هي تقلّب أوراقها فأضفت:

-قال بإمكانه إجراء استفتاء لتقرير مصير جديد.

-وهل يمكن أن يؤدّي ذلك إلى...

-بالطبع، قاطعتها دون أن أعرف سؤالها، وقد أكد رئيسنا أنّه سيحترم رأي الشعب مهما يكن، أضفت.

صفّق عباس كرشة مؤيدًا كلامي فنظرت إليه متأملًا. كانت أسنانه قد بدأت تَسودّ كمن يستاك بالنيكوتين كلّ صباح. وعيناه تُصدّقان أنّ الذي يتحدث هو أنا. هذا أجمل خبر، قال عباس، معنى ذلك أنّ الحرب ستتوقّف وستعود المعارضة إلى حرم الوطن. لقد وافقت الحكومة، يا عبد المنعم، على كلّ الصيغ التي طرحها الزعيم.

انتهت الحلقة وأزفت مواعيد الأخبار التي أصبحت أخبار الجنوب تُقدّم فيها على كلّ الأخبار العالميّة.

-ستبقى حكومتنا في سدة الحكم قرناً كاملاً عندما تتحالف مع الزعيم مرّة أخرى، هذا الشعب مهووس بالزعيم! ختم عباس.

-وهل تؤمنون بقيامة الأموات يا مؤمنين؟ سألته.

-لا نؤمن، ولكننا سنفعل طالما أنّ القيامة، وفقاً لفقه الضرورة،
رخصة شرعية للبقاء في السلطة!

-وماذا تريدون من الزعيم؟

-كلّ ما ذكرته في حواراتك يخدمنا، لا نريد أكثر من ذلك.

كان الحوار جميلاً وشيقاً وتمنيت لو أنّي كنت المحاور فعلاً. شعرتُ بضيقٍ في مثائتي وسمعتُ تحرّك السائل فيها، فحاولت أن أقف لكنني لم أتمكن. كنت جالساً على كرسيّ متحرّك والآلام تنتشر في جسدي انتشار حُمى المَلاريا. كيف مضيت إلى الحُمام لأقارن وجهي بالصورة التي في الجريدة؟ أدركتُ أنّي كنت هناك بخيالي وحده. رُكبتك اليسرى مكسورة وعظم الساق في الرجل اليمنى مهشّم وثلاثة ضلوع أيضاً، والفكّ الأسفل مثبّت بأسلاك، تتمم عبّاس برعشة بكاء في صوته، وخرج مُطأطأ الرأس.

تأمّلت جسدي لحظةً: عنقي مُحاطٌ بياقةٍ سميكةٍ بيضاء تمنعني من التلّفّت، ركبتي ملفوفة بقطعةٍ كبيرةٍ وساقِي في الجبس. يبدو أنّ صدري مُحاط ببرميلٍ من الإسمنت الأبيض، وأصابع رجلي ملفوفة بلصقات متنوّعة. لو رأي بيغاء عبّاس لحظةً، لحطّم قفصه وقرّ بجلده إلى أهله في ماليزيا.

الآن فقط، أدركتُ لماذا كنت أعجب بعبد المنعم الشيخ الذي رأيته في التلفاز، وليس عبد المنعم الجالس الآن على كرسيّ متحرّك، كجثةٍ مخنّطة، لا يرّدي وظيفته الطبيعية إلاّ على حفاظة قميّة.

اختفى الكلام من جهاز التسجيل وحلّ مكانه صوتُ هواءٍ فأدرك
نيمايا أنّ التسجيل قد وصل إلى نهايته. تنهّد عميقاً وتنبّه إلى أنّ الشمعة
انطفأت منذ مدّة.

كان يخرج من فم أجانق الراقد على قفاه صوتٌ كقباع خنزير.
نهض نيمايا من كرسيّه وهو لا يعلم أكان أجانق قد سمع القصّة
المسجّلة بصوت التاجر عبد المنعم الشيخ، كاملةً، أم أنّ غفوةً سرقت
مبكرًا. أشعل عود ثقابٍ وتناول من سلّة ملابس غطاءً دثر به صديقه،
وقد حطّت على أرنبه أنفه ثلاث بعوضات يبدو أنّها غرزت خراطيمها
متلذّذةً بعشائها الساكن الوديع.

استجبت لتعليمات نياما التحذيريّة بالألاّ أخرج من الغرفة إلاّ عندما يهبط اللّيل. في ساعات النهار، كانت السيّدة التي سمعتُ صوتها حين جاء بي نياما إلى هنا قبل شهر تقريباً تأتي كلّ صباح وتضع على منضدة القهوة، وجبة الفطور والغداء ثمّ تنصرف دون أن تتفوّه بكلمة. كانت سيّدةً منتقبةً يجرّ ثوبها الأسود الطويل قذارة التراب خلفها حين تمشي. ذات مرّة سألتُ نياما عن السيّدة «النينجا»، كما قلت له، تلك التي لا تملّ من خدمتي كلّ يوم، فضحك وحوّل مجرى الحديث إلى موضوع آخر، كعادته، عندما يتحاشى الخوض في أمرٍ ما.

عند المساء، كنت أجلس في فضاء المنزل متأملاً حركات القمر والنجوم، فأراها شبيهةً بوجوهٍ بشريّة أو حيوانات أو مخلوقات غريبة برؤوسٍ بشرٍ وأذيالٍ قصيرة تقفز وتركض وتسبح في الفضاء ثمّ تختفي بين ما يُشبه أكمة من السحب الداكنة. هذا المنظر السماويّ الرائع ذكرني الآن بحكايات أخي أغسطينو، يرويها لنا ونحن نجلس القرفصاء على التراب نُحدّق في القمر البهيم، وقد كانت معظم قصص أغسطينو ذات صلة به أو مستوحاة من منظره البديع، مثل قصّة أرعن القرية الذي هام قلبه عشقاً بفتاةٍ أبّت أن تُبادلّه الحبّ إن لم يأتها بالقمر محمولاً بين يديه! كان هذا المأفون -يقول أغسطينو ونحن نفغر أفواهنا ببراءة-

يخرج من القرية كلّ ليلة ليتابع حركة القمر، يجري، ويبطئ في مشيه ثم يسرع ولا يعود إلّا بعد أن يكون قد قطع مسافاتٍ طويلةً معتقدًا أنّ القمر سِينهكه السهر ويهبط وقد غلبه النعاس، فيقبض عليه ويأتي به إلى الفتاة. وفي أحد الأيام، عاد مأفون القرية بعد شهرٍ ليجد الفتاة قد تزوّجت شابًا كسولاً، ولكنّه كان ينسج أشعارًا جميلة، فسأله المأفون هل نجح في القبض على القمر، فأجاب الصبيّ: أجل، وقد أصبح زوجتي! اختفى مأفون القرية، قال أغسطينو، ثمّ أضاف: لعلّه ما يزال على عزمه في القبض على القمر وهو يراه كلّ يوم في سماء القرية.

تذكرت تلك القصّة عندما أجباني نياما بعد أن ضحك وقال: قد تكون هذه النينجا قمر مأفون القرية في قصّة صديقنا المرحوم، أوغسطينو.

-هل تذكر وعد الزعيم حينما بكى في مدرسته الخاصّة؟ سألني نياما.

-يا صديقي، بالأمس، رأيت في المرأة الشيب الذي اكتسح شعري، ربّما شابت الذاكرة أيضًا!

-ربّما، فقد صرّت تتحدّث بحكمةٍ من تقدّم به العمر.

همهم نياما واشرب عبّ عنقه وهو يلتفت حوله ليتأكّد من أنّه ليس هناك من يسمعون. اختفت بعض النجوم خلف أجمة من السحب الداكنة وأخذت تتوهّج كجمراتٍ صغيرة. سحب نياما كرسيّه ليدنو منّي وجاء صوته هامسًا كأنّه لا يثق في هذا الظلام المحيط بنا. جعلني قرّبه منّي أشعر بشيء من الضيق وأنا أشمّ رائحة أنفاسه الممزوجة

بالعرق، لكنني سرعان ما تجاهلتها وعقلي يكاد يتجمّد من هول المفاجأة عندما أسرّ إليّ بأنّ «النينجا» التي تخدمني كلّ يوم هي قمر الأربعة عشر الذي عشقته كامل عمري: ليزا! همس نياميا. ولم يمهلني فرصة التفكير في طرح الكثير من الأسئلة وقال: أعرف أنّك تُفكّر في الزعيم الذي تزوّجها، هذه خدعة قامت بها الحكومة وهي تُريد الآن أن تتخلّص منه لطّي ملفّه نهائياً!

كنت مستمعاً جيّداً في تلك اللّيلة ونياميا يحدّثني عن أشياء غريبة وقرارات حكوميّة لا أعرف ما علاقة جُنديّ مثلي بها. ثمّ ختم حديثه، عندما أصبحت السماء صافية تماماً، وبدا القمر كأنّه صعد فجأة من الأرض، يقولون إنّ الزعيم سيصلب نفسه يوم غدٍ، الأحد، وسيكون ذلك لحظة تاريخيّة لا بدّ لي أن أحضرها.

في اليوم الثاني، عندما خرجت إلى المدينة، صدّقت كلام نياميا بأنّ شعري الأشيب ووجهي المتغضّن، يجعلان تعرّف الناس عليّ أمراً مستحيلاً. ساقني الحنين الجارف إلى الحيّ الذي فارقت منذ مدّة طويلة، حيّ «أطلع برّه». كان بابُ منزلي موارباً ورأيت أطفالاً يلعبون على ما يبدو «لعبة الاستغماية» فشعرت برعشة خفيفة في قلبي، وفمي ينطق دون وعي منّي: أنا جدّكم. وقفتُ برهةً وفكّرتُ في أن أدخل المنزل وأحمل طفلةً كانت تبكي وتحبو على الأرض وأحضنها وأقبلّ خدّها، لكنني تذكّرت وصيّة نياميا بالألأفسد الأمور التي تسير في مصلحتي.

لم تتغيّر أشياء كثيرة في شارع فيس بوك سوى فندقٍ من ثلاثة طوابق انتصب في منزل المرحومة سميرة الكبيرة وأمامه كانت تجلس مجموعة من الشبّان الأثيوبيّين. والمقهى القائم في الهواء الطلق في طرف

شارع فيس بوك، ذاك الذي كان يزدحم بصبيان يسلخون وجوههم بكريمات التبييض ويأكلون بعض الحروف كأنّ الكلام يكلفهم مالا، أقيمت في مكانه حمّارة كبيرة وأمامها أخذ بعض اليافعين في الرقص على أنغام أغنية يوغنديّة حديثة.

ووجدتُ ملامح مشرب أبراهام الأثيوبيّ قد تغيّرت وصارت أشبه بكشكٍ لبيع السمك في الميناء النهريّ. دخلتُ فرأيتُ رجلا بدينا يرتدي زياً حبشياً أبيض، ويشبه إمبراطوراً أثيوبياً عجوزاً يمجّ سيجارة ويثرثر مع امرأة يبدو أنّها زوجته. لم يعرفني أبراهام وقد أصبح صوته واهناً ولكنه لم يتخلّ عن عاداته في الاهتمام بأخبار الناس؟ فإن هي إلاّ لحظة، بينما كان يثرثر بلغته التغرينجية، حتّى تحوّل إلى اللغة العربيّة عندما جاء رجلٌ يرتدي ثوباً أنيقاً يتناقض مع شعره المنكوش. لقد أكّد بائع الزهور عمّ جادا أنّ المعلومات تقول إنّ الزعيم سيصلب نفسه في الوقت المحدّد، لا محالة. ثمّ قال ببالحزن إنّهم دفنوا ساندرام يوم أمس في قريتها التي تبعد ثمانين ميلاً عن العاصمة، فهزّ أبراهام رأسه متحسّراً. مسكينة، تركت سبعة أطفال لثقيل السمع ماركو، لا أحد يعرف ماذا سيكون مصيرهم! قال عمّ جادا، بصوتٍ قويّ.

حزنتُ لموت ساندرام، وكنتُ أريد أن أوبّخهما وأقول لهما إنّ ماركو الذي تسخران منه، كان مدفعياً جيّداً فقد سمّعه في معركة جكّو الشهيرة. كان حديثهما عالياً وهما يتنقلان من موضوع إلى آخر، وفجأة تحوّل الأمر بصورة واضحة إلى همسات، عندما دنا جادا من أذن أبراهام فجحظت عيناه. فكّرت في أنّهما يتحدّثان عن الزعيم وهو يُصليّ صلاته الأخيرة في كنيسة سانت جوزيف، الآن.

خرجتُ من البار ومضيتُ عبر أزقة ضيقة مليئة بالحجارة وجداول صغيرة جافة وشوارع تفيض بمياه الحمامات، وملتُ إلى شارع مطعم سمك أبو الجن، كان يقطع ذيل سمك العجل بساطور، فدقق في النظر كأنه يكاد يقول لقد رأيتك من قبل ولكن لا أعرف أين.

كانت محلات سوق ملكية مُغلقة، وقد استلقى على شرفاتها صبيان تلميع الأحذية، وآخرون يستنشقون قطع أقمشة ملفوفة مغموسة في مادة السيلسيون المخدرة. وسألني أحدهم، كان يافعاً وقد بدا مخدراً يترنح في نشوة بالغة، ما إذا كنتُ ذاهباً إلى صلاة الزعيم، ودون أن أجيبه استرسل قائلاً: بلغه تحياتي. نظرت إليه بشفقة، وتركته يضحك ضحكة هستيرية.

هرولتُ ثم ركضتُ حين تناهت إلى مسمعي جوقة المنشدين في الكنيسة وأصوات حناجرهم تأتي ثقيلة، حزينة، مخضلة بدموع حمضية. لم يكُ ثمة شبرٌ واحدٌ يمكن أن يقف عليه أحد المصلين داخل الكنيسة، كانت مكتظة بمطارنة وقساوسة يتمنون إلى طوائف عديدة، وسسترات، وطلّاب الكليات اللاهوتية، وجمعيات كنسية أتت من مدن بعيدة مثل جمعية القديسة بخيته وهي المسؤولة عن النساء المؤمنات في الكنيسة الكاثوليكية؛ وجمعية الروح القدس؛ ورجال ونساء من كنيسة القيامة التي أرسلت عشر نواحات فقط، إذ لم يتمكنُ نبيهم أنطوني من حضور صلاة الزعيم، فقد كان يؤدي صلاة معجزة قيامة أحد الصبيان في كنيسته. وبين صلاةٍ وأخرى، يقف القسّ ماركو الذي وصف أعضاء الحكومة بأنهم مجموعةُ قروءٍ شيطانيةٍ تعبت بأرواح الناس، وهو يهزّ مبخرةً كبيرةً يتصاعد منها دخانٌ كثيف فوق المسبحة، كأنَّ

الملائكة سيظهرون الآن فوق القبة الدائرية. ولكن كل تلك الصلوات لم تُثنِ الزعيمَ الجالس في مقعدٍ مُنفردٍ مقابل مقعد الكاردينال عن فكرة الانتحار، فقد كان إيمانه بها جلياً في ابتسامته العريضة والهالة الوهاجة المضيئة حول رأسه.

وعلى بُعد ربع كيلومترٍ أو أقل، كان الجامع العتيق الذي صُلّي فيه عبد المنعم الشيخ صلاته الأخيرة قبل هروبه من النار إلى الجحيم، مليئاً بالمسلمين، يرتدون جلابيب بيضاء وعمائم كبيرة ملفوفة بطرقٍ مختلفة. وكان إمام الجامع يقرأ آياتٍ من كتاب الله الحكيم بصوتٍ رنيم جميل، كأنها استُعيرت حنجرتَه من بُلبُلٍ غناء. وقد ختمها برسالةٍ مباشرة إلى الزعيم الذي كان آنئذ داخل الكنيسة يسمع صوت الإمام واضحاً كأنه يهمس في أذنيه قائلاً: ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة إنَّ الله كان بكم رحيماً. ثم تنحنح وهمهم، وختم خطبته بصوتٍ مُتهدِّجٍ يُحاول إخفاء بكائه: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾.

وانفجر المصلِّون ببكاءٍ مرير سمعه الزعيم فتجهم وجهه.

وعلى بُعد خطواتٍ عديدةٍ من كنيسة سانت جوزيف، وداخل مستشفى جوبا التعليمي، كانت هناك جماعةٌ من الناس جيء بهم وهم هائمون على وجوههم، يعانون من وباء الشك الذي ضربهم في مقتل. كانت تلك المجموعة قد ألقت بنفسها في ورطةٍ كبيرة عندما أقنعتها الحكومة بالعمل في قراها والقرى المجاورة لها والمدن البعيدة على بثِّ روح الشك في المواطنين وتكذيب كل ما يتعلق بقيامة الزعيم وعدم انتحاره.

بدا الأمر بالنسبة إليهم في غاية السهولة، إذ كانوا يستيقظون مع صمت جدادد الليل وبرد الفجر يُدغدغ جُفون أهل القرية،

فيداهمون البيوت ويلقون على أهلها سؤالاً عن الزعيم. لا يهتمهم في الإجابة - وغالباً ما كانت ترد عليهم كهلوسات النيام - سوى: لا، إننا لم نره البتة! ثم صارت تلك الإجابة مملّة متكرّرة رتيبة، فصار يساورهم الشكّ في أنّ سكّان القرية ينطقون بها ويقصدون عكسها، وأنّ الزعيم قام فعلاً وسوف ينتحر في اليوم المحدّد، وهو الأمر الذي كانت الحكومة تتمناه سرّاً. ألفوا أنفسهم يغرقون كلّ يوم في مستنقع تننٍ من الشكّ حتّى أصبحوا يشكّون في كلّ شيء حتّى الشكّ نفسه. في الصباح يشكّون في أنّهم لم يقابلوا الزعيم في المدرسة الخاصّة به، وفي منتصف النهار يتحوّل الشكّ إلى نقاش بيزنطيّ فيما بينهم فيشكّون في أنّ الشكّ هو السبب في كلّ هذا، وأنّهم لولا شكّهم المفرط لأكدوا للناس رؤيتهم الزعيم وهو يستمع لماركو زوج ساندراد داخل مدرسته الخاصّة. ولما جاؤوا إلى المستشفى يبحثون عن علاج، كانت حالتهم قد استفحلت ونسوا أمر الزعيم الذي يصليّ، الآن، في كنيسة سانت جوزيف، وارتابوا في مهنيّة الطبيب، ولم يكن قد سمع عن تلك الحالة قطّ، فخرّبش لهم وصفة بروفين 800 ملغ لتزِيل عنهم ألم الشكّ وتساعدهم على مُغالبة الأرق. ولما عجزوا تماماً، عادوا أدراجهم إلى القرية غير آبهين بالحشد الطاغِي الواقف داخل سور كنيسة سان جوزيف وخارجها حيث يتلو الزعيم صلاته الأخيرة.

ساء الوضع في القرية وصار الكلُّ مرتاباً في الكلّ، وللتأكيد على ذلك جاؤوا بأفعى ضخمة جعلوها تلدغ قماشاً وُضع تحته قرعٌ جافٌّ فخرج سمّها وخلط بالماء وشربه الجميع لينتقلوا، راضين، إلى الأبعاد السماويّة في وقتٍ واحد. وإذا قُدِّر لأحدهم النجاة، فإنّه سيكون الشاهد

الوحيد على موتهم الجماعي، موت غيبهم لا شيء، إلا ليشتوا أنهم كانوا موجودين حقاً.

كانت السلطات تعقد حفلات سعادة سرية يتبادل فيها الوزراء نخب النبيذ وكؤوس الويسكي والفودكا وخمورا أخرى كُتبت على زجاجاتها كلمات بحروف مقلوبة شبيهة باللغة الإنجليزية، لأنها تيقنت من أن الزعيم سينتحر، وأن الملف الذي أقض مضجعها سنوات طويلة سيُطوى نهائياً. لكن ما كان مُقلقاً للرئيس الشبيه بسيّد البلاد الأول المختفي، زوج سوزي وللسيد المختفي نفسه، هو وجود شخصيتين في هذا العالم: النبي أنطوني بقاري فرانسيسكو والرقيب سانتينو.

وبينما كان الكاردينال غابرييل زبير يختم الصلاة في كنيسة سان جوزيف بوجه تغطيه هالة من النور الساطع وهو يوجه رسالته التوسلية الأخيرة إلى الزعيم لإقناعه بالعدول عن الانتحار، كان أتباع النبي أنطوني الذين غطّوا مساحة ثلاثين ألف متر في ميدان بُلْك يترّمون، بقلوب كلّها غبطة وسعادة. فقد قطع النبي أنطوني عهداً مقدساً مع مريديه على أن الزعيم سينتحر فعلاً، وأنه سيُقيم في اليوم الثالث، كي يتم الكتاب، كما قال.

أزعجت نبوءة هذا النبي الحكومة ولم تعرف ماذا تفعل. ولأخذ الحيلة والحذر، ولتفنيذ نبوءة أنطوني تلك، أرسلت السلطات رجالها، فتسلّقوا سور المستشفى ليلاً، وسرقوا جثة لأحد توأمين تُوفيا في اليوم نفسه بسبب حمى التيفويد التي ضربت البلاد، وجيء بها إلى النبي أنطوني ليُظهر معجزته ويُقيم الطفل الميت من الموت. لم يكن هدفهم إحياء الطفل، بل أن يبينوا للناس أن النبي أنطوني ليس سوى دجالٍ

يتاجر باسم الدين، وأنّ زعمه إقامة الزعيم في اليوم الثالث إن هو إلّا دجلٌ وشعوذةٌ وكذب، ليس لأنّ زمن المعجزات قد ولى، بل لأنّهم كانوا يعرفون أنّه ليس نبياً وأنّه هو العريف الذي كان يحتسي الخمر ويُدخّن الحشيش فوق ضريح الزعيم دون تقدير أو احترام لقدسيّة الميّت، ثمّ يقف مترنّحاً ويمضي ليزور المواخير المنتشرة حول سوق كاستوم ليرتكب كلّ المعاصي حتّى تلك التي لم تذكرها الأديان السماويّة: إنّهُ العريف أنطوني بقاري فرانسيسكو.

كانت جثّة الطفل هامدةً أمام النبيّ وكنيستهُ محتشدة عن بكرة أبيها. وكان يرتدي بذلةً ناصعة البياض وعلى عنقه سلسلةٌ ذهبيّةٌ برّاقة يتدلّى منها صليبٌ ذهبيّ استقرّ فوق كرّسه المتنفخة. بدا النبيّ واثقاً وهو يُقلّب صفحات الإنجيل ببطء، وعيناه تتفحصان جموع المؤمنين. ثبتّ الخيط الأحمر وحشره بين صفحتين قاسماً الإنجيل إلى قسمين كبيرين. كانت قلوب رجال الأمن المندسّين وسط حشد المؤمنين تنبض بسرعة وهم يتبادلون نظرات فزع، متمنّين في صدورهم أن يكون اليوم هو نهاية هذا الدجّال الذي جعل خمسين امرأة عاقراً تحبل خلال خمسين يوماً. كانت الأنظار كلّها مثبّته على المشهد، وفجأةً تجهّم وجه النبيّ عندما رأى زجاجات مياه فارغة مُلقاةً ومتناثرةً في كلّ مكان حتّى بين رجليه، ومناديل ورقيةٌ داكنة ممزّقة، وأوراق صحفٍ قديمة تتطاير داخل الخيام، فأوماً برأسه إلى أحد مساعديه المقربين منه، فجاءه مسرعاً، موزّعاً نظرات زائغة بين النبيّ والجثّة الهامدة المُكفّنة بقماش الدمورية في انتظار الحصول على فرصتها في الحياة، مرّةً أخرى.

همس النبي في أذن مساعده يستفهمه عن سر الإهمال الذي حاق
 بيت الله، كنيسة القيامة. كانت عينا المساعد مُحَدِّقَان في الجثة الهامدة،
 بدت له كأنها تتحرك داخل الكفن، ثم بدا له أنها قامت من مكانها
 وعادت إلى الحياة مرّة أخرى، فقرص النبي أذنه بعد أن شعر بأنّ باله
 كان يهيم بعيداً: ماذا حدث في الكنيسة، يا جيمس؟ سأل النبي هامساً.
 خرجت الكلمات من فم جيمس، دون أن يشعر، مخترقة أذن النبي
 واستقرّت في مكانٍ ما من عقله. فغر النبي فاه، فكشف عن أسنان
 متفرّقة ومسوّدة بفعل نيكوتين السجائر والحشيش اللذين تخلّى عنهما
 برهة من الزمن. تظاهر بأنّه لم يسمع الكلمات التي نطق بها مساعده
 وفمه يفوح برائحة البيض الفاسد، وعطس مرّتين.

سأله عن أسباب توقّف المؤمنين عن التبرّع وخدمة الكنيسة من
 تنظيفٍ وغسلٍ رغم أنّه شفى نساءهم العاقرات، بمعجزة صلاةٍ واحدة
 لم تدم ساعةً، فأنجبن جميعهنّ أولاداً. أطرق المساعد ثم رفع رأسه ينظر
 إلى سقف الخيمة المثقوب كأنّه يبحث عن كلماتٍ هربت منه. وفي لحظة،
 شعر بقوة تنزل على رأسه وتتسلّل إلى لسانه فجاء صوته قوياً هزّ النبي
 هزّةً عنيفة:

-أطفال المعجزة هؤلاء يشبهونك جميعاً، سيّدي النبي! قال
 جيمس متلعثماً. ثمّ أردف، وهو يتفحص عيني النبي اللتين بدتا
 كعيني ميّت، قائلاً: هذه معجزة، يا أيّها النبي.

-معجزة قويّة للغاية، قال النبي متحمّساً.

حقاً كانت معجزة قويّة أثارت سخرية سكّان العاصمة من هذا
 الاستنساخ العجيب، إذ يعجز العلم عن الإتيان به!

كان الجوّ داخل خيمة الكنيسة حارًّا جدًّا كأنَّ الشمس قد اقتربت في تلك اللحظة واستقرّت فوق الكنيسة رأسًا. بدأ النبيّ صلواته واضعًا يديه فوق الجثّة ومساعدته يجثّس إليه نظرات ريبة، محاولاً أن يرى على وجهه تأثير كلماته التي همس بها في أذنه، ومتذكّرًا في الوقت ذاته الابتسامة المصطنعة المرسومة على شفثيه المرتعشتين وهو يقول: معجزةٌ قويّةٌ للغاية! أخفق المساعد في أن يتيّبين انطباعًا قد تكون كلماته تركته في نفس النبيّ المبتلّ بالعرق ويدهاه فوق الجثّة وعيناه مُغمضتان رغم سقوط نظارته. كان المؤمنون يرتعدون وهم يرفعون أياديهم تضرّعًا إلى السماء ويردّدون: هلولويا.. هلولويا.. هلولويا! أمّا الجثّة فيبدو أنّها لم تكن تسمع كلّ تلك الصلوات والتضرّعات التي اخترقت الغلاف الجويّ وبلغت السماء، أو لعلّها كانت ضدّ فكرة القيامة عكس الزعيم، فظلّت ساكنة. وكان رجال الأمن يضحكون في قلوبهم وألسنة أحوالهم تقول: لقد وقعت في الفخّ أيّها الدجّال، ولنرَ كيف نُقيم الزعيم، بعد ذلك!

وعلى حين غرّة، تجمّعت فوق السماء سحبٌ كثيفةٌ برتقاليّة كجمرات نارٍ مشتعلة، وهبّت رياحٌ عنيفةٌ اقتلعت أشجار النيم القديمة، وتبعتها أمطارٌ غزيرة خلعت أسقف الخيمة عن رؤوس المؤمنين، فابتلّوا وتاهوا في دروب فزع رهيب. انهمك النبيّ في الصلوات أكثر ولم يكثرث بالخوف الذي تملّك الناس إلى أن سكنت الرياح وتوقّف المطر ثمّ هبّ نسيم عليل لطّف النفوس، فرأت الجثّة وقد بدأت تتحرّك. حينها توقّف النبيّ عن الصلاة وأشار إلى مساعدته بأن يأتي ليحلّ الأربطة عن الكفن. ألقى المساعد جيمس نظرةً على المصلّين الواقفين في الصفّ الأماميّ، وقد كانت أرجلهم ترتجف، كأنّه كان يستأذنهم أو يطلب

منهم أن يساعده، فتذكر كم مرّة كذب عليهم وقال لهم إنّ النبيّ الواقف أمامهم حقّق معجزات قيامة أموات كثيرين في دول الجوار، وأنّه شفى سيّدة في قرية جنوب مدينة راجا حملت في رحمها طفلاً لمدة خمسة وعشرين عامّاً وولدتها وهي في السّتين من عمرها. تذكر كلّ ذلك وهو يَفُكُّ رباطاً تلو آخر إلى أن حلّ قطعة القماش التي تغطّي فم الميت وأنفه، فعطست الجثّة عطسةً قويّة ورأى المصلّون حبيبات خضراء كبيرة تتطاير من منخريها، وتتناثر كرهاذٍ نافورة ماءٍ في فضاء الخيمة. وقع المصلّون على ركبهم وخرّوا ساجدين. عطس الميت مرّة أخرى فعلم الجميع، من غير مثقال ذرّة من ريبة، أنّه قد انتصر على عالم الأموات كما فعل الزعيم من قبل، فصرخ النبيّ عاليّاً حتّى قال بعض الذين لم يحضروا صلاة معجزة القيامة هذه، بعد سنواتٍ من حدوثها، إنّهم سمعوا صوتاً صارخاً آتياً من السماء والبريّة يقول: هلولويا، هلولويا!

نطق النبيّ وهو يتراجع خطواتٍ إلى الوراء حتّى اصطدم بعمود الخيمة الحديديّ. وكان مساعده في ذلك الحين، قد أطلق ساقيه يُسابق الوحل واختفى في البيوت القريبة من ميدان بُلْك.

انسحب رجال الأمن من صلاة المعجزة بخُفيّ حُنين حين رأوا الميت ينهض بمشقةٍ، ويجلس القرفصاء على الطاولة، ويتلفّت حوله بعينين تائهتين قبل أن ينطق بصوتٍ خافت: إنّني أكاد أموت عطشاً!

انتشر خبر المعجزة وشعرت الحكومة بخوفٍ رهيب من تحقّق نبوءة النبيّ في إقامة الزعيم بعد الانتحار، خاصّةً عندما قال رجال

الأمن إنهم شاهدوا الميت يجلس على الطاولة ويشرب الماء بنهم وهو يتفحص المؤمنين حوله بحيرة، وهذا دليل قاطع على أن المدعو أنطوني بقاري فرانسيسكو قادر على إحياء الزعيم من بين الأموات. ولو بعد مليون سنة! كما تعهد النبي.

تقول أخبار الميت الذي انتصر على الأموات إنه كان مُرهقًا، مُنكمش الجسد، عندما نزل عن الطاولة وخرج من الخيمة، وإنه طلب دراجة نارية أخذته إلى منزله الكائن في حيّ قُوري. وما إن ترجّل عن الدراجة وأخذ يبحث في ثنایا جيوب ردائه عن مال ليدفع أجرة سائقها، تفرّس هذا الثاني في وجهه مليًا حتّى صعق، ورمى دراجته هاربًا كأنّ كائنًا لامرئيًا يلاحقه.

كانت أمّه جالسةً أمام باب الغرفة حزينةً معصوبة الرأس عندما رآته يدخل. رمى بثقله في حضنها، ثم طلب منها الطعام باكيًا، لأنّه لم يأكل منذ زمنٍ بعيد، كما قال. لم تندهش والدته، لكنّها اكتفت بسؤاله وتوبيخه بلطفٍ لأنّه غاب طويلاً، حتّى إنّ القسّ الكاثوليكي الصبور أجل صلاة الجنّازة يومًا كاملاً لأنّه كان مؤمنًا بأنّه سوف يأتي كي يودّع أخاه الذي دُفن يوم أمس.

غادرت طيور أبايل الشؤم وكناتها في طريق روميك، وقطعت
مئات الأميال دون راحة، ثم حطّت على أسطح مباني البرلمان ورئاسة
الجمهورية التي كان سقفها يُسَرَّب مياه الأمطار على الرغم من حداثة
البنيان الذي كلّف الدولة سبعة أرقام بالعملة الأجنبية.

كانت عيون تلك الطيور دائريةً واسعةً زرقاء كأنّها من فرط
السواد عيون الزبانية، وقد وجد حُجّاج الضريح في ذلك دليلاً على
لعنة ستحلّ بالكون.

على سطح صهريج المياه المنتصب داخل الضريح، حطّت غربان
سوداء تنعق بأصواتٍ موحشة مُحيفة. وكان البكاء الصادر من الحشد
المهيّب قد سكن فلم تكن تُسمع سوى استنشاقات أنوفٍ وخرير دموعٍ
وزفرات صدورٍ كأنّها مسلوّة.

توارت الشمس خلف غيوم رماديّة، ونشر الضباب جلبابه
الشّفاف على طول السماء وعرضها كأنّه كفن أضفى على الجوّ العامّ
شعوراً جنائزياً جعل الجمعيات الكنسيّة تتخلّى عن الكتاب المقدّس
وتستعين، خلسةً، بقوى خارقة أخرى لم يُفصَح عنها، قيل إنّ لها
مفعولاً يُمكن أن يُقنع الزعيم بعدم الانتحار.

كان الفصل السنويّ في ذاك اليوم مزيّجًا من الشتاء والخريف والصيف، إذ حمل النسيم رائحةَ تربةٍ مُبتلّةٍ بهاء المطر، وسرعان ما تحوّل إلى بردٍ قارسٍ جعل أسنان حراس الضريح تصطكّ وأيديهم ترتعش على الرغم من النار الهائلة التي أشعلوها في الركن الجنوبيّ الغربيّ من الضريح لتدفئة أجسادهم المرتجفة. وإن هي إلاّ دقائق حتّى سطعت الشمس ودنت من الأرض فرأى الحشد أوراق شجر النيم داخل الوزارات وعلى طول شارعها تصفرّ فجأةً وتجنّف ثمّ تنهوى فتتصاعد منها أدخنة، وفاحت كلّ الأمكنة برائحة حريق عجالات سيّارات.

وقفتُ على مسافة ليست ببعيدةٍ عن تمثال الزعيم أحدّق في وجه زوجتي ليزا وهي جالسةٌ تقرأ مستقبل مئآت السيّدات المُصطَفّات اللواتي كنّ يردن معرفة علاقاتهنّ الزوجيّة بعد انتحار الزعيم. كنت أقرأ تقاسيم وجهها كي أعرف ما يُخبّئه لنا القدر في المستقبل.

كان الزعيم قد جاء مبكرًا ونصب صليبه وصعد إليه مستخدمًا سلّمًا حديدًا دفعه برجله حين أدخل عنقه في حلقة حبلٍ غليظ. صليب آخر أقلّ حجمًا من الأوّل رُبط فيه شخص يشبهه قيل إنّ الزعيم نفسه الذي قتل بلاك ونحر سميرة الكبيرة وأطلق رصاصة على وزيرٍ جلس في المرحاض يقضي حاجةً طبيعيّةً بسعادة بالغة. لقد جاء به رجال شرطة المدينة على متن سيّارة سوداء وقيل إنّ اعترف بكلّ جرائمه التي ارتكبها في العاصمة باسم «القاتل المجهول». كنت أعرف أنّه القاتل المأجور، قال بائع الزهور لأبراهام مشيرًا إلى الزعيم الآخر. يبدو أنّ أبراهام تخلّى عن باره وعيادته فجاء لبيع بطاقات شحن الهواتف في الضريح.

كان الزعيم الآخر المعلق على الصليب مُزعجًا، يثرثر مع الزعيم متحدّيًا إياه بقوله: إن كنت الزعيم، حقًا، فأنقذ نفسك وأنقذني معك! تقصّى الزعيم وجهه وتمتم بكلمات جعلت الزعيم الآخر يظنّ أنّه سيُنقذ، لا محالة، فرسم على وجهه ابتسامة عريضة أغضبت رجال الشرطة، فضربوا رجله بالسياط، فصرخ عاليًا. واعترف للزعيم بأنّه قتل، بالفعل، سميرة الكبيرة وبلاك مغتصب ليزا زوجة أجانق بإيعاز من ساتينو، وأنّه ارتكب عددًا لا يُحصى من الجرائم في العاصمة فمنحته السلطات لقب «المسلّح المجهول» بدلا من اللقب الحقيقيّ «القاتل المجهول» لتخفيف أيّ عقوبة قد تقع عليه في المستقبل. هزّ الزعيم رأسه فاعتقد الآخر أنّ السماء قبلت اعترافاته، خاصّةً عندما شاهد سرب البوم الواقف على سقف رئاسة الجمهوريّة يطلق نعيًا مُزعجًا وأجنحته ترفرف بشدّة، وساد فضاء الضريح صمتٌ مخيف.

لم يُثبّط لهيب الشمس الحارق عزمَ مُريدي النبيّ أنطوني، أولئك الذين كانوا يرتلون وينشدون مزامير داود بصوتٍ هادئ يتخلّله سوبرانو أنثويّ ينطلق كالسهم شاقًّا كبد السماء. بدا النبيّ واثقًا من قُدراته الدينيّة خاصّةً عندما أخبره أحد أعوانه بأنّ الصبيّ الذي أقامه من بين الأموات قد آمن وأصبح من مُرتادي كنيسة القيامة، وهو هناك، في الركن الشماليّ من الضريح، يعظ بحماسٍ منقطع النظير أولئك الذين يؤمنون بالديانات الإفريقيّة ويذهبون في آنٍ إلى الكنائس في أيّام الآحاد، أو يذهبون إلى الجوامع إن كانوا مسلمين يحجّون إلى بيت الله الحرام، وقد التزم المئات منهم بعدم مزج الدّين بالكجور في البحث عن المواقع الوزاريّة.

كان الرئيس المخبول الذي نسيه الوطن، بعد فضيحة رقصه مع المثليين، يجلس القرفصاء في المقاعد الأمامية وإلى جانبه الرئيس الشبيه. بدا من لحيته الشعثاء والابتسامات التي ينشرها في الفضاء أنه مازال يعاني من هلوسات ظهور الزعيم. كان حدثُ الانتحار حبلَ أملٍ تعلّقت به سوزي التي طفقت تنظر، بين فينة وأخرى، إلى شبيه زوجها ولسان حالها يقول: سيكون مكانك الطبيعي في تلك القرية التي أتيت منها، يا أهبل أنت!

بدت رؤوس البشر داخل سور الضريح وخارجه وفي كل الشوارع الفرعية المؤدية إلى نافورة كاستوم من علٍ صغيرة سوداء كأنّها ذبابٌ يتهافت على جيفة. وكان الحماس الديني الذي امتلأت به روح النبي والمصلّون قوياً!

فجأة، رفع النبي أنطوني يده فسكت الجميع، وظلّ الصوت السوبرانويّ الأنثويّ يرنّ في رؤوس الناس برهةً من الزمن.

كانت الأنظار متّجهةً إلى قدم الصليب الخشبيّ الكبير المصقول بالإزميل حيث علّق الزعيمُ نفسه، وهو يتصبّب عرقاً، وحيث ترتدي سيّدة زياً إفريقيّاً فاقع اللون تعقص شعر رأسها بفوطة خضراء معقود طرفها من الأمام. كانت ترتدي نظّارة سوداء وحذاءً بكعب عالٍ وتمشي الهويني بجسدٍ مشوّقٍ، وقفت تحت الصليب مباشرةً، تحدج بقسوة شديدة الزعيم الذي التمعت عيناه غبطةً حين رآها. همس رجلٌ في أذني وقال إنّها أرملة الزعيم. ترك الغضبُ آثاره في وقفاتها، فقد قطعوا إجازتها في إحدى جزر الكاريبي وجاؤوا بها، لأنّها الوحيدة التي يمكن

أن تؤكّد أنّ الرجل المعلق على الصليب، الآن، هو الزعيم الذي أقصّ مضاجع الجميع لسنواتٍ عديدة.

أخذت الأرملة الجميلة تتأمّل المصلوب فنظرت إلى أصابع رجله المتشققة المتفخخة، فقدّرت المسافات التي قطعها مشياً خلال كلّ هذه السنوات منذ أن قام من بين الأموات. كان جلدُ ركبتيه شبيهاً بجلد أصلة، وكان دمٌ أسودٌ ينبجس من يديه المقيدتين بحبلٍ سميك. خلعت نظّارتها ومسحت عينيها بمنديل، فتنفّس الوزراء وأعضاء البرلمان الجالسون خلف السيّد الأول للبلاد الصعداء بصوتٍ عال. التفتت حول الصليب لكي تتفادى نظراتٍ ثاقبةً منه اخترق بها جدار قلبها، ونظرت إلى الأعلى فالتقت عيناها مرّةً أخرى، ورَفّ جفناها، لكنّها حين أرجعت البصر وتفرّست في وجهه، بصقت على الأرض وصرخت بصوتٍ كأنّه آتٍ من البريّة: دعوه يصلب نفسه، هذا مجنون! ثمّ هرولت واختفت بين الجموع.

يقول بعض الناس إنّ الركن الشرقيّ من السماء انفلق فتفتّق عن كوّة صغيرة فأمرت ماءً شبيهاً بدموع إنسانٍ بللّ صلعة الزعيم المصلوب. قبضت الجموع عليها وجيء بها مرّةً أخرى، فوقفت مُطرقةً أمام الصليب وهي لا تتجرّأ على النظر في عينيه. وسُئلت: أليس هذا هو الزعيم الذي تعرفينه؟، أليس هو؟ وإذ سُئلت في المرّة الثالثة، وهي تُصرّ على ألاّ تنطق بكلمة، طارت الغربان وطيور البوم تاركةً فضلاتها البيضاء فوق سقوف البرلمان ورئاسة الجمهوريّة، ونبحت الكلاب وهي تلوي ذيولها كأنّها لاح لها في الأحلام شيطان، وصاحت الديوك والشمس واقفة، بحزنٍ، فوق الضريح.

صرخ مؤمنو كنيسة القيامة، وكان بُكاؤهم شبيهاً بنعيق الغربان، فقال النبي: كل هذا يحدث لكي يتم الكتاب! وعَصَرَتْ سوزي كف زوجها مبتسمةً، مُنفَّذةً بذلك تعاليم ليزا، فقد نصحتها بوضع يدها الممسوحة بزيت النخيل الممزوج بعطرٍ خاصٍّ على كفِّه لتُبْعِدَ العيون الحاقدة عن السيّد الأوّل بعد انتحار الزعيم. تنحّح الوزراء وأعضاء البرلمان، ونهض البعض يسحبون، بحبورٍ شديد، أجزاء البناتيل المحشورة بين مؤخراتهم، وتتم آخرون معلّنين رضاءهم عن انتحار الزعيم وإغلاق باب هذا الرجل العفريت الذي عذبهم حيّاً وميّتاً. بيد أنّ سعادتهم تلك كانت مشوبةً بحذر قيامته مرّةً أخرى كما وعد النبي أنطوني بذلك. ولو علموا أنّ رجال الأمن قد احتاطوا لمثل هذا الموقف لما انشغلوا بذلك إطلاقاً!

نزل الإحباط على رأس الزعيم، وهو يُنكّر من طرف عقيلته، فصار بارداً كالثلج. وحدّق بشفقةٍ في الجموع وهي تصرخ وتنوح بلغاتٍ مختلفة، نظر إلى السماء فرأى ما يُشبه الملائكة يتفرّجون بذهولٍ في الجمهرة الكثيفة على أرض الضريح. ورفع رجله عن درج صغير فاشتدّ الحبل السميك على عنقه، وخرجت عيناه ثم توقّفت أنفاسه، ولم يرتعش كالذي يُصارع الموت إلى آخر لحظةٍ خوفاً من مفارقة الحياة.

انتقلت الأنظار الباكية إلى نبيّ كنيسة القيامة، إذ انبرى يُصليّ بصوتٍ جهوريّ، وما لبث أن خفض صوته حتّى صمت. رأى الناس النبيّ أنطوني يعصر على بطنه بقوةً كأنّه يُريد أن يلفظ من جوفه مخلوقاً شيطانياً اختبأ في معدته. تعرّق كثيراً وانقبضت عضلات وجهه واحمرّت عيناه، وسقط مرتطماً بالأرض وهو يصرخ: لم ينتحر، ولكنه شُبّه لكم!

كان مفعول الزرنينخ الذي دسّه أحد رجال الأمن في العصير وأعطاه النبي أنطوني قوياً، بإمكانه قتل فيل إفريقيّ عنيد.

أُعدم الزعيم الآخر بسرعة، وأُخذت جثّتا الزعيمين ودُفنتا عند قدمي جبل الكجور بالقرب من شهداء الطائفة الذين ماتوا مع الزعيم. سادت العاصمة حسرة عميقة، وتفرّق الناس فرادى وجماعاتٍ كأنّهم دواجن أمطرهم السماء ثلجاً. أمسكتُ بذراعي ليزا وطبعتُ على ثغرها قبله ساخنة، ودعّنتني إلى المنزل حيث يوجد ابناي إيمانويل وجيمس وقد عادا مع أبنائهما من مدينة في الساحل الكينيّ، بعد أن اختبأ هناك لسنواتٍ خوفَ أن يأخذ أهلُ بلاك بثأر ابنهم. وتركت ليزا هناك تباع الشاي لمؤمني كنيسة القيامة الذين ضربهم برذّ قارس لم تُسعفهم الصلوات بتدفّته.

كنتُ واقفاً حين جاءني نيايا الحكّاء، وعلامات الإرهاق والإعياء بادئةً عليه كأنّه لم يطعم ولم يشرب ماءً لمدة أربعين يوماً، فسألته أين كان. أدام نيايا النظر إليّ، فرأيت رموش عينيه قد شابت دفعةً واحدة، وعرفت أنّه متلهّف على تناول وجبة الفول الذي يحبّه كثيراً. أدخل يده في جيبه وأخرج صورةً لفتاة تبدو في أوائل العشرين من عمرها، لكنّه قال لي إنّها امرأةٌ في نهاية الأربعين ماتزال تحتفظ بشكلها ونضارتها. وقد كانوا يُجرون تحقيقاً بشأن تلك الفتاة الغريبة.

-إنّها سودانيّة دخلت إلى البلاد قبل أعوامٍ ولا أحد يعرف بالتحديد متى كان ذلك! لا توجد أيّ معلومات عنها في مطار جوبا الدوليّ، رغم أنّها دخلت عن طريقه. عملت السيّدة في

وظيفة غير معروفة في رئاسة الجمهورية لتسهيل العقود لصالح شركات متعددة الجنسيات. كانت على علاقة مشبوهة ببعض وزراء الحكومة، وتقول بعض الدوائر المغلقة إنها على علاقة حميمة بالرئيس المخبول وقد تركته عندما ضُبط يُراقص المثليين في شارع فيس بوك. تعرّفت على صديقك سانتينو عن طريق التاجر عبد المنعم الشيخ الذي وصل بينهما فتزوجت صديقك سانتينو المفلس قبل أسبوع من انتحار الزعيم. وبالأمس، قتلته بطريقة بشعة للغاية لم أر لها مثيلا في حياتي وأتمنى ألا ترى أنت مثل ذلك ما دمت على قيد الحياة، يا أخي أجانق. كان كما ولدته أمّه مُحلّقاً بين الأرض ومروحة السقف القويّة وشيؤه معقود بحبل متين موصول بقاعدة المروحة.

- هل قبضتم عليها؟ قاطعتُ نياميا.

- لقد هربت إلى نيروبي ومنها إلى كيغالي، قال، ثم واصل: وبمساعدة يهوديّ سودانيّ جنوبيّ نعرفه جميعاً.

- يهوديّ سودانيّ جنوبيّ ونعرفه أيضاً؟

- نعم. وأنت تعرفه أيضاً!

- من هو؟

- بنيامين إسحق بسيوني!

- لم أسمع بهذا الاسم على الاطلاق!، قلت مستغرباً.

- إنك تعرفه جيّداً، يا أجانق. إنه عم جادا بائع الزهور، قال.

ساد هدوءٌ بيننا ونحن ننظر إلى مؤمني كنيسة القيامة الذين شرعوا
يزيلون خيامهم الكبيرة المنصوبة أمام الضريح وغيوم شاحبة من الحزن
تخيّم عليهم. تراءى لي عم جادا اليهودي واقفاً في شارع طمبة خلف
طاولة مليئة بالزهرات البيضاء والصفراء والبنفسجية وهو يتجاذب
أطراف الحديث مع ساندرا بائعة الشاي تارةً، وسميرة الكبيرة والأثيوبي
أبراهام تارةً أخرى. تذكرتُ أنّ بائع الزهور كان لا يُطيق سانتينو وكان
يُحذّرني من التعامل معه.

داخل الضريح يوجد بعض المواطنين الذين قالوا إنّهم سيقضون
يومهم هنا لأنّهم لم يصدّقوا أنّ الذي انتحر هو الزعيم، وأنّ الحكومة
التي بإمكانها فعل كلّ شيء تستطيع أن تخلق أكثر من زعيم، والزعيم
المزيّف الذي صُلب مع الزعيم خير دليل على ذلك. رأيت شخصاً يدفع
طاولة مليئة بالزهرات يمشي بينهم فناديت: عم جادا، عم جادا، لكنّه
كان قد اختفى بينهم كإبرة في كومة من القش. التفت إلى نيايا وسألته:

- وهل تلك السيّدة التي قتلت سانتينو، يهوديّة أيضًا؟

- لا، إنّها سودانيّة!

- ما اسمها، ولماذا قتلته؟

- اسمها رزاز... رزاز حسن جار النبيّ.

- لا بدّ أنّها جريمة ثأر، قلت، بعد أن حككت رأسي مفكّرًا.

- هل تعرفها؟، سألني نيايا.

- تذكرت اسم والدها وهو العميد حسن جار النبيّ.

حدّث نياميا بأنّها ابنة العميد حسن جار النّبّي زوج سعاد صلاح إسماعيل بسيوني التي حاول سانتينو، حين كان يعمل خادماً في منزلها، اغتصابها وقتلها، ولما تفتّنت إليه هرب من الشمال إلى الجنوب وانضمّ إلى الجيش الشعبيّ لتحرير السودان. كان ذلك في ثمانينيات القرن المنصرم، قلت لنياميا. وقد ذُهل حين حكيت له التفاصيل التي سردها لنا سانتينو ذات يومٍ ونحن نستريح تحت ظلال شجرة ضخمة بعد معركة شرسة مع جيش الحكومة أيّام حرب التحرير.

هذا العالم يغلي بكثير من الأسرار المُلغزة، قال نياميا. ثمّ أدام النظر في الحشد الذي بدأ يعود مرّة أخرى إلى الضريح. قيل إنّ الحكومة أصدرت للتوّ قانوناً يقضي بإزالة الضريح كي لا يحوِّله الناس إلى مزار عالميّ.

تركتُ ليزا هناك ومضيتُ مع نياميا نمشي في الشارع الإسفلتيّ خلف مركز نياكورون الثقافيّ. كان نياميا حزيناً مُطرباً، يركل ورقة مطويّة لا يلقي إليّ بالاً. ثمّ رفع رأسه وأنعم النظر في الفراغ وقال: يبدو أنّ الكتاب الذي ننجزه سيكون هو الآخر لعنة كالحياة في هذه المدينة. رمقته بنظرة خاطفة فقال إنّهُ يكتب الفصل الأخير من هذه الرواية التي تنتهي بانتحار الزعيم، وإنّهُ لا يعرف هل سيقول للقارئ إنّ الزعيم هو شخصيّة خرافيّة اخترعتها الحكومة لتلهي الناس عن فسادها وتظلّ في السلطة كلّ هذه السنوات، أم أنّه سيكتفي بجعل القارئ يتيه في صفحات الرواية، استمتعاً، ويصدّق ما يُريد ويُفند ما لا يريد.

- لا تقل إلاّ الحقيقة، أيّها الحكّاء العظيم، قلتُ.

- الحياة التي نعيشها، يا أجانق، مُزَيِّفَةٌ إلى درجة أنَّها تبدو حقيقة أكثر من الحقيقة ذاتها. الكلمات التي تخرج من أفواهنا هي الحقيقة التي نعرفها جيِّدًا، سواء حملت في طياتها حقيقةً أو كذبًا. فيما عدا ذلك، فكلُّ شيء مُلغز جدًّا. موت الزعيم حقيقة وكذب في آنٍ واحد! وكذلك قيامته. هو حقيقة لأننا واريناه الثرى ونرى ضريحه واقفًا هناك تلفحه أشعة الشمس وتغسله أمطار الخريف ويزوره السياسيون كلِّما ضاق بهم وعاء السلطة فيلجؤون إليه كأنَّه مسيحهم المخلص، ريثما يبلغون ما يبتغون، وبعدها يتجاهلونهم كأنَّهم ما عرفوه وما عاصروه في حياتهم مُطلقًا! وهو كذبٌ لأننا نكذب حين نقول إننا أحبيناه ومازلنا، وحزنًا عليه عندما غادرنا إلى العالم الآخر. ذلك هو كوكابين الحقيقة الكاذبة التي أدمنَّاها في هذه المدينة. أعرف، يا أجانق، أنَّك رأيت الزعيم وتحدَّثت معه عندما قام من بين الأموات؛ ولذلك سجتك السلطة سنواتٍ لأنَّ الحكومات تخاف دومًا عدوَّها اللدود وهو الحقيقة. وأعرف أيضًا أنَّ السلطات نفسها اختلقت هذا الزعيم واستغلَّته في سلب الناس وقتلهم واغتصاب نسائهم وصباياهم تحت قناع «القاتل المجهول»، تلك حقيقة أيضًا. والحقيقة، كما تعلم وأعلم أنا، واحدة ولا يمكن أن تكون هناك حقيقتان في أمرٍ واحد، لذلك أنا حائر، أيَّ هذه الحقائق يجب عليّ تضمينها في روايتنا يا صديقي؟

كنَّا قد بلغنا نادي أساتذة جامعة جوبا حين صمت نيامًا. رأينا صبيًّا يقف في وسط الشارع، ويحمل في يده كتابًا مقدَّسًا ويعظ المارَّة

بحماسٍ يفوق حماس النبي أنطوني الذي تقول الأخبار إنه تسمّم وسُفّر إلى نيروبي للعلاج. لقد كان هو الصبي الذي تُوفي بوباء التيفويد وأقامه النبي أنطوني من بين الأموات.

- انظر، أشار نيمايا إلى الصبي، هذا أيضًا أكذوبة كبرى من الأكاذيب الحقيقية في هذه المدينة!، قال.

- دعنا من هذه الأكاذيب، يا نيمايا، اكتب الكتاب ودع الناس يميّزون الحقيقة من الكذب. فما تراه كذبًا، يراه آخر حقيقةً والعكس صحيح، قلتُ.

- لقد أصبحت المسألة أكثر تعقيدًا، فأنا لم أعد أدرك ما إذا كنتُ أنا حقيقة أم كذبًا، لم أعد أدرك ما إذا كنتُ ...

- وماذا تُسمّي هذا الكتاب، أيّها الحكّاء العظيم؟، قاطعته لتشتيت ما كان يُفكّر فيه وما سوف يذهب إليه، أَسْمِيهِ «اللعنة» أم «الحقيقة الكاذبة»؟، أضفتُ.

- ربّما... ربّما... لا أعرف، تلعثم.

- ربّما قيامة الزعيم، كما قلتُ لك سابقًا.

- لا نُريد أن ندخل في جدالٍ مع رجال الدين، يا أجانق، فهم مهووسون هذه الأيام.

- كيف؟

- ألم تر أنّ قيامة الزعيم شبيهةٌ بقيامة المسيح؟

- صدقت.

- أنا أقترح هذا الاسم: سوبرانو القيامة، قال.

ساد في نفسي هدوءٌ وأنا أتأمل هذا الاسم الغريب. تطلّعتُ إلى عيني نيما فأدرك أنّي أتساءل عن معنى هذه الكلمة الشبيهة باسم حيوانٍ مُنقرضٍ كديناصور. وبدأ يتحدثُ عن الأصوات الموسيقيّة التي تعلّمها حين كان صبيّاً، ثمّ وهو عضو في كورس كنيسة القديسة مريم في مدينة واو، حين كان الكاردينال غابرييل زبير قسّاً يتلمّس طريق مستقبله الكاثوليكيّ. بلغنا باب منزلي وهو يسترسل في قوله إنّ «سوبرانو» صوتٌ جميل يحبّه كثيرًا خاصّةً عندما ينبع من داخل أنثى فيشعر المرء بأنّ دفقًا من الروح القدس ينزل عليه من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، وإنّ هذا الصوت الجميل يشبه كلّ أصوات الذين صرخوا عندما انتحر الزعيم على صليبه، و...

تركته وأنا أسمع صوته متواترًا يتحدثُ عن أجزاء الأصوات الأخرى في الكورس.

دخلتُ منزلي الذي طردني منه الزعيم المصلوب في الميدان، فوجدتُ ابني إيماويل بعد غيابِ سنواتٍ، بلحيةٍ وشاربٍ كبيرين وعينين تومضان بشوق إلى تلك اللحظة التي انتظرُها طويلًا. حضنته وشعرتُ بدفء دموعه وهي تنحدر على صدري، ورأيت ولدين صغيرين يشبه أحدهما الآخر كأني رأيتهما في مكان ما قبل أربعة عقود. سألته عن الولدين فقال إنّهما ولداه، الأكبر يدعى أغسطينو والأصغر اتّخذ له اسمي، أجانق. وقفتُ سعيدًا أحدّق في الصغير وهو يتسم في وجهي، فرأيتُ الوجه الذي رأيتُه في ذلك الصباح البعيد عندما كنت ذاهبًا إلى المدرسة مع أخى أغسطينو. قاطرة كبيرة تسحب خلفها غبارًا

أحمر كثيفاً كانت قادمةً بسرعةٍ رهيبَةٍ نحو أغسطينو وأجانق، فخطفتها وركضت بهما إلى الغرفة وأغلقت الباب. فتح ابني إيمانويل الباب يضحك ممّا فعلته بابنيه، فحدثته عمّا رأيْتُ، فضحك وقال إنِّي ربّما أعاني من هلوسات سنوات السجن الطويلة.

في تلك الأمسية، استلقيتُ وبجانبي ليزا تحضني بقوةٍ كأنّها كانت تخاف أن أنفلت من يدها مُجدِّداً وأختفي لسنواتٍ أخرى.

كان الصباح جميلاً مشرقاً حين جاء نياميا يحمل تحت إبطه حزمة أوراقٍ وقال إنّه قادم من الضريح حيث كان كلّ العالم حاضراً هناك. علمت منه أنّ القانون الجديد فشل في تشييط همّة الجموع في التدفّق قادمة من الأصقاع والمدن والقرى النائية، تقصد الضريح الذي أصبح مكاناً مُقدَّساً يلجأ إليه الضعفاء والمُهمَّشون وكلّ المنسيين المبعثرين في أرجاء البلاد. كانت فكرة ظهور الزعيم أكثر قوّة من ذي قبل، رغم الإعدامات التي شرعت السلطات في تنفيذها داخل كلّ قرية ومدينة. يتّس البرلمان الأغسطيني وعجز أيضاً عن سنّ أيّ قانون آخر يُجرّم أولئك البؤساء غير العابثين بقوانين الطوارئ وتكدّس السجون والإعدامات الجزافيّة، فما كان من البرلمان إلّا أن جدّد مشروع قانون يقضي بإزالة الضريح، ولكنّه لم يُنفذ، إذ هربت الشركة المنفّذة، بتواطؤ مع مسؤول كبير في الدولة، بمبالغ طائلة أودعتها في جزيرة بالمحيط الهنديّ. الشركة الصينيّة المنفّذة الآن، وحسب تقارير سرّيّة نشرتها مفوضيّة محاربة الفساد، هي شركة تابعة لأبناء وزراء في الدولة ونسائهم وأقاربهم. باشرت الشركة عملها بنشاط لا مثيل له، وذلك بتدمير أسوار الضريح الحديديّة العالية، وإزالة النجيلة الخضراء التي

زُرِعَتْ قُبَيْلَ عَشِيَّةِ الاستقلال، وتدمير مصطبات الإسمنت المواجهة للشارع الرئيسي، وإحراق الخيام البيضاء، وخلع دورات المياه المؤقتة التي كلفت الدولة ملايين الجنيهات السودانية، وتهشيم تمثال الزعيم المنحوت بأصابع فنّان غير ماهر، يقول معارفه إنّهُ كان سمساراً للمنحوتات الإفريقيّة في الأزقة الخلفيّة لمواخير بائعات الهوى في دولة أجنبيّة تقع على بعد مئات الأميال من الضريح المهيب. لقد حطّموا كلّ شيء، ولكنّهم فشلوا، على أيّة حال، في محو صورة الزعيم من الذاكرة الجماعيّة.

كانت آليّات الحفر الشبيهة بأعمدة آبار البترول الطويلة واقفةً مباشرةً فوق القبر، تحفر وتلقي التراب والحصى المتناثرة حول الضريح بعيداً. وصار المتطلّعون الواقفون داخل سور الضريح لا يرى بعضُهم بعضاً، فقد ارتفعت أطنانٌ من الحجارة والإسمنت والنجيلة الخضراء والطين. وعندما توقّفت الشمس عن الحركة وتجمّدت فوق الضريح لساعةٍ من الزمن، وشعر الناس كأنّ جحيم العالم قد حطّ فوق رؤوسهم، لم يتبقّ من مهمّة الشركة سوى تحطيم تلك الكتلة الإسمنتيّة البيضاء المزخرفة بالرّخام، تلك التي جلس عليها الزعيم حين قام من بين الأموات وتحدّث مع الرقيب أجانق في ليلةٍ استوائيّةٍ مدلهمةٍ بهزيم الرعد ولمعان البرق، لاح فيها جبل الكجور الحجريّ من بعيدٍ ككائن أسطوريّ يتقصّى وجه تلك المدينة النائمة، قرية العين.

صفّق الرئيس المخبول وشبيهه وأعضاء حكومته بحرارةٍ عندما نجح فريق الحفر الصينيّ في تدمير كتلة إسمنت القبر باستخدام بعض الديناميت، ثمّ بلغوا الصندوق الأنيق المغطّى بعلم البلاد، دون مجهود

يذكر، وألفوه نظيفاً مُغلَقاً يتضوّع بعطر الكولونيا، كأنّه كان يقبع داخل غرفة نظيفة وليس حفرة موت. تردّدوا برهةً بأن تبادلوا النظرات بعيونهم الضيقة وتحدّثوا بكلماتٍ صينيّة كأنّها أصوات سقوط ملاعق على الأرض، وبحذرٍ شديد فتحوا النعش، ففوجئوا بشيء لم يخطر على بال أحد منهم، ولا على بال الرئيس المخبول الذي كان يتبسّم في حضن سوزي المفعمة تفاؤلاً وفي وجوه أعضاء حكومته، ورجال الدين الذين جاؤوا على عجلٍ ليتأكّدوا من أنّ النعش خالٍ من جثّة الزعيم، خاصّةً عندما وقع في مسامعهم قبل إكمال عمليّة نبش القبر بساعةٍ واحدةٍ فقط، أنّ الزعيم ظهر وخاطب المواطنين في مدينة أبيي، وأنّ أخباراً تناهت إلى المسامع، أيضاً، تفيد بأنّه شوهد وهو يأكل وجبة الفاصوليا مع ثوار جبال النوبة، وهو الأمر الذي دعا حكومة تلك الدولة إلى رفع شكوى إلى مجلس الأمن بأنّ الزعيم مازال حيّاً يُرزق، ويهدّد أمن البلاد بتحريض الثوار على اجتياح الدولة بكاملها. ونتيجة لذلك أرغم التاجر عبد المنعم الشيخ على الظهور في شاشات التلفاز لنفي كلّ ما قاله عن تنبّؤات الزعيم القائلة بإعادة وحدة البلاد. ذهل جميع من كانوا مُلتقيين حول النعش فاغرين أفواههم برعونة، ومحدّقين فيه بحماسة، وفوجئوا بشيء كاد يُطير عقولهم ويُلقي بهم في متاهة الجنون: لقد رأوا الزعيم، كما هو، لم يتحرّك قيد أنملة منذ أن دفنوه قبل سنوات في ظهيرة يوم 6 أغسطس من عام 2005، بصلعته الفريدة، مُتغصّن الوجه، مُغمض العينين، كأنّه يأبى أن ينظر إلى وجوههم الكالحة.

آثر غابرييل ياك سُورَانُو (القيامة)

قد نحتاج بعض الحقائق إلى انتظار زمنٍ ما بعد القيامة حتى تكشف، لكن في قدرة اللغة -أخطر ما ابتكره الإنسان عبر التاريخ- أن تمرّد على الزّمان فتأخر ساعةً وتستخدم أخرى وتأتي بالقيامة قبل ميعادها، فتعيدك الكلمة إلى زمن البدء: زعيم يُبعث من بين الأموات لينجز ما عجز عنه الأحياء، فترتج لانبعائه أركان جنوب السودان وتهتز لسُورَانُو قيامته حقائق ظنّ الجميع أنها باتت طيِّ صندوقين: صندوق الطائفة الأسود وصندوق القبر. وقد نظنّ أنّك محتاج في قراءة هذه الرواية إلى أكثر من لغة، إذا عرفت أنّ شخصياتها تتكلّم مزيجًا من اللّغات واللهجات، غير أنّ الكاتب ردها جميعًا إلى العربية الفصحى، تمامًا كما تسحيل كلّ اللغات إلى لغةٍ واحدة في زمن ما بعد القيامة، زمن انتفاء الحدود.

إنّه انتصار آرثر غابرييل ياك لدموع زعيم تمرّد على الموت وعاد ليكمل «المشروع»، فإذا به يتوق إلى قبره ثانية بعد أن صقّ سمّعه الشاهد الأول على قيامته بعبارة «انفصلنا»!

لا أريد لهذه القصة أن تسهي؛ كان هذا ما تردّد في نفسي وأنا أتابع وقائع هذه الرواية في كلّيتها الحقيقيّة أو في حقيقتها الكاذبة.

رضا حني

مكتبة نوميديا

ISBN: 978-9738-24-027-6



9 789938 240276

t.me/Numidia_Library